تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار

تأليف

الأب هنري لامنس اليسوعي

١ ـ ٢

دار الرائد اللبناني

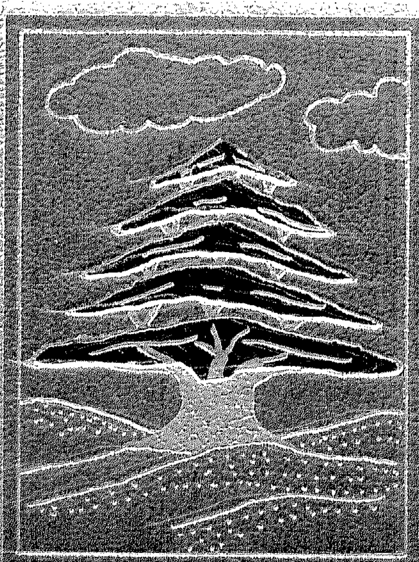

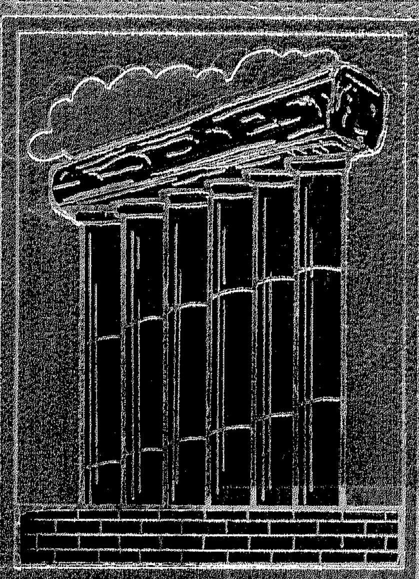

Bibliotheca Alexandrina
0121360

تسريح الأبصار
في ما يحتوي لبنان من الآثار

تأليف

الأب هنري لامنس اليسوعي

الجزء الأول

في قسم لبنان الشمالي

نقلاً عن مجلة المشرق

دار الرائد اللبناني
الحازمية – لبنان
ص.ب. ٩٣

تمهيد

لبنان غني بآثاره التي تشتمل عليها مدنه وقراه ، ولكن معظم هذه الآثار مجهول من الكثرة الكاثرة من أبناء شعبنا ، وهو ما حدا بالمؤلف الأب هنري لامنس اليسوعي الى وضع مجموعة مقالات وأبحاث نشرها في مجلة « المشرق » بعنوان « تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار » ضمنها من الاخبار التاريخية والاوصاف الجغرافية ما يساعد على الكشف عن آثار لبنان وإلقاء الاضواء الساطعة عليها .

وقد رأت دار الرائد اللبناني انطلاقاً من مبدأ الاهتمام بتاريخ البلاد ومآثر الاجداد أن تقدم الى الأجيال الجديدة هذه المقالات مرة ثانية منشورة في كتاب يحمل العنوان نفسه الذي نشرت المقالات في مجلة « المشرق » به ، ليطلعوا من خلالها على ما مر على مسقط رأسهم من أمم وشعوب مختلفة تركت بصماتها الحضارية في كل مكان منه ، ولتزودهم بقسط من المعرفة يندر أن يقعوا على مثله ، لا سيما وأن المؤلف الى جانب حديثه عن الرسوم والآثار فهو يهتم بالكلام على الأنهار والسواحل والوديان والاغوار والاحوال الجوية والحيوانات المفقودة والمعادن والسكان ومدى انتشارهم فيه واللغات التي كانوا يتكلمون بها .

من البديهي أن لا تشمل هذه البحوث والدراسات ، وقد وضعت مطلع هذا القرن ، ما اكتشف من آثار بعدها ، الا انها والحق يقال قامت بدور مهم وبارز هو أنها حفظت كثيرا من الرسوم والآثار التي درست بعد نشرها ، وكان لها فضل الابقاء على أخبار هذه الآثار وتعريفنا بها وانقاذها من النسيان والغياب في بطون التاريخ والازمنة ، ومن هنا ميزتها . وهذا هو الذي دفع بنا الى أن نبادر الى نشرها لتكون اسهاماً في المكتبة التاريخية اللبنانية وتعريفاً للأجيال اللاحقة بما فعلته الأجيال السابقة .

الناشر

الفصل الاوّل

قسم لبنان الواقع في شمالي بيروت

اذا ما خرج المسافر من بيروت سائرًا نحو الشرق اوّل ما يلقاهُ في طريقهِ نهر بيروت . وهو مجرى ماء ربما اضحى في الشتاء سيلًا جارفاً . واكثر الكتّاب المحدثين يرتأون انهُ هو النهر الذي دعاهُ بلينيوس الطبيعيّ نهر ماغوراس وانهُ كان من انهار الفينيقيين المقدّسة دعوه بذلك اشتقاقاً من اسم الاله ماقار وهو اسم زُحل بلغتهم (١ وقد عارض هؤلاء الكتَبَةَ غيرُهم فانكروا ان نهر بيروت هو نهر ماغوراس المذكور (٢ واحتجّوا لذلك بحجج لا يسعنا هنا بسْطها

واذا اجتزتَ النهر وجدتَ في طريقك اوعلى مقربة من الطريق قرًى ومزارع نظنُّها حديثة العَهد اللهمَّ الّا سنّ الفيل التي ورد ذكرها في تآليف الصليبيين مصحَّفةً بسِنِسْفيل (Senesfil (٣)) . ثمَّ تقطع سهلًا مستطيلًا على سيف البحر يؤدي بك الى نهر انطلياس الذي بجواره موقع القرية المدعوَّة بهِ

واسم انطلياس كما لا يخفى معرَّب وقد تضاربت في اصلهِ الآراء فمن العلماء من زعم انهُ نُسب الى النبيّ الياس واهل القرية يعظِّمون هذا القديس ويكرّمونهُ ايّ اكرام ويقدّمون لكنيستهِ المشيّدة في قريتهم النذور ويأنفون ان يحلفوا باسمهِ واذا حلفوا كرهوا الحنث بايمانهم فقيل ان الضيعة دُعيت لذلك باسم هذا النبيّ . الّا ان في هذا التفسير شبهةً لانهُ لا يبيّن معنى اوّل لفظة « انطلياس » ولم يحاول بعدُ احدٌ شرحها . وجاء في تقليد اهل لبنان ان انطلياس دعيت باسم بعض المشاهير او المعبودات ولم يمكنّا تحقيق ذلك

ولعلّ انطلياس مشتقَّة من الكلمة اليونانية (ἀνθήλιος) اي موازٍ للشمس لان انطلياس تقابل المغرب بينما تواجهُ بيروت جهة الشمال . وهذا الشرح لا يتجاوز حدّ

---

١) راجع تاريخ الفينيقيين Movers : *Phœnizier*, I, 262 et 666,

٢) راجع مجلّة العاديّات Revue Archéologique, 1878, I, 13, *Note* 1,

٣) راجع Rey : *Colonies franques* p. 524,

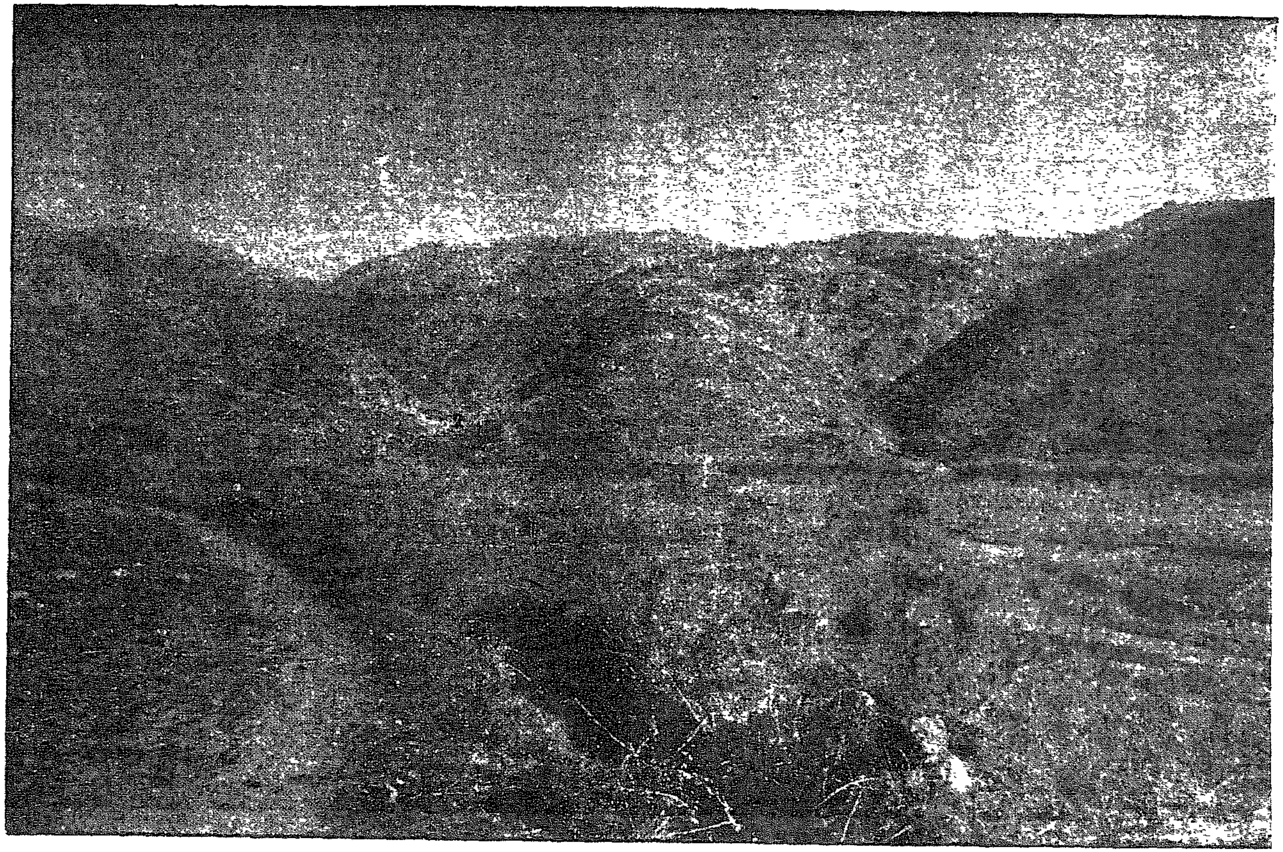

جوار محطّة انطلياس – المغارة والنبع

الحدس والرجحان · وعلى كل حال انّ انطلياس قرية قديمة العهد يشهد بقدمها ما وجدهُ علماء العاديّات من الآثار الجليلة كعواميد ذوات حجر واحد من الرُّخام المحبَّب ونواويس وبقايا بنايات قديمة · فلا شكَّ ان العمد يدلُّ ان ثمَّت كان هيكل للعبادة كما ان النواويس المكتشفة تشهد بوجود مدفن قديم وبقايا الابنية تبيّن وجود القرية القديمة سواء تدعى بانطلياس او باسم آخر مفقود

وموقع انطلياس حسَنٌ جدًّا لا بدَّ انهُ استلفت منذ قديم الزمان انظار الاهلين فسكنوه وعمَّروه ولا نظنّ انّ قرّاءنا نسوا ما كتبهُ في اعداد المشرق (١ : ١٠٤) حضرة الاب زُموفن بخصوص محطّة انطلياس القديمة وما وُجد فيها من الآثار التي تقدَّمت عهد التاريخ · والذي حمل الاقدمين على ايثار انطلياس وتفضيلها على ما سواها انمَّا هو نهرها ذو الماء العذب الزلال الذي يولي البقعة المجاورة للضيعة نضارةً وخصبًا

وكانت السكَّة الرومانية الواصلة بين نهر الكلب وبيروت تجدي سكَّان انطلياس منافع جمّة فتسهّل لهم نقل كل خيرات المدينة ولا غروَ ان الرومان اقاموا هناك نُصُبًا للدلالة على المسافة بين بيروت والقرية التي نحن بصددها وهي مسافة خمسة اميال اي نحو سبعة كيلومترات ونصف

فهذا جلُّ ما نعرفهُ الآن عن انطلياس · وقد زعم البعض ان هذه الضيعة هي مدينة لاوُنتوپوليس القديمة (١ وهو رأي واهن لا يمكن اثباتهُ ببرهان صحيح · والصواب انّ لاونتوپوليس كانت في جنوبي بيروت على طريق صيداء ·

٢ صربا وجونية

ثم تعبر نهر الكلب الذي كان يدعوهُ الاقدمون ليكوس ومعناهُ الذئب وتسير مدّةً فتصل الى ضيعةٍ موقعها شماليّ النهر تدعى صربا وهي منتصبة فوق الصخور المشرفة على خَور جونية · وهو شَرم في البحر يُعدّ من احسن خلجان سوريّة ولو اراد احدٌ ان يحوّلهُ الى مرسًى لتهيّأ لهُ ذلك دون مشقّة · وليس في كل ساحل الشام من غزّة الى الاسكندرونة ميناء طبيعيّة سواه · وهو في جهتهِ الشمالية

(١ Revue Archéolog., 1872, I, 172

عميق الغور فلا بأس على السفن اذا ألقت هناك مراسيها لان هذه الجهة الشمالية آمن من الجهة الجنوبية التي قعرها رملٌ . وخور جونية بمعزل عن الرياح الخطرة الشديدة الهبوب كريح الشمال وريح الجنوب والصبا . ومع كل هذه الخصائص بقيت جونية قرية لا يُعبأ بها مدة اجيال طويلة ولا علّة لذلك سوى صعوبة الوصول اليها وانحصار اطرافها بين جبال عالية تُطلّ عليها شرقاً ومضيقَيْ نهر الكلب والمعاملتين شمالاً وجنوباً . وعليهِ لم يمكنها ان تنبسط في السهول المجاورة وتُوسّع نطاق ارباضها كغيرها من المدن مثل بيروت وطرابلس وصور وصيداء

ورغماً عن هذه العوائق قد اخذت جونية منذ أمدٍ قريب تحفل بالسكّان وتزيد اتساعاً . وقد نالت نصيباً كبيرًا من الحظ منذ أُنشئت السكة الحديديّة على ساحل البحر الّا انّها تفتقر لترقى في معارج النجاح الى شيئين اعني الى مياه عذبة يجلبها اليها اهلها من احد الينابيع القريبة والى بعض تحسين سهل في مرفإها بأن يُجعل لهُ رصيف لنقل البضائع الى البرّ ونزول الركّاب وتعميق بعض اطراف الخليج . فلو اخرج اهل جونية هذه المشروعات الى حيّز العمل اضحت بلدتهم من ابهج البلاد واشبه شيء مع صغرها بمرفإ نابولي المعدود من ابدع منازه الدنيا

هذا ما يختصّ بخور جونية امّا البلدة نفسها فقد اشتُقّ اسمها من خليجها فدُعيت بهِ جونية جوناً او خَوْرًا . ولها ذكر في تواريخ القرون المتوسطة . وكانت في ايام ياقوت الروميّ من اعمال طرابلس (١ . وقال الادريسي (٢ وهو من كتبة القرن الثالث عشر: « انّ جونية حصن على البحر واهلهُ نصارى يعاقبة » . وذكر لها في محلّ آخر كورةً (٣ وذلك مما يشير بنوع جليّ الى اهميتها . وقد ورد ايضاً اسم جونية في تآليف الصليبيين وهم يدعونها جوينة (Juine) . امّا قدماء الجغرافيين من اليونان والرومان فلم يرووا شيئاً عنها ولا عن صربا التي كانت تُعَدّ من ارباضها متعلّقة بها . ولذلك لم نرَ نحن ايضاً ان نفصلهما عن بعضهما

قال بلينيوس الطبيعيّ : « انّ بين نهر ليكوس (نهر الكلب) ونهر ادونيس

---

١) معجم البلدان (٢ : ١٦٠)

٢) راجع طبعة غلدمَيْستر ص ١٧

٣) ص ٢١

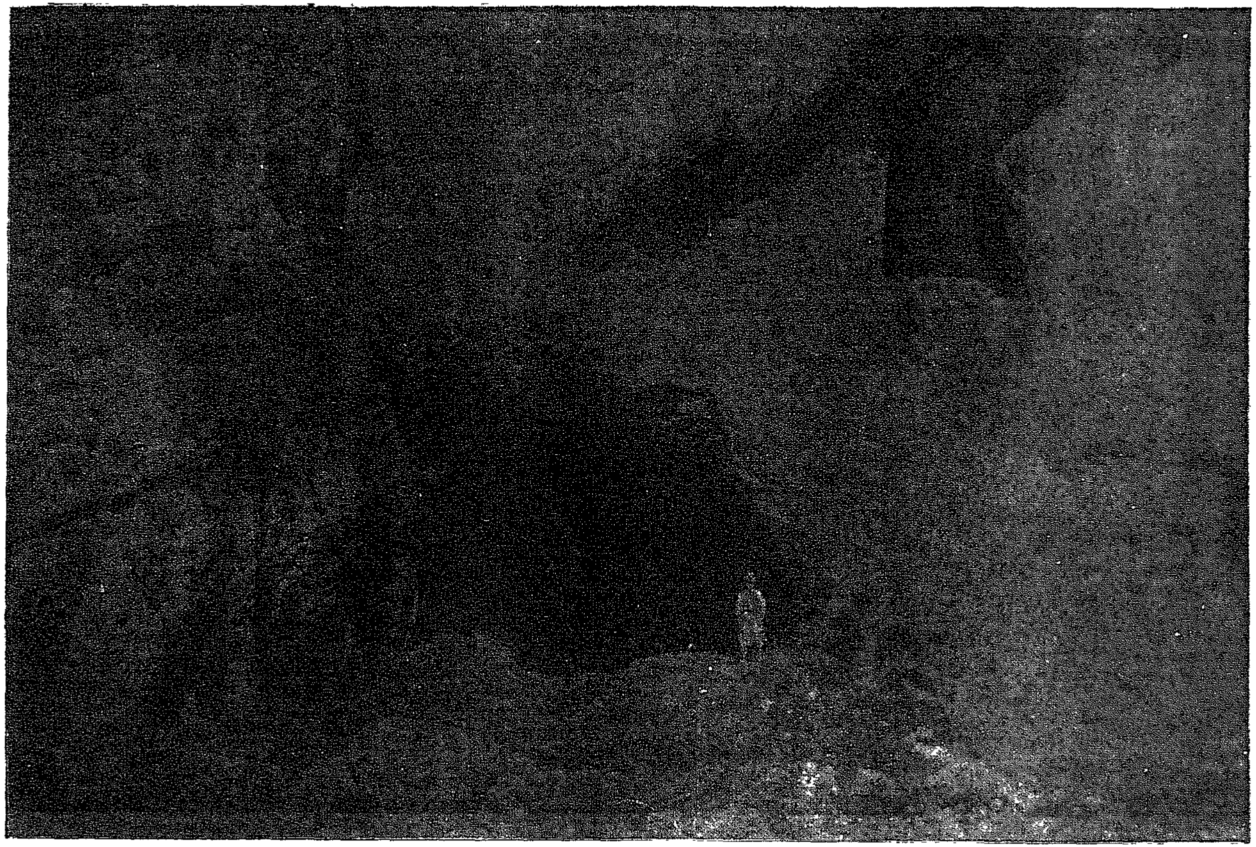

مدخل مغارة انطلياس

(نهر ابرهيم) مكاناً يُدعى پالِيبِبْلوس (Palæbyblos) » . وزاد عليهِ ايضاحاً اسطرابون الجغرافيّ قال: « اذا سرت من بِبْلوس (جبيل) جنوباً تلقى في طريقك اوّلًا نهر ادونيس ثم جبل كليمَكْس (ὄρος Κλίμαξ) ثم بعدها پاليبْلوس واخيرًا نهر ليكوس » . فاذا اعتبرنا كلام اسطرابون لا نجد بين نهري الكلب وابرهيم سوى محلّين احرزا لهما في الزمان القديم شهرةً بعدد سكّانهما وهما « برجا » و « جونية صربا » . وما من موقع الاهما يحسن ان يكون مربطاً للسفن . وتعيين المرافئ كما لا يُخفى من شأنهِ ان يبين موقع المدن الفينيقية القديمة لحذق الفينيقيين بفنّ المِلَاحة وتفرُّغهم للتجارة (١

واول ما يفيدنا اسطرابون انّ پاليبلوس هذه في جنوبي جبل كليمَكْس فاذا تحقّقنا موقع هذا الجبل استدللنا ايضاً على مكان پاليبلوس . ونظن ان الجبل المذكور هو الجبل المشرف على البحر في شمالي جونية بقرب العاملتين وهو عبارة عن صخور مرتفعة يمرّ في وسطها طريق الساحل . وتسمية اسطرابون لها بكليمكس موافق جدًّا لان كليمكس (Κλίμαξ) باليونانية معناه المُرتقى والدَّرج . وقد آثر بعض العلماء (٢ رأياً آخر في تعيين جبل كليمكس فقال انهُ هو الجبل المشرف على جونية الذي تعلوه قريتا حريصة وغسطا . وما فيهِ من المراقي الصعبة اشبهُ شيء بدرج السلّم فدُعي لذلك كليمكس . وكلا الرأيين محتمَل فندع لقرّائنا ان يرجّحوا الواحد على الآخر . وبناء على هذين الرأيين لا بدّ من القول انّ پاليبلوس هي صربا لوقوعها في جنوبي جبل كليمكس

ولا غرو ان يكون موقع جونية وصربا استلفت منذ القدم انظار الفينيقيين وهم في حاجة الى نقل بضائعهم بحرًا . وعلاوةً على ذلك اننا نعلم ان اكثر المدن الفينيقيّة كانت مبنية في سالف الزمان على نُشوز او على رؤوس تشرف على البحر كما ترى في جبيل وصيداء وبيروت وصور وهلمّ جرًّا . فلا ريب اذن ان صربا

---

١) راجع مجلّة المباحث (Études, 1861, p. 524) وفيها مقالة ذات شأن في آثار سوريّة للاب بوركنو اليسوعيّ . الّا اننا لا نوافق كاتبها في رأيهِ عن پاليبلوس . وسيأتي ذكر هذا المبحث في معرض كلامنا عن برجا

٢) راجع مجلّة العاديّات Revue Archéolog., 1878, I, 3 et 15

وجونية اضحتا قديماً مقاماً للفينيقيين ومرفأ لسفنهم

وما وُجد في هذه السنين الاخيرة من الآثار القديمة بصربا يؤيد رأينا . الّا انّ البنايات الحديثة قد أفنت كثيرًا من تلك البقايا الجليلة التي وصفها السيَّاح منذ بضع عشر سنين . ومن هذه الآثار مغارة يكرَّم فيها اليوم القديس جرجس ويظهر انها كانت سابقاً هيكلًا لعبدة الاصنام . ومنها القبر المعروف بقبر بنت الملك وهو مدفن قديم . ومنها ايضاً قبور ومعاصر قديمة الى غير ذلك من الاخربة الدارسة

ولكن اعظم هذه الآثار قلعة صربا التي لم يبقَ منها غير قسمها الاسفل وهو عبارة عن حجارة ضخمة تشبه حجارة دير القلعة . وكان سابقاً بجوار تلك العمارة اعمدة ورؤوس اعمدة وبقايا أُخر من هيكل قديم (١ لانّ هذه القلعة كانت معبدًا للوثنيين ولعلّها كانت مخصَّصةً بعبادة سيرابيس . وقد اشتقّ الكاتب كولنّا شكَّلدي (Ceccaldi) اسم صربا من اسم سيرابيس اله هذا الهيكل . وقد اكتُشِف ايضاً في صربا وجونية على مسكوكات فينيقيَّة وتماثيل وكتابات من جملتها كتابة يونانية في ركن بعض التماثيل كتب فيها (Ζεύς ἐπουράνιος) اي « المشتري السماوي »

فيظهر اذن مما تقدَّم انَّ جونية وصربا شُيّدتا في موضع مدينة قديمة يرجَّح انها پاليبلوس وكان مُعظَمها فوق الصخور في محلّ صربا وكانت جونية كمرفإٍ لها منذ ايَّام الفينيقيين

٣ نهر الكلب

ان طريق جونية كما ذكرنا في مقالتنا السابقة يقطع نهرًا طالما ورد ذكرهُ في تاريخ سواحل فينيقية وهو نهر الكلب . وليست خطارة هذا النهر بعمق غَوْر مياههِ او طول مسافة سيلهِ لانَّ اصلهُ كما لا يُخفى من مغارة في سفح جبل جعيتا تبعد عن البحر ستة اميال فقط وتختلط مياههُ عند خروجه بالمياه المنحدرة من اعالي لبنان من نبعَي اللبن والعسل فيجري من ثمَّ مرغياً مزبدًا حتى ينتهي الى البحر فيصبُّ فيهِ .

---

١) وقد نقل البنّاؤون كثيرًا من هذه الحجارة فاتخذوها للبنايات المستحدثة كما فعلوا في دير القلعة . وهذا امر لا شكَّ يؤسف عليهِ فاذا داوم الاهلون على خُرقهم في تحطيم هذه الرسوم لم يبقوا عمَّا قليل في لبنان شيئاً من الآثار القديمة

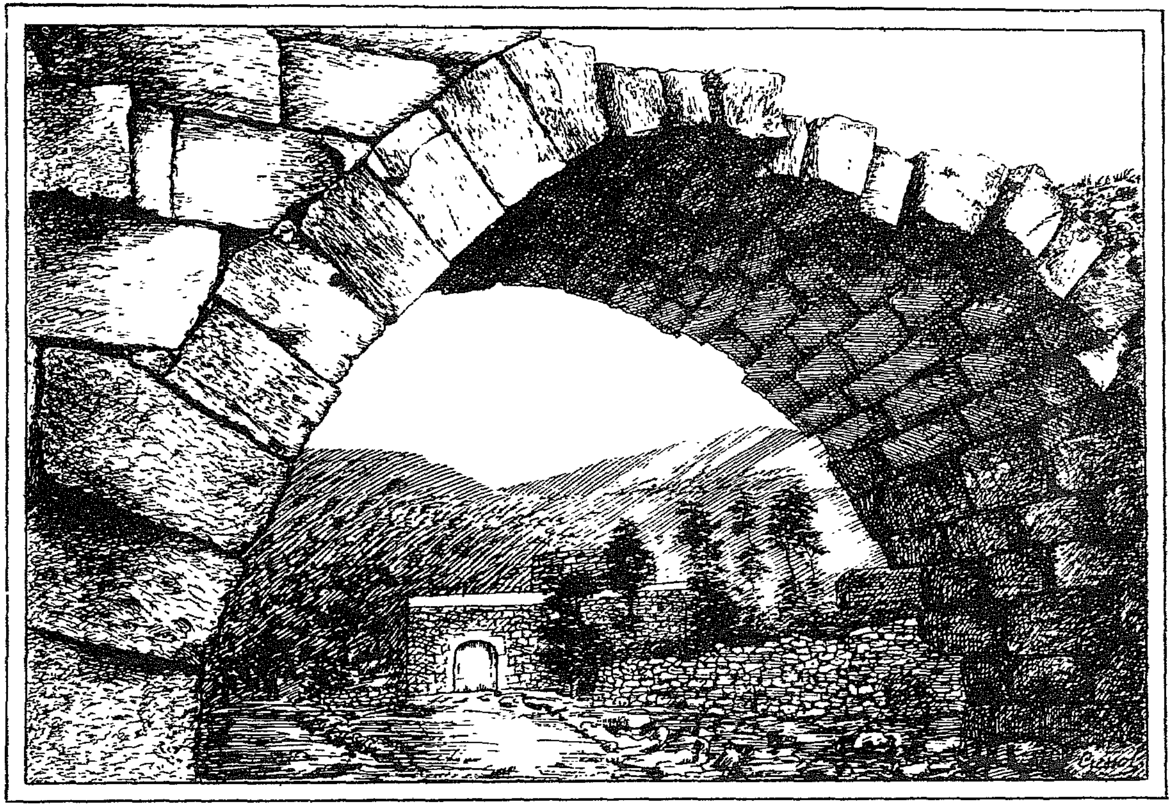

جسر المعاملتين الروماني

وانما لنهر الكلب شأن في تاريخ الفتوحات العظمى القديمة لانَّ عند مصبّهِ مضيقاً لا بدَّ من قطعهِ لمن حاول المرور في سواحل سوريَّة ولذلك اضحى هذا المكان في كل الازمنة كمأزقٍ بهِ اصطلت نيران الحروب بين الملوك الفاتحين وسكان البلد المدافعين عن وطنهم

وقد قدَّمنا ان اسمهُ باليونانية «Λύκος» اي ذئب فعُرّب بنهر الكلب. ولكن أنّى لهُ هذه التسمية وما سبب هذا اللقب ؟ نجيب ان الاقاصيص الشائعة بين العامَّة تروي عن اصل هذا الاسم اموراً غريبة منها ان كلباً هائلاً كالغول كان يحرس هذا الممرَّ الحرج فلا يدع احداً يجتاز ما لم يحلَّ لهُ لغزاً يعرضهُ عليهِ. وهذه الرواية اشبه شيء بحكاية اليونان عن ابي الهول (Sphinx) الذي كان يفترس من لم يستطع الى فكّ احاجيهِ سبيلاً. ومنهم من زعم انَّ النهر دُعي كلباً لانَّ الوثنيين قديماً نصبوا هناك صنماً على هيئة كلبٍ يعبدونهُ ويدَّعون انَّهُ اذا وافاهم العدوّ ينبح الكلب فيحذّرهم من هجماتهِ. ويقولون انَّ بعض الصخور المجاورة للنهر تمثِل جسم هذا الصنم بيد انَّ رأسهُ قُطع فأُلقي في البحر. ولا نظنّ انَّ في هذه الاحاديث شيئاً من الصحّة لانَّ العلماء لم يقفوا بعد البحث على اثر للتمثال المذكور فضلًا عن ان الكتبة الاقدمين لم يذكروا شيئاً من امرهِ. والرأي الصواب عندنا انَّ النهرَ يُسمَّى ذئباً او كلباً لصخابة صوتهِ عند انصبابهِ في البحر حيث تصطدم مياهُهُ بالامواج المتلاطمة فيُسمع لهُ دويٌّ عظيم (١ ويشبه هذه التسمية اسم الليطاني الذي دعاه القدماء نهر الاسد (Λέοντος πόταμος) فعُرّب بالليطاني وهو الذي يصبُّ في البحر بين صور وصيداء ويسمَّى عند مصبّهِ نهر القاسميَّة

وبالقرب من النهر آثار الطريق الرومانية التي نُحتت في وسط الصخور المطلّة على النهر جنوباً وقيل ان مرقس اوريليوس انطونينوس الملك (٢ بين سنَتَي ١٧٧ و ١٨٠

---

١) راجع Ritter : *Erdkunde, XVII,* 92 ولهذا المؤلف تفسير آخر لا حاجة لذكرهِ هنا

٢) قد وهم الشيخ طنُّوس الشدياق في اخبار الاعيان في جبل لبنان (ص ١٦) اذ نسب هذا المشروع الى انطونيانس قيصر في سنة ١٤٧ والصواب كما ذكرنا. والشاهد على ذلك كتابتان عند مضيق نهر الكلب يُذكَر في الاولى تمهيدهُ للطريق

وثّر هذه الطريق ووسّعها فدعاها باسمهِ « Via Antoniniana »

امّا الجسر فكان سبقهُ الى بنائهِ انطيوخوس الاوّل المعروف بسوتير ملك سوريّة في سنة ٢٥٠ قبل المسيح ثمّ هُدم وأُصلح مرارًا (١ . والمعبر الذي يُعرف اليوم بالجسر القديم هو الذي اقامهُ السلطان سليم خان الاوّل فاتح الشام كما يُستدلّ على ذلك بكتابة عربيّة رُقمت في عهده ثمّ جدّد بناءه امير لبنان الشهير بشير الشهابيّ الكبير . وقيل ان الجسر الباقي هو جسر ثانٍ نصبهُ الامير بشير بقرب الجسر الاوّل بعد هبوطهِ (٢

ومن الاخربة القديمة ما تراهُ على الضفّة الشمالية من الآثار وهي بقايا قناةٍ عظيمة كان الرومان بنوها لنقل المياه الى السهول الواقعة بين نهر الكلب وجونية وقد اتخذها اصحاب الارزاق في ايامنا لجلب الماء الى طواحينهم

هذا على انّ في جوار نهر الكلب آثارًا غير المذكورة آنفًا لها في تاريخ فينيقية اعظمُ شأن . ومن غريب الامور ان كثيرين من الكتبة الى اواسط هذا العصر انكروا وجود هذه العاديات (٣ مع انها مكشوفة للعيان يراها كل ابناء السبيل . وانما يعود الشرف لاثبات وجودها وبيان اهمّيّتها للمرسل الشهير الاب مكسيميليان ريلّو اليسوعي (٤ . فنقل رسومها بكلّ دقّة وبعثها لعلماء اوربة ليجدّوا في شرحها

وهذه الكتابات او الآثار القديمة عبارةٌ عن خمسة عشر اثرًا اربعة منها خطوط اشوريّة بالقلم المسماريّ وُجدت سنة ١٨٨٢ تحت القناة الرومانية فوق الحضيض باثني عشر مترًا على مقربة الجسر الجديد بميلةٍ قليلة الى الشرق . لكنّ هذه الكتابات مطموسة لم يُستخلص بعدُ منها فائدةٌ تُذكر

---

١) ومن جملة من اصلحوا هذا الجسر سيف الدين ابن الحاج ارقطاي المنصوري سنة ١٢٩٢

٢) راجع اخبار الاعيان ص ١٧

٣) لو جمعنا كلّ ما كُتب في هذا الخصوص للمدافعة عن وجود كتابات نهر الكلب او انكار ذلك لحصل من هذا المجموع كتاب ضخم الحجم (راجع مجلّة العاديّات سنة ١٨٦١ ص ٦٩) وما يزيدنا عجبًا ان العلّامة دي سوسي الكاتب الشهير لم يقتنع بوجودها مدّة سنين كثيرة مع انهُ اجتاز بقربها في غضون سفره الى الشرق

٤) Ritter, XVII, 534

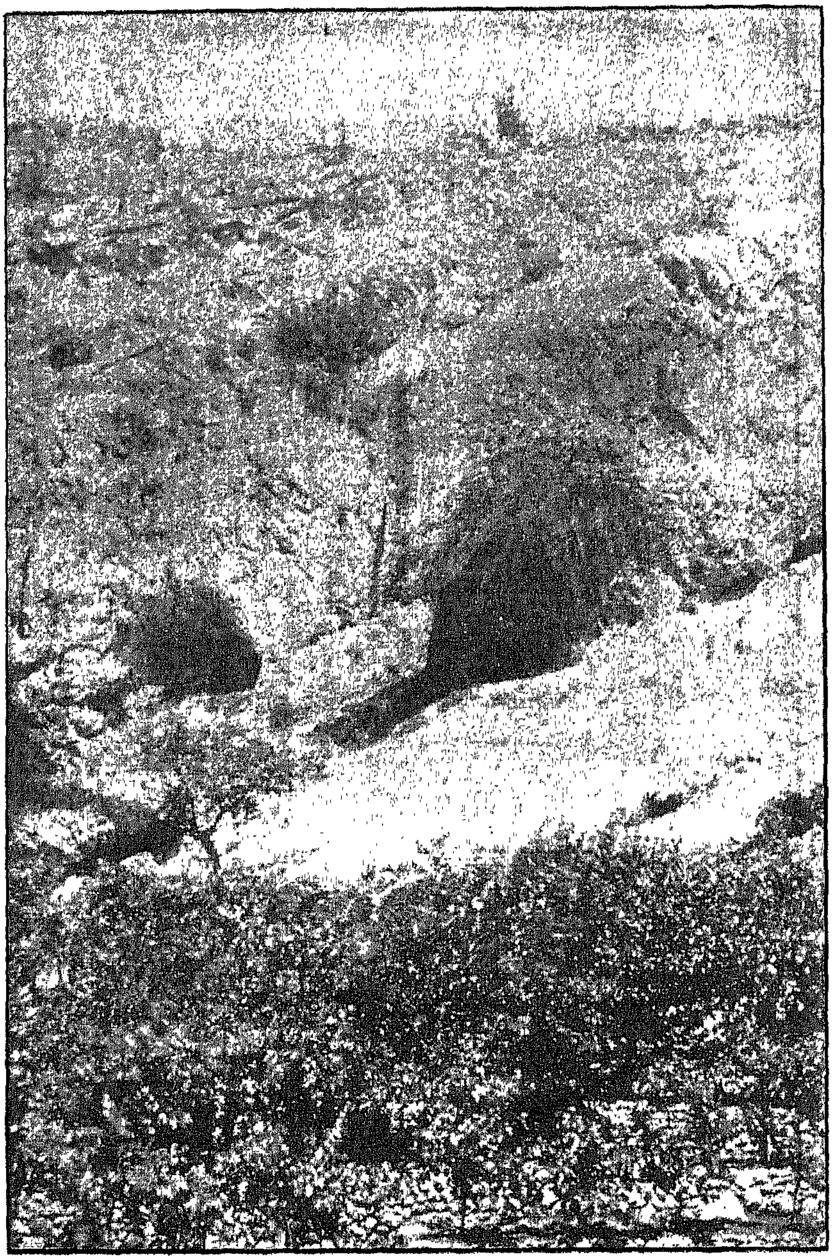

مدخل مغارة جعيتا ومنبع نهر الكلب

امّا بقيّة الآثار فوقعها على ضفّة النهر الجنوبية وهي احدى عشرة كتابة ما خلا الكتابتين اللاتينيتين المذكورتين سابقاً

١ فاوّل هذه الكتابات وردت على صفيحة قديمة كبيرة بالقلم المصري الهيروغليفيّ تتضمّن تقدمةً للاله « فتاح » المصريّ · وهي الصفيحة التي نُقش عليها ذكر البعثة الفرنسية التي وردت الشام في سنة ١٨٦٠ وهذا الخطّ الفرنسيّ مع حداثة عهده كاد ان يُطمَس رسمُهُ مع بقاء كتابة مرقس اوريليوس بعد ستة عشر قرناً

٢ والكتابة الثانية بالقلم المسماري موقعها بجانب الطريق كالاولى وهي تمثّل صورة ملك اشوري رافعاً يده

٣ وبقرب هذه صورةٌ اخرى اشوريّة توارى معظم رسمها فلا يُميَّز منها سوى الرأس

٤ واذا صعدت نحو عشرين متراً فوق الطريق القديمة المشرفة على السكّة الرومانية تجد صورة اخرى اشوريّة طامسة الاثر

٥ و ٦ ثم هناك ايضاً كتابتان يونانيّتان ذهب الدهر بحروفها فلا يُرى منها الّا اليسير · وقد زعم دليل بيديكر (١ ان احداهما لاتينيّة والصواب كما قلنا

٧ وتليها صورة اخرى اشوريّة

٨ ثمّ نُصبٌ مصريّ يمثّل احد الفراعنة منتصباً يقرب قربانهُ لاله الشمس « راع »

٩ وفي تلك الجهات ايضاً كتابة اشوريّة مع صورة ملك وكلاهما قد صبر على غابر الدهر

١٠ ثمّ رقيمٌ مصريّ فيهِ صورة بعض الفراعنة والاله عمُّون

١١ واخيراً صفيحة متقنة الرسم تمثّل ملكاً اشوريّاً ذا لحية طويلة مجعّدة لابساً رداءً سابغ الذيل وعلى رأسهِ تاجُ ملوك اشور وفي يدهِ اليمنى مِقصرة يسندها الى صدرهِ

(١ راجع دليل بيديكر (الطبعة الرابعة الالمانية Baedeker, p. 331)

فاقدم هذه الكتابات هي الخطوط المصريّة التي امر برقمها رعمسيس الثاني فرعون موسى المعروف عند اليونان بسيسوستريس وذلك في آخر القرن الرابع عشر قبل المسيح يصف فيها غاراتهِ وفتوحاتهِ العديدة (راجع المشرق ١ : ٨٨٨ و٨٨٩)

امّا الكتابات والصوَر الاشوريّة فقد اختلف العلماء في تفسيرها قيل ان احداها تمثّل سنحاريب ملك بابل الذي ذكرت التوراة غزوتهُ وسوء منقلبهِ نحو سنة ٧٠١ قبل المسيح . والمظنون ان بقيّة الصفائح تتضمَّن صوَر الملوك الاشوريين تغلات فلاسر الاوَّل وسلمناصر الثاني واشور بنيبال . وفي كتاباتهم المكتشفة حديثاً في بابل قد بالغوا في وصف غزواتهم لا سيما فتوحهم للشام وقهرهم لسواحل فينيقية . فتكون اذًا هذه الصفائح دليلًا على مرورهم في هذا المضيق وتذكارًا لغلباتهم

وبقي هذا المضيق في يد ممالك شتّى كثيرة الى ان اجتازهُ انطيوخوس الكبير والجأ جيوش البطالسة ان يفرّوا امامهُ هاربين . وفي تاريخ الصليبيين تكرَّر ايضاً ذكر مضيق نهر الكلب ولم يكن للفرنج مناصٌ من عبورهِ في سيرهم على ساحل البحر . وممَّا يُخبَر ان بلدوين الاوَّل لمَّا سار من انطاكية الى اورشليم ليخلف اخاه غدفريد في المُلك كاد يذوق في هذا الممرّ كأس المنيَّة لولا حذقهُ وشجاعة فرسانهِ

وجاء في معجم البلدان لياقوت (٤ : ١٧) انهُ كانت قلعة فوق رأس نهر الكلب (١ ولا غروَ ان ملوك الشام حصّنوا هذا المركز المنيع لدفع هجمات المعتدين

ومن غريب ما ذكرهُ الجغرافيّ اسطرابون ان اهل ارواد كانوا يقطعون نهر الكلب بسفنهم فيصعدون الى داخل البلد . ولعلّهُ شُبّه الامر على اسطرابون لانَّ هذا النهر كثير الصخور لا يخلو من العقَبات سوى عند مصبّهِ . وليت شعري ما الفائدة من الصعود في نهر قصير المسافة لا ترى على جانبيهِ ضيعة مأهولة (٢ . ومن المحتمل ان هذا النهر كان واسع الاطراف عند مصبّهِ فكانت السفن ترسو عنده كما في ميناء

---

١) ويقول ياقوت ايضاً ان هذا الحصن يبعد ستّة اميال عن المرداسيّة على مسافة ثمانية اميال من بيروت . وكذا ورد في نزهة المشتاق للادريسيّ (ص ١٧ ed. Gildemeister) فيتضح من قولهما انَّ المرداسيّة بين بيروت ونهر الكلب بيد اننا نجهل موقع المرداسيّة هذه . ويروى : المزداسيّة

٢) Mission de Phénicie

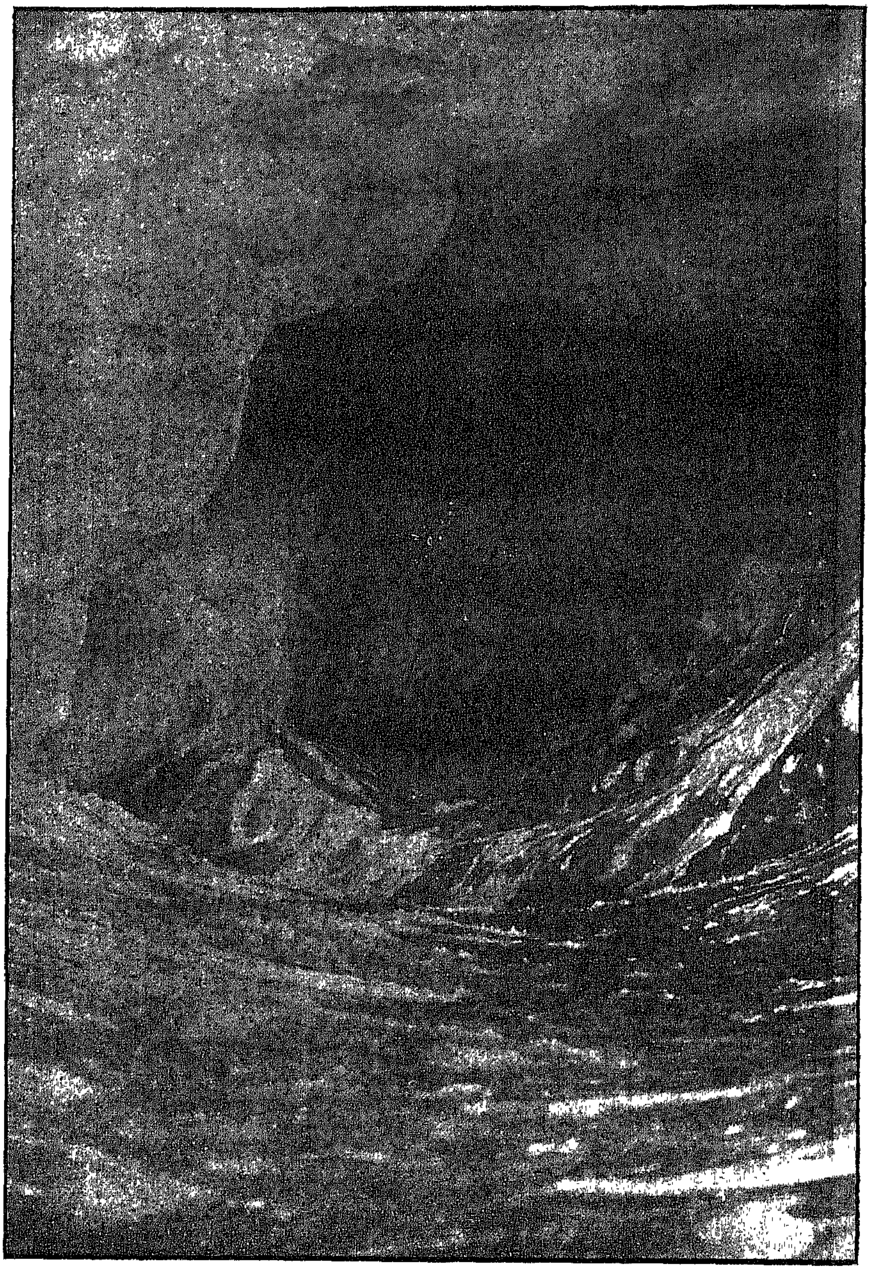

باطن مغارة جعيتا ومنبع نهر الكلب

فتصونها من الرياح الصخورُ المنتصبة في جهتها الجنوبية ٠ ولا يبعد ايضاً القول ان سفن البحّارة الاقدمين كانت تنقل من ثمَّ خشب الارز بعد قطعهِ في قمم الجبال ودفعهِ على وجه المياه الى هذا المكان (١

ويشرف على نهر الكلب من جانبيهِ قرية بلُّونة ودير طاميش والظاهر انَّ في مركزيهما كان هيكل للاصنام فتكون بلُّونة تصحيف اسم الاله ابلُّون (Ἀπόλλων) وطاميش منقولة عن اسم الالهة ارطاميس (Ἄρτεμις) وهي المعروفة ايضاً باسم ديَّانة ٠ وقد وُجدت ايضاً مدافن قديمة قريباً من عين طورة

٤ دير القلعة

انَّ آثار الاقدمين في مشارف لبنان ليست باقلّ شأناً منها في سيف البحر فهيّاً بنا ايُّها القارئ اللبيب قبل تقصّي البحث عن عاديّات الساحل نرقى الاعالي لاستقراء بعض هذه المآثر

وليس في جوار بيروت من هذا القبيل مكان اخطر شأناً واحسن مقاماً من الابنية المعروفة اليوم بدير القلعة ٠ وهذه الرسوم القديمة موقعها بقرب قرية مشهورة اسمها بيت مري تعلو فوق سطح البحر نحو ٧٣٠ مترًا في شرقي بيروت على مسافة ١٨ كيلومترًا منها واليها يتقاطر اهل المدينة في وقت اشتداد القيظ عند الساحل

ولبيت مري اليوم طريق يوصلها ببيروت تجري عليهِ العَرَبات غير أنَّ من يركبها يكابد عناءً عظيماً ويلتحف بثوبٍ من الغبرة تثيرها قوائم الخيل ودواليب العَرَبات ٠ وما ذلك الّا لقلّة الاعتناء بتوثير الطريق ورصّها بالحجارة ٠ ففرارًا من آفتها آثرنا مرارًا الصعود الى بيت مري مشياً مع علمنا ان في المشي نفعاً للصحّة ونزهةً للابصار فانَّ العين تقرُّ لهذه المناظر الجميلة والاذن ترتاح لصدح الطيور ويتنسَّم المنشقُ الريحَ الطيّبة في وسط غابات الصنوبر والشربين

وكان آخر مرّةٍ توقّلنا الجبل للبحث عن آثار دير القلعة في ٢٤ تشرين الاوَّل سنة ١٨٩٩ صباح يوم هبَّ نسيمهُ وصفا اديمهُ فما بلغ بنا المسير الى غايتنا حتى اخذنا نسرّح الطرف في بقايا هذه العاديّات الخطيرة

(١ Russegger, *Reise*, III, 153

والحقُّ يقال انَّ من يسير بين تلك الرسوم الدائرة والطلول الدارسة لا يلبث ان يدرك ما كانت عليهِ ابنيتها القديمة من العظمة والبهاء قبل خرابها

ولكن تُرى ماذا كانت هذه العمارة القديمة التي تُنبئ بها هذه الآثار الطامسة المنبثّة على مسافة كبيرة . ذلك سؤال لا تُحيره كتب القدماء وتآليفُ المحدثين وانما تجيبنا عليهِ الحجارة نفسها فانَّ لها لساناً ناطقاً فصيح المقال . وإنْ نطقُها الّا بالكتابات العديدة التي حُفرت فيها . فاذا أعملنا فيها نظر الفكر وقابلنا بين الافادات المستخلصة من مضمونها وهندسة هذه الآثار القديمة ثمَّ عرضنا ذلك على ما نعرفهُ من تعبُّدات الفينيقيين فلا جرم اننا نحصل على معرفة اصل هذه الابنية وغايتها ومُجمل احوالها

ليس من اثر يفيدنا اسم دير القلعة القديم ولعلّنا لا نتّصل الى معرفتهِ في المستقبل امَّا اسمهُ الحالي فقد اطلقهُ العرب على آثار أُخرى في انحاء سوريّة فانَّهم يدعون بالقلعة كل بناء متسع الارجاء واثق الاركان محكم البنيان . وقد اخبرنا احد فضلاء الرهبان الذين يسكنون الدير المجاور لهذه الاخربة ان اسم هذا المقام «بيروت العتيقة» وجدهُ في صكّ لبيع ملكهِ كُتب في القرن الثامن عشر . فان ثبت على دير القلعة هذا الاسم صحّ عن بيروت ما اخبره بطلميوس الجغرافيّ عن جبيل اذ قال انهُ كان لها مقامٌ يُدعى جُبيل العتيقة (Palæbyblos) وانَّ موقعهُ بعيدٌ عن الساحل (μεσόγειος) . وهذا قولٌ اوردناهُ هنا على علّاتهِ ولا نجهل ان آراء العلماء متضاربة في تعيين مكان بيروت العتيقة بل في وجوده لكنَّ تقليد العامّة ربّما كان دليلًا يهتدي بهِ العلماء لمعرفة الآثار القديمة

وعلى كلّ حال لا يسوغ ان ننسب هذه الابنية لعهد سبقَ زمن ظهور النصرانية فانَّ اقدم كتابة وُجدت في هذه الاخربة نشرها الرحّالة سِتزين [١] ذُكر فيها الملك «اغريبا» ترتقي الى نحو القرن الاول بعد المسيح

وقد وفّقنا الله الى اكتشاف كتابة نُقشت في حجارة هذه المباني ورد فيها اسم القيصر ادريان في بدء القرن الثاني للمسيح . وليس مرادنا بذلك ان هذا المقام

---

[١] Seetzen, *Reisen*, I, 257

كان قبل ذلك خالياً من الاثار ٠ كلّا ٠ فاننا على يقين ان الفينيقيين شيّدوا فوق هذه المشارف معبداً كانوا يحجّون اليهِ او على الاقلّ مذبحاً او نصباً في غابة كانوا يقضون عنده مناسكهم على مثال المشارف والانصاب التي ذكرها الكتاب الكريم(١ فمن ثمّ نظنّ ان دير القلعة كان يقوم لبيروت مقام هيكل افقا لجبيل ومقام هيكل بيتوكيكي (٢ (Bætocece) (حصن سليمان) لجزيرة ارواد ٠ وكما انّ هذين المعبدين سبقا النصرانية فكذلك تقدّمها معبد دير القلعة ٠ وما يؤيد رأينا اسم الاله الذي عبدهُ الرومان في هذا الهيكل فكانوا يدعونهُ بعل مرقد (Baal Marcod) وهو بلا شكّ اسمٌ فينيقيّ

اما بقايا الهيكل الماثلة الى يومنا هذا فليس فيها ما يدلّ على مثل هذا القدم كما ان الكتابات لا تنبئ بذلك ٠ واذا قابلنا هيئة هذه البنايات والمواد المتخذة لها وطريقة بنائها وجدنا انها تدخل في حيّز الابنية المعروفة بالجبّاريّة (cyclopéens) لضخمها وكبرها ٠ ولا يخلو هذا الهيكل من آثار عجيبة كاعمدة وحجارة عظيمة تضاهي بعض حجارة بعلبكّ وسواريها ٠ لكن اصحاب العاديّات يتفقون اليوم على أنّ قدم الابنية لا يناسب دائماً عظمَها وكبرَها بل ربّ بناء قديم صبر على ممرّ الزمان بخلاف عمارة اخرى احدث منها ضخمة الحجارة اخنى عليها الدهر فطمس محاسنها

واذا اعتبرت هندسة ابنية دير القلعة لا ترى فيها شيئاً اختصّ بهِ الفينيقيون دون غيرهم ٠ والاحرى نسبتها الى الرومان لان منها تلوح طريقتهم في البناء ويمكن تعدادها بين الآثار الجليلة التي خلّفوها لنا في القرن الثاني والثالث للمسيح ونرجّح كونها سبقت عهد هيكل بعلبكّ الكبير

واذا تفقّدنا المباني المشيّدة في قمّة هذه الربوة وقفنا على غايتها الدينية فانّ

---

١) راجع مثلًا سفر الملوك الرابع (١٧ : ١٠) حيث ورد عن بني اسرائيل قولهُ: « واقاموا لهم انصاباً وغابات على كل اكمة عالية وتحت كل شجرة خضراء »

٢) قد تفقدنا آثار هذا الهيكل الذي وصفهُ العلّامتان راي ودوسّو :
Rey : *Archives des Miss. scient.* III, 336 ; Dussaud: *Voyage en Syrie*, p. 15, Extrait de la Revue Arch. 1897.

هنالك خطوطاً صريحة في هذا المعنى يُستفاد منها انهُ بُني ثَمَّت هيكل على اسم بعل مرقد (١ اله تلك الناحية · وربما دُعي هذا الاله باسم يونانيّ (Μηγριν) لم يستدلّ احد بعد الى معناهُ · والعلّامة الخطير كارمون غانّو يظن انّ هذه الكلمة تدل على اسم الاله الشخصيّ وان « بعل مرقد » لقبٌ عُرف بهِ في هذا المكان · وألقابهُ كلّها تنبئ بعظم شأنهِ عند الفينيقيين وسموهِ بين مصافّ الالهة الفينيقيَّة · ويؤخذ من احدى الكتابات المكتشفة هنالك انّ الهاً مجهولًا يدعى أرمثينوس (Ἀρέμθηνος) يحثّ المتعبِّدين لهُ أن ينصبوا المذابح لبعل مرقد

ومعنى اسم هذا الاله وسبب تسميتهِ بمرقد يُستخلص من اصل اسمهِ باللغة العبرانية وهي فرع من الفينيقيَّة فان « مرقد » مصدر يشتق من فعل רקד اي رقص وعليهِ يكون بعل مرقد اله الرقص والبَسْط · ولا يبعد انّ هذا الاله هو نفس اله الرقص المعروف عند المصريين باسم « بيس » (Bès) وان المصريين اتخذوهُ من الفينيقيين · ومن القابهِ التي دُعي بها في الكتابات انهُ ملك المآدب والولائم (٢ (Κοίρανε Κώμων) ولعلّ هذا الوصف دليل على ان قدماء الفينيقيين كانوا يجتمعون بقرب هذا الهيكل للقَصْف وتوفير اسباب الهناء كما يصنع اليوم في تلك النواحي بعض اصحاب الملاهي يحذون بذلك دون ان يشعروا حذو اجدادهم

بيّنّا في ما سبق ان الاله المعبود في دير القلعة كان اسمهُ بعل مرقد · فلمّا استولى الرومان على الشام أدرجوا هذا الاله الفينيقيّ في مصفّ الهتهم بل اعتبروهُ كأنهُ هو معبودهم الكبير « المشتري » لا يفرقهُ عنهُ الّا اسمهُ فشيَّدوا لهُ ذلك الهيكل العظيم الذي حجّهُ السوريّون والرومان معاً · والكتابات اللاتينيَّة التي فيها ذكر « المشتري بعل مرقد » كثيرة · وكان اهل بيروت المدعوّة في ذلك العصر

---

١) والكتابات منها يونانيَّة على صورة تقدمة (Κυρίῳ γενναίῳ Βαλμαρκῶδι) او (Θεῷ Βαλμαρκῶδι) ومنها لاتينيَّة يُدعى فيها هذا الاله « المشتري بعل مرقد » (Jovi Balmarcodi) او بالاختصار (J(ovi) O(ptimo) M(aximo) Balmarcodi). راجع: C. I. L., 155 و Waddington : *Inscrip. gr. et lat. de la Syrie*, n^os^ 1856-1857 وكتاب كلرمون غانّو في العاديَّات الشرقيَّة الجزء الاول ص ٩٥

٢) راجع Waddington, n° 1855

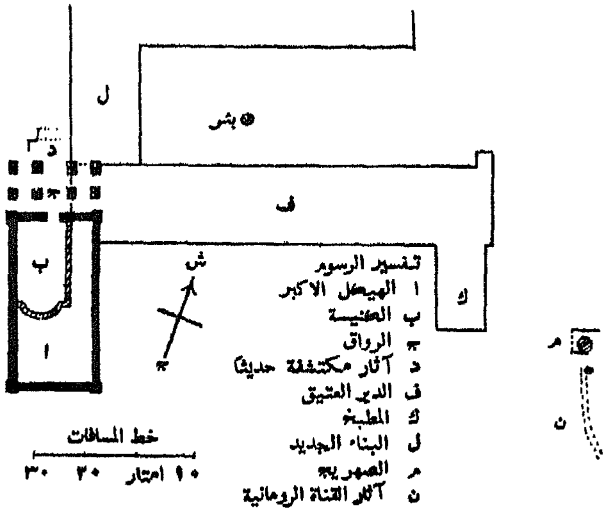
ل
بئر
د
ج
ف
ب
ا
ش
ج
ك
م
ن
تفسير الرسوم
ا الهيكل الاكبر
ب الكنيسة
ج الرواق
د آثار مكتشفة حديثًا
ف الدير العتيق
ك المطبخ
ل البناء الجديد
م الصهريج
ن آثار القناة الرومانية
خط المسافات
١٠ امتار ٢٠ ٣٠

رسم هيكل البعل في دير القلعة

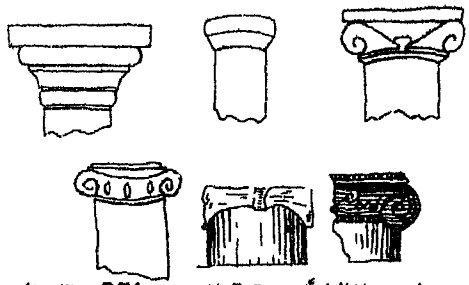

راجع مجلة العاديَّات سنة ١٨٦٦ (ص ٦٢١ و ٦٢٣)

بقايا اعمدة دير القلعة واشكالها المختلفة

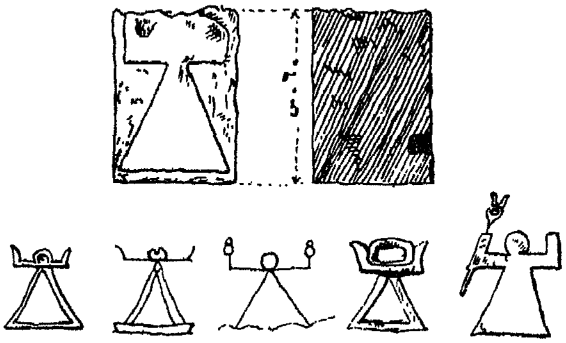

صور المخروطات رمز عشتاروت

« المستعمرة يوليا اوغستا السعيدة » يقيمون فيهِ انصاباً لملوك رومية من جملة ذلك نصب للقيصر ادريانس استُخرج محطَّماً من تحت الردم سنة ١٨٩٧ اسعدنا الحظ على قراءَة مضمونها كما يأتي (١ :

[للامبراطور] القيصر الالهيّ	[Imp.] CAESARI DIVI
وابن [طر] ايانس القَرْطي الالهي	[Tr]AIANI PARTHICI FIL(io)
وحفيد نِرقا الالهيّ	DIVI NERV(æ nepoti)
لطرايانس ادريانس اوغستس	TRAIANO HADRIANO AV(gusto)
الحبر الاعظم بسلطة ممثلي الشعب	PONTIFI(ci) MAX(imo) TRIB(unitia)
قنصل للمرَّة الثالثة اب الوطن	POT(estate) COS III P(atri) P(atriæ)
المستعمرة يوليا اوغستا السعيدة	COL(onia) IVL(ia) AVG(usta) FEL(ix)
بيروت	B(erytus)

ولمَّا عدنا الى بيروت فرحين لاكتشافنا هذا وجدنا في مجموع كتابات وادِنغتون (عدد ١٨٤١) في جملة آثار بيروت كتابةً تشبه كتابتنا المذكورة كلَّ الشَّبه كأَنها هي الَّا في تتمَّة الالفاظ المقتصرة • فاخذنا من ذلك العجب كيف اتصل وادنغتون وبعده دوناتي واورلّي الى هذه الكتابة مع انها حديثة الاكتشاف كما قلنا • ولعلّ اهل بيروت رسموا منها نسختين في وقت واحد

وكانت المرتبة الاولى في هيكل دير القلعة بعد المشتري بعل مرقد للالٰهة « جونون الملكة » (٢ وكانت تُعدّ زوجةً للاله وشريكتهُ في جلال عزَّتهِ • ونرجّح كون جونون هذه هي الإلٰهة الساميَّة بعلة عَشتروت وحَّدها الرومان بالهتهم جونون • وكان عَبَدُتها يأتون هيكل دير القلعة ليستشفعوا بحمايتها ويستفتوا كهنتها كما يُستدلّ على ذلك من بعض الكتابات التي نشرها كلرمون غانو (في كتابهِ العاديَّات الشرقية

---

١) وقد وضعنا بين معكَّفين ما يُقتضى زيادتهُ

٢) هذه ترجمة اللفظة اللاتينيَّة (regina) ويجوز ترجمتها بالبَعْلة وقد ورد ذكر هذه الإلهة في اسفار الانبياء باسم « ملكة السماء » (ارمياء ٧ : ١٨ الخ). وكان للرومان في جبل تَرِبَيُّوس هيكل باسم هذه « إلٰهة السماء العذراء » شاعت عبادتها بعد حرب رومية مع قرطجنَّة وكان اهل قرطجنة يعتبرونها كإلٰهتهم العظمى • والرومان جعلوا عشتروت هذه وجونون الهةً واحدة فعبدوا الاولى بصورة الثانية (راجع مجلَّة Acad. des Inscrip., Comptes - rendus, 1898, p. 475)

ص ١٠٧) . وفي دير القلعة كتابات عديدة لاتينية تتضمَّن تقادم ونذورًا من قبَل الاهلين لهذه الالهة . من ذلك ثلاث كتابات نقشها جنديّ رومانيّ يُدعى « غايوس يوليوس مكسيموس » نشر منها العلّامة كلرمون غانو اثنتين (ص ١٠٧ و ١١٠) ووجدنا الثالثة في جنينة المرحوم الفنس نقاش في بيت مري . وهي مكتوبة على حجر كُسرت قطعتين فحواهـا : « انَّ الجندي المذكور يُبرز نَذرهُ للالهة جونون بطيب قلب »

ومن عادة القدماء انهم كانوا يكرّمون في الهيكل الواحد عدّة آلهـة . مثال ذلك انَّ دير القلعة كان إلهها وسيّدها الاعظم (١ بعل مَرْقد ثمَّ الإلهة جونون كما مرّ . وترى معها ذكر آلهةٍ آخرين وممَّا وجدنا في جنينة المرحوم الفنس نقَّاش قطعتين من كتابة طبع كلرمون غانُو قسمها الاخير (٢ امَّا القسم الاوَّل فاستُخرج حديثًا من الاطلال لم يُنشر بعدُ بالطبع وهذه الكتابة عبارة عن تقدمة قدَّمها شخص يدعى مرقس سِنتيس للمشتري اله بعلبكّ (I. O. M. Heliopolitanus)

وممَّا نحبّ إلفات النظر اليهِ ان اخربة دير القلعة كثيرة الكتابات اللاتينيَّة . وهي كما لا يخفى على من لهُ ادنى إلمام بالعتائق نادرة جدًّا في ما سواها من الامكنة الشاميّة . والسبب لذلك على ما نظنّ ان من استعمر بيروت من الجنود الرومانيين (وكان منهم في بيروت فئتان الخامسة والثامنة) اتخذوا هـذا المكان كمصيف يقضون فيهِ فصل القيظ كالمُثرين من اهل زماننـا فتركوا ثمَّت آثارًا جمّة تنبئ بسكناهم وتعبُّدهم لبعل مرقد . ولو حاولنا سرد هذه الاثار لطالت بنـا المقالة طولًا مفرطًا واكثرها عبارة عن أعلام ليس في ذكرها كبير امر لقرائنا . وترى بين هذه الاسماء أعلام قوم من اهل الحرَف والصناعات فضلًا عن الجند ولا يخلو منها اسماء بعض الاشراف من اعيان الرومان في ذلك العصر

وغاية ما يمكنَّا قولهُ انهُ كان في جوار هيكل البعل عدَّة منازل لسدَنة هذا المعبد وكهنتهِ ثمَّ للجند الرومان واهل الثروة ولبعض العَمَلة . ولا نرانا نتجاوز الحقيقة لو

---

١) ونظنّ ان اسم القرية اشتُقّ من عبادة هذا الاله فدُعيت لذلك « بيت مري » من السريانيَّة ܒܝܬ ܡܪܝ اي بيت السيّد (البعل)

٢) في كتاب عاديَّاتهِ الشرقيّة السابق ذكرهُ

قلنا انهُ كان حول دير القلعة قرية · يستدلُّ على ذلك بوجود معاصر قديمة ونواويس ضخمة منحوتة في الصخر · وكل ذلك يشهد بان الناس جعلوا سكناهم في تلك الهضاب · امَّا بيت مري فلم نسمع انَّ احدًا وجد فيها شيئًا من الآثار القديمة مع ان البناء فيها متواصل والحفر في الارض كثير

فمَّا تقدَّم يسوغ لنا ان نستعيد بالفكر ونحيي بنظر الفهم حالة دير القلعة في القرن الثاني والثالث للمسيح فنقول انَّ تلك الرُّبى كانت تكلّل هامَها غاباتٌ وارفة الظلّ وكانت على منعطف ذلك الجبل اشجار باسقة الاغصان تحجب اشعَّة الشمس المتَّقدة وترطب بفيئها ذلك المقام النَّزه وكان الصنوبر يغلب عليها وقد بقي منهُ بعض البقايا

وكان لا بُدَّ لهذه الغابات مياه غزيرة تروي تُربتها وتُنمي جذورها كما انَّ المياه كانت ضروريَّة لخدَمة الهيكل واهل القرية وللمئين من الحجَّاج والزوَّار ولغسل الذبائح · فسدًّا لهذه الحاجة الماسَّة استجلب القدماء المياه من العيون المجاورة لا سيما من عين عَرْعر وراء بعبدات وكانوا اصطنعوا لذلك قناةً محكمةً لا تزال بقاياها ظاهرةً الى يومنا هذا · وكان في ساحة الهيكل احواض واسعة تجري فيها المياه وتفور الفوَّارات على هيئات بديعة تروق النظر · ويشهد على ذلك كتابة يونانيَّة ورد فيها وصف انبوب قُدّم للهيكل مُصطنع في جزيرة رودس ليُجعل فوَّارة للماء (١

ففي وسط هذه البقعة الجميلة المنظر كان هيكلان عظيمان احدهما للبعل والآخر ليونون او عشتروت · وكان للاوَّل رواق رحب الفناء يسنده ثمانية اعمدة ضخمة من الرخام البلدي (٢ وكان يُصعد الى هذا الرواق بدرج يوازيهِ حُسنًا وسعةً كما اعتاد ذلك الرومانُ في ابنيتهم · امَّا هيكل يونون فقد عبثت بهِ يد الحدثان

---

١) راجع مجلَّة العاديَّات سنة ١٨٤٦ ص ٨٠ · وكان اهل رودس يرسلون الى بيروت طُرفًا من صناعتهم لتباع فيها (راجع Comptes-rendus de l'Acad. Inscrip, 1898, 522)

٢) وقد زعم رينان (Mission de Phénicie, p. 353) ان هذا الرخام هو الرخام المصريّ المحبَّب والصواب ما قلنا · وللمسيو رينان في وصف دير القلعة اغلاط شتى لا يسعنا تفنيدها

حتّى يصعب على علماء العاديَّات بيان رسمهِ وصورتهِ بل وموقعهِ ايضاً

وكان هيكل البعل في داخلهِ مزّيناً بتمثال الإله نُصب في كوَّةٍ على جانبيها العَمد من الرُّخام تشبه المظلّة . وقد ورد في كتابات دير القلعة ذكر تماثيل أخرودُميً لا نعلم أكانت في داخل البناء او في الرواق (١

امّا طريقة هندسة الهيكل فان بيان صورتها ليس بسهل فانك ترى بين البقايا والاخربة ما يُشعر بالهندسة الكورنثيّة والايونية معاً كما ترى في الاشكال المختلفة الممثلة لبعض أعمدة قد رسمَ نقوش اكلّتها حضرة الاب رنزڤال وكان رافقني في هذه الرحلة ودقّق البحث عن آثار دير القلعة الّا انهُ بقي مرتاباً في بيان صورة هندام الهيكل القديم . وانما قدَّر بعد فحص الاخربة الباقية الى يومنا هذا انَّ علوّ البناء كان يبلغ ٢٥ متراً . وذلك بلا مراء دليل على عظم هذا المعبد وجليل قدرهِ

وكانت الاشجار تميس بافنانها حول هذه البنايات بينما كانت الوف من الطيور تصدح فوق رؤوسها وتغرّد طربةً ومن جملتها الحمام البيض رمز الإلهة عشتاروت كانت تحلّق في الهواء ثم تحطّ في اوكارها ساجعةً . وفي وسط الاشجار كانت تماثيل عديدة منتصبةً على دكك مرتفعة وهي تمثّل اصناماً وأبطالًا وبينها مذابح للضحايا والمحرقات ثم اهرام صغار ومنها حجارة مخروطة الشكل يعلوها شبه رأس ويتّصل بها شبهُ ذراعين قد اختلف العلماء في شرح معناها

والمرَّجح انَّها صورة « تانيت » معبودة اهل قرطجنَّة وهي عَشتروت نفسها وقد يراد بها صورة بعل حمُّون او اله الشمس وكلُّها من آلهة القرطجنيين . وقد بقي من هذه المخروطات آثار في دير القلعة الى يومنا هذا والواحد منها منصوب امام كنيسة مار ساسين بين دير القلعة وبيت مري والذي صوَّرناهُ على وجهَيهِ في اعلى الشكل السابق

تلك كانت هيئة هذا المقام الخطير في القرن الثاني والثالث بعد المسيح فاذا زدت على ذلك حركة الزوّار المتقاطرين الى هذه المعابد ترى ما كان لدير القلعة من

---

١) راجع وادنغتون عدد (١٨٦٠ و ١٨٦٣)

الخطارة وعظم الشأن

ولا بدَّ لنا قبل الختام ان نذكر شيئاً عن المدافن التي كانت بقرب دير القلعة لما وُجد هناك من القبور العديدة ففي شرقيّ الدير الحالي على بعد ٥٠٠ متر منهُ ترى خمسة نواويس غليظة العمل واذا انحدرتَ قليلاً وجدت عشرين ناووساً بقي منها اغطيتها على شكل جَمَلون فوقهُ قواعد تُدعى (acrotères) • واذا نزلت الى الجهة الجنوبية بميلةٍ الى الشرق بلغت الى مغارة يدعوها الفلّاحون «مغارة الحبس» وهو غور طبيعيّ في الصخر عند حضيضهِ ليس بمتّسع الّا انهُ كافٍ لدفن ثمانية اشخاص

امّا العبادة الجارية في هذا الهيكل فلا نعلم من امرها شيئاً ولا نخالها كانت تختلف عن عبادة الفينيقيين المكروهة يغلب عليها الخلاعة والدعارة • وليس بمستبعد انَّهُ قُدّمت هناك الضحايا البشرية من الاطفال للبعل كما جرى ذلك في غيره من المعابد الشرقيَّة وشهدت عن صحّته التواريخ الراهنة • ولعلَّ هذه العوائد المنبئة بسوء دين اهل ذلك العصر هي التي حملت ملوك الروم المتنصّرين على هدم هذا الهيكل كما فعل قسطنطين بهيكل أفقة لِما تقرّر عن كهنتهِ الوثنيين من الاعمال الفاحشة فلم يجد سبيلاً الى قطع دابر هذه المنكرات الّا بهدم المعبد المذكور

٥ آثار الرومانيين في لبنان

اثنى صاحب سفر المكابيين الاوَّل (٨: ١—١٦) الثناء الحسن على الرومانيين واعمالهم فقال فيهم: «انهم ذوو اقتدار عظيم ويُعِزُّون كلَّ من ضوى اليهم وكلُّ من جاءهم آثروهُ بمودّتهم ولهم شوكة شديدة •• وكلُّ من سمع باسمهم خافهم •• ومع ذلك كلّهِ لم يلبس احدٌ منهم التاج ولا تردَّى الارجوان مباهاةً بهِ •• وهم يفوّضون سلطانهم وسياسة ارضهم بجملتها كل سنة الى رجل واحد وجميعهم يطيعونهُ وليس فيهم حسد ولا منافسة»

لعمري انَّ هذا مديحٌ نعمّا فاهَ بهِ الله على لسان الكاتب الشريف وصدق في وصف امّة تنطق آثارها الباقية الى يومنا عن جاهها وعلوّ كعبها • ولم يُحرَم لبنان من شواهد عزّ الرومان وشوكتهم • ولو لم يُخلفوا لنا سوى آثار دير القلعة

الذي مرَّ وصفهُ في الفصل السابق لكفى به شاهدًا على صدق مقالنا اذ بيَّنَّا انهُ معبد رومانيّ شيَّدتهُ مستعمرة بيروت الرومانية · بيد ان للرومان مآثر جمّة في جميع انحاء لبنان غير هذا المعبد فرأينا في ذكرها افادةً للجمهور ليطَّلعوا على اعمال هذا الشعب الذي اضحى اسمهُ مرادفًا للفخر والعظمة

ولا بدَّ هنا من مقدّمة موجزة يقف بها القارئ على احوال سوريَّة في وقت تغلُّب الرومان عليها في سنة ٦٥ قبل المسيح · لمَّا قُتل انطيوخوس الثاني عشر ملك سوريَّة (سنة ٨٥ ق م) صارت البلاد في حالٍ من الضعف اطمع فيها دغرانَ ملك الارمن فزحف اليها بخيلهِ ورَجلهِ واستولى عليها غنيمةً باردة لم يقوَ احد على ان ينتشلها من مخالبهِ · فبقيت تحت حوزتهِ الى ان دارت عليهِ الدوائر في سنة ٦٩ لمَّا غلبهُ القائد الروماني لوكلُّوس في واقعة دغرانوكِرْت · فانتهز انطيوخوس الثالث عشر هذه الفرصة ليستوي على عرش آبائهِ الَّا ان ملكهُ لم يدُم سوى اربع سنوات · وكانت سوريّة في تلك الاثناء قد تضعضعت قواها وتقهقرت امورها وانتقض حبلُها · وكان يُحدق بها شعوب قاموا لها بالمرصاد يتطالُّون اليها طامعين في ملكها · تحدُّها جنوبًا مملكة اليهود من بني حشمناي وهم لا يزالون في قلق متداوم · وكان النبطيُّون يملكون على حدودها الشرقيَّة ويحكمون على دمشق وضواحيها وعلى جبل الشيخ · امَّا قبائل البادية فكانت على ثغورها جمّاء تزاحمها وتشنّ عليها الغارات · ولما صار الامر الى دغران صرف همَّتهُ الى عقد العهود مع زعماء هذه القبائل فجعلهم كروّاد تجارتهِ مع البلاد المتاخمة واشتهر من جملة هؤلاء سراة القبائل شيخان ملك احدهما على حمص اسمهُ سمبغرام او سمپسيكرامس (١ · امَّا الثاني فيُدعَى عزيزًا وكانت دولتهُ على بادية شمالي سوريَّة

ومن الدول العربيَّة التي اشتهرت في ذلك الوقت دولة الايتوريين ملكت على لبنان وعلى ساحل فينيقية · وكان هذا الشعب محنَّكًا في آداب الحرب يُحسن الرمي بالنبال · وكان اصلهُ من الجبال الصخرية التي موقعها في شرقيّ دمشق المعروفة اليوم بجبل حوران او جبل الدروز واللجأ · فلم يزل امرهُ يعلو ويقوى حتى تعدَّى

---

١) راجع مجلّة المشرق (١ : ٧٧١) وكتابات وادنغتون (العدد ٢٥٦٧)

حدود وطنهِ فاستولى على جبل الشيخ وبقاع العزيز فضرب ثمَّت خيامهُ واقام لهُ دولةً صغرى جعل عين جرّ (Chalcis) كعاصمتها · وما عتَّم ان تسوَّر قمم لبنان وحصَّنها بالقلاع ثم هبط الى سواحل الشام فاتَّخذ لهُ دولةً ايتوريَّة ثانية اضحت طرابلس مركزها · وكان هولاء الغزاة يهبطون كسيل جحاف من مشارف لبنان فيغزون وينهبون دون ان يقوم في وجههم حاجز · واكثر من كانوا يأذُونهم بكروهم اهل جُبيل وبيروت فلا يقوون على الذود عن حمى ديارهم ومزروعاتهم وسفنهم · ولا غروَ ان الاسماء العربيَّة المحضة الواردة في كتابات يونانية وُجدت في نواحي جبيل وبترون ترتقي الى عهد دولة الايتوريين هوءلاء (١

فتلك كانت حالة سوريَّة لمَّا ارسل پمپيُّوس قوَّادهُ ليحتلُّوها وما لبث ان سار اليها هو بنفسهِ سنة ٦٤ فنظمها في سلك املاك الدولة الرومانية وجعلها اقليماً قائماً بذاتهِ · ثم قلَّم اظفار الفِتَن وفتح معاقل العُصاة وردَّ قبائل البادية الى مساكنها الاولى واعاد السلم والنظام الى مجاريها · ولما سعى اليهِ اهل طرابلس متظلّمين من ملكهم الايتوري ديونيس امر بهِ فقُتل بعد ان تثبَّت ظلمهُ

ثم واصل پمپيُّوس سيره في سواحل سوريَّة ظافراً وتوغَّل لبنان واخذ عنوةً قلعة جيجرتا (Γίγαρτα) الآتي ذكرها فأخربها كما انهُ هدم قلعة وجه الحجر (θεουπρόσωπον) وقوَّض ابنية بترون لحلول اصحاب الجنايات في ضواحيها · ولما قدم جُبيل مثَّل بملكها كينيراس كما فعل بصاحب طرابلس ونفَّس كُربة اهلها وجعل مدينتهم مستقلَّة تحت حمى الرومان

ثمَّ تخوَّف پمپيُّوس وَشْك الشتاء فيمَّم سهول البقاع ورياض دمشق ليُحلّ جنده في بسائطها الرائعة لينالوا هناك نصيباً من الراحة بعد الاتعاب التي تجشَّموها · فقطع جبل لبنان (٢ وافتتح في طريقهِ قلعتَي برُّومة (Borroma) وسنَّان (Sinnan) الوارد ذكرهما · فما دخلت السنة ٦٣ ق · م حتى اتمّ الرومان فتح البلاد السوريَّة واستقرَّ لهم الامر في انحاء لبنان

---

١) راجع Mission de Phénicie, 199, 200

٢) لعلَّ پمپيُّوس تسلَّق بجنودهِ لبنان من جهة جُبَيل مارًّا بالعاقورة فاليمُّونة الى بعلبك

ومن شروط المعاهدة التي عقدها الرومانيون مع اهل الشام ان يَلزم سكان البلاد شرائعهم وسننهم ويجروا على نظامهم القديم ولا يُغصَبون في لسانهم ودينهم وعاداتهم . اما المدن الساحليَّة فجعل الرومان امرها شَورى يدّبر شؤونها نُخبةٌ من اشراف البلد وابطلوا بذلك ما كان لملوكها من السلطة المطلقة . ثم ضربوا الجزية على الاهلين يؤديها لهم الذكور منذ سنتهم الرابعة عشرة والاناث منذ الثانية عشرة الى السنة ٦٥ من عمرهم جميعاً ١) وفرضوا عليهم خراجاً جبوهُ من الاملاك يبلغ في المئة واحداً . ورسموا ايضاً ضرائب ومكوساً على الواردات والصادرات من السلع الَّا ان هذه الرسوم مع ثقلها كانت اخفّ على عاتق السوريين من المغارم والسُّخَر التي حمَّلهم اياها ملوكهم سابقاً وكانوا يتقاضونها دون نظام معلوم وفي اي آن شاؤوا

فما مرَّ على سوريَّة الزمن اليسير حتى التأم صَدعُها وانجبر كَسرها وانتظم شَمل السَّكن فرتعوا في بحبوحة الأمن . وكان الرومان قد احيوا معالم العدل واماتوا سُنن الجور يأخذون للضعيف من المقتدر وينشِّطون الجميع على الاعمال الشريفة والمشروعات المفيدة التي تعود عليهم بالمنافع العظيمة لاسيَّما التجارة والبحارة والصنائع والفنون

امَّا لبنان فأَصاب من هذه الاصلاحات نصيبهُ الحسن . وكان هذا الجبل الشهير لمَّا فتحهُ الرومان قليل السكَّان فزاد اهلهُ بعد مدّة وخصبت تُربتهُ ٢) وعاش اللبنانيون في الرَغد والهناء في حرمة رومة يشكرون لسياسة ولاتهم وينمون في ظلهم الوارف وهم مع ذلك يجرون على سُننهم ويتصرَّفون في تدبير امورهم كيف شاؤوا

ومذ ذاك الحين اخذت العوائد الرومانية تتغلَّب على البلاد الشامية وانتشرت اللغة اليونانية في المراكز الكبرى حتى نَسِي كثيرون اللغة الفينيقيَّة واللغة الآرامية لاسيما بين الاشراف واصحاب الثروة . اما اللغة اللَاتينية فبقيت محصورة في الدوائر

---

١) راجع Ulpiani Digesta, *Lib.* I, *leg.* 2, *n.* 3

٢) وكذلك جرى في حوران . راجع المجلَّة الفلسطينيَّة ZDPV, XXI, 21

الحكميَّة لم يشع منها بين الجمهور غير مفردات تتعلَّق بالموزونات والمقاييس والنقود والادارات السياسية وامور الحرب كهذه : البريد والسجلّ والرطل والدينار والاوقيَّة والبرج والاطربون والبوق والقومس والفسطاط والشُّرطي وما شاكلها · ولعلّ كثيرًا منها وصل الى العرب مجتازًا على ألسنة المتكلّمين باليونانية · وفي بعضها مسحة من اللغة الآراميَّة (١ · وممَّا بلغنا من آثار اللغة اللَّاتينية كتابات قلائل سُطّرت على بعض القبور بيدَ ان المستعمرات الرومانيَّة في سوريَّة داومت على التكلُّم باللَّاتينية ومن جملتها مستعمرة بيروت · امَّا العامَّة فلم يزالوا محافظين على لغتهم الفينيقية او السريانيَّة يؤخذ ذلك من الاسماء الآرامية الواردة في الكتابات القديمة

ولما كانت السنة ٤٧ ق م قدم الشام يوليوس قيصر فنزل في ساحل عكَّة مع جنودهِ ثمَّ سار الى فينيقية ولبنان فتقاطر اليهِ الشعب واستقبلهُ استقبالًا شائقًا عمل في قلبهِ وحملهُ على افاضة نعمهِ على الاهلين فخفَّف من عبء الضرائب ومنح المُدن التي طاف فيها مواهب وألطافًا عديدة وألَّف القلوب النافرة واعطى مدينة بترون الاستقلال

وسار نسيبهُ وخَلفهُ اوغسطس قيصر على منهاجهِ واختصّ لبنان بنعم سابغة ووهب جُبيل أفضالًا عميمة · فقام اهل بترون وجبيل بفروض الشكر لوليّ نعمتهما وأرَّخوا نقودهما بتأريخ اكسيوم (٢ ذكرًا لانتصار اوغسطس على خصمهِ انطونيوس (٣١ ق · م)

ومن اجلّ آثار الرومانيين في فينيقية اتخاذهم بيروت كمستعمرةٍ رومانية · فلما كانت السنة ١٦ ق م قدم الشام اغريپا صهر اوغسطس قيصر وهو مقلَّد بالسلطان

---

١) راجع مـا قلنا عن اصل هذه الالفاظ في كتابنا الفروق · اطلب ايضًا المقالة التي حرَّرناها في المشرق (١ : ٤٤٠ — ٤٤٨) · ونزيد هنا عن اصل كلمة « الشرطيّ » اننا وجدناها في كتابة يونانيَّة مكتوبة بصورة (Χώρτη) منقولة اليها من اللَّاتينيَّة (cohors) · وهي قريبة من لفظة « الشرطيّ »

٢) ورد هذا التاريخ في كتابة جُبيليَّة تُعرف بكتابة البـلاط (Mission de Phénicie, 224) · وقد وجد الدكتور جول روڤيه نقودًا أُخرى تثبت هذا الامر لجبيل والبترون معًا

المطاق على كل انحاء سوريّة · فكان اوّل ما صرف اليهِ نظره ان يقيم مستعمرة يُحلُّ فيها الجنود المتقاعدين ممَّن امتازوا في خدمة الوطن · فلم يجد موقعاً اصلح شأناً وانسب مقاماً من بيروت فجعلها سكنى لفئتين (١ من الجند وهما الخامسة والثامنة المعروفتين بالفئة المقدونيَّة والفئة الاوغسطيَّة · وكانت كلتاهما أبلت بلاءً حسناً في واقعة اكسيوم فأثابهما القيصر باقطاعهما مدينة بيروت

ولعلّ الكتابة التي وجدها سيتزين (راجع ص ١٤) بين اطلال دير القلعة والوارد فيها اسم اغريبا تُشير الى هذا القائد منشئ مستعمرة بيروت · ويُحتمل ايضاً نسبتها الى الملك هيرودس اغريبا الاول الذي زيّن بيروت بعد ذلك بعدَّة بالابنية الفاخرة فتكون هذه الكتابة اثرًا يشهد لاهل المدينة بمعرفة الجميل والشكر

وما لا يُختلَف في صحّتهِ ان صهر اوغسطس اعاد لبيروت زهاءها القديم بعد ان عبثت بها ايدي الزمان واخربها الطاغية تريفون · فاوعز الى جندهِ بان يشيّدوا فيها المباني الحسنة ويوفّروا فيها اسباب الهناء · فباشروا بذلك في السنة ١٥ ق م وواصلوا شغلهم بهمّة ألفها الرومانيّون في كل اعمالهم · وما عتّمت بيروت ان صارت مركزًا خطيرًا لادارة شؤون رومة في البحر المتوسط الذي كان غلب عليهِ سابقاً النفوذ اليونانيّ واصبحت مرقباً يرصدون منهُ كل من يعادي فتوحاتهم الجديدة فيقطعون للحال دابر اصحاب الفتن (٢

وكان الفضل في رفع قَدر بيروت لاغريبا المذكور ولعلّهُ هو الذي تولّى بنفسهِ هذا العمل الاثير وانجزه بوقت قريب(٣ ودُعيت بيروت مذ ذاك الوقت « المستعمرة يوليا اوغسطا السعيدة » خصّها الملك اوغسطس بهذه الاسماء المشعرة باسم يوليوس قيصر وابنتهِ يولية واسمهِ الشخصي واضاف الى ذلك لقب « السعيدة » مؤذناً بحسن موقع بيروت وصفاء جوّها وكثرة خيراتها · وضُربت في بيروت نقود المستعمرات تمثّل جندياً يفلح الارض

---

١) وأرسلت فرقة منهما الى بعلبك لتستعمرها فاحتلّت هذه المدينة الشهيرة

٢) راجع تاريخ الرومانيين للعلّامة مُمسين Mommsen: *Rom. Geschichte*, V, 459

٣) راجع ما كُتبَ في ولاية اغريبا في الشام المؤرّخ جرلاخ H. Gerlach : *Die röm. Statthâlter in Syrien u. Judæa* p. 16

فلم يمضِ على بيروت الَّا زمن قليل حتى امتزج سكَّانها الاقدمون بالمستعمرين الرومان امتزاج الماء بالراح فكان من يحتلّ البلدة يحسبها مدينةً رومانيَّة لتغلّب عوائد الرومان ولسانهم واسماؤهم عليها . والشاهد على ذلك الكتابات اللاتينيَّة العديدة المكتشفة في بيروت . ولا ترى من المخطوطات اليونانيَّة الَّا اليسير وهي احدث عهدًا من الكتابات اللاتينيَّة (١ . بل ظهر ايضاً في بيروت نفوذ آلهة رومة فاخذ الفينيقيُّون شيئاً من شعائرهم الدينيَّة كما اثبتنا ذلك في اثناء كلامنا عن دير القلعة

ولم تكن الاقطاعات الموقوفة على المستعمرة البيروتيَّة منحصرة في ضواحي البلدة والبسائط المجاورة بل كانت تشمل الجبال المشرفة على المدينة وتمتدُّ من ثمَّ الى ان تبلغ قسماً من البقاع الى جهات منبع نهر العاصي

ونالت بيروت بارتقائها الى رتبة مستعمرة رومانيَّة امتيازات عديدة منها انَّ اهلها لم يدفعوا الجزية ومنها استقلالها عن حكم والي الولاية . فاضحت كأنَّها دولة صغيرة في ضمن الاملاك الرومانيَّة في الشرق تتصرَّف باحكامها كالعاصمة نفسها . وكان لها على مثال رومة حاكمان (duumviri) يُرجع اليهما في التدبير يحلَّان ويعقدان ويأمران وينهيان كقناصلة رومية السنويين ولها دار ندوة يجلس فيه للبحث عن صوالح المدينة مئة من رؤساء الاعشار (décurions) . ومما ازدانت بهِ المدينة من البنايات على شبه رومية ساحةٌ كبرى (forum) يجتمع فيها الجمهور وملعبٌ للملاهي العمومية ولعلَّها ايضاً خُصَّت بهيكل كهيكل المشتري في رومة (Capitole) . وكان الاهلون يختارون بنفسهم ولاتهم وحكَّامهم دون ان تتداخل العاصمة في شؤُونهم ما لم يضطرَّها الى ذلك الشغب وافتراق الكلمة بين السكَّان

فكل هذه الامتيازات التي ظفرت بها بيروت اثارت في اهل المدن المجاورة لها الرغبة في نوال رتبة الاستعمار

---

١) وقد عثرنا بعد ذلك على كتابتين جديدتين على مقربة من البلد نشرناهما بالطبع

وقد زعم بعض الكتبة انّ مدرسة الفقه الروماني التي اشتهرت بها بيروت بعدئذٍ (١ كان انشاؤها في هذا الزمان · الا انّنا نرجّح قول الذين ذهبوا الى ان هذه المدرسة اقرب عهداً فأُنشئت في اواسط القرن الثالث للمسيح · وانما كانت بيروت منذ حلول المستعمرين فيها محطًّا للطلبة الدارسين وصار مذ ذاك الحين لمدارسها شهرة عظمى · ومن جملة الفنون التي كان يعكف الاحداث على اتقانها العلوم الادبيّة بفروعها · وقد اصاب احد اساتذة بيروت اسمهُ مرقس ڤاليريوس بروبس قصبة السبق بين علماء زمانهِ في المعارف وفنون الادب (٢ حتى ان بيروت عُدّت بسببهِ كحاضرة العلوم في المشرق (٣

وكان الرومان يتقاطرون الى بيروت لترويح النفس يؤثرونها على ما سواها من المدن الساحليّة · وفيها كان ولاة الشام يقيمون الحفلات والمحاكم القضائيّة كما فعلوا في قضيّة سيلّاي (Scillaï) وهيرودس الكبير فقضوا على سيلّاي وهو وزير ملك النبط عبوداس ان يدفع لهيرودس خمسين وزنة فضّة (٤ وان يكبح جماح قبائل البدو من العرب · وفي بيروت ايضاً قضى هيرودس المذكور ظلماً على اسكندر وارسطابولس ابنيه من مريمنة المكابيّة

ومن المدن التي نالت من سجال فضل الرومانيين مدينة جُبيل وان كانت حصّتها دون حصّة بيروت بكثير وآثار الرومانيين في المدينة العاديّة بيّنة من جملتها خطوط لاتينيّة وجدت بين اطلالها الدارسة (٥

وكذلك ترى في قرية جونية مع ما يحيط بخورها من الضياع دلائل تنبئ بمرور الرومانيين بها فمن ذلك الانصاب التي كانت تقام في جوانب الطرق للدلالة على المسافات ومنها جسر المعاملتين الذي سيأتي ذكرهُ · وفي اسامي القرى دلائل اخرى على الآثار الرومانية واليونانيّة في لبنان مثل غسطا (Augusta) ودفنة (Δάφνη)

---

١) راجع Nonnus : *Dionysiaques*, 391-398

٢) راجع تاريخ سويتون Suetonius : *De illustr. Grammaticis*, XXIV

٣) راجع المؤرخ ممسين Mommsen, *l. c.* 459

٤) كانت وزنة الفضّة تساوي في ذلك العهد ٦٧٢٠ فرنكاً

٥) راجع Mission de Phénicie, *pp.* 164, 192,280

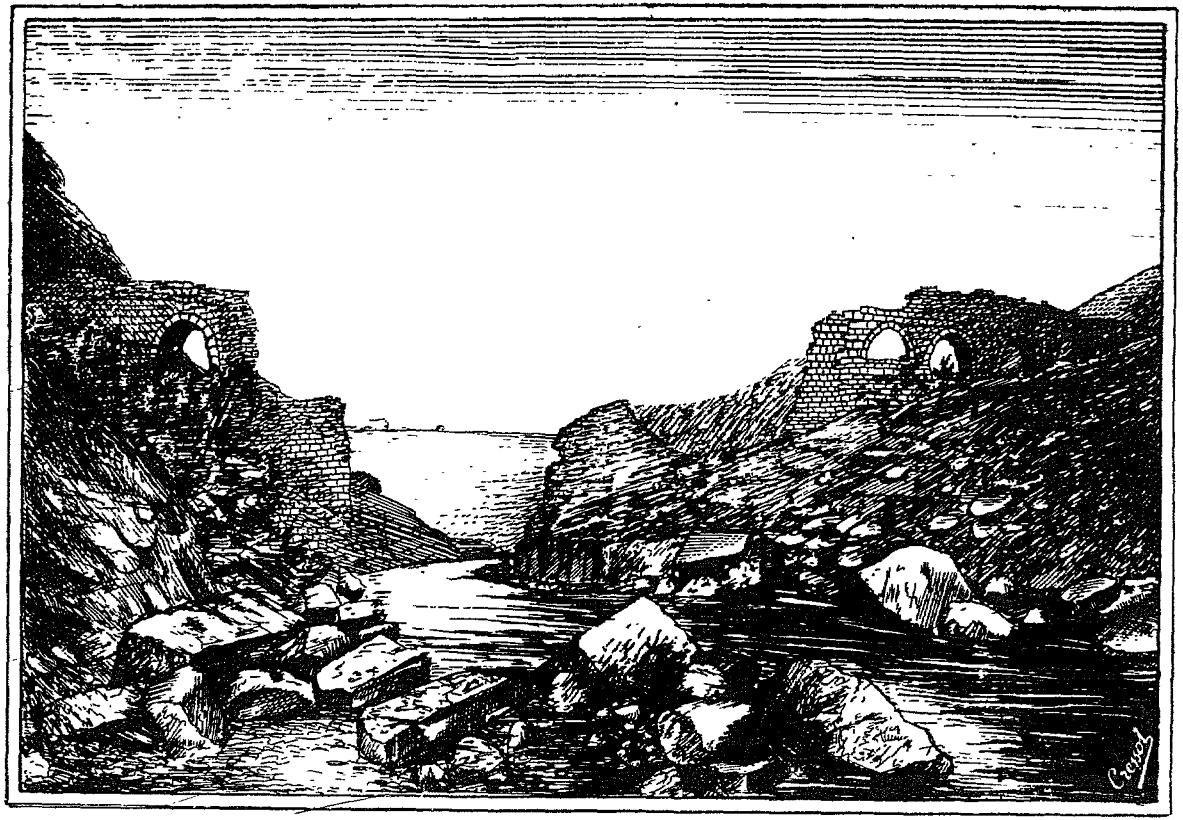

قناة نهر بيروت (قناطر زبيدة)

وبلُّونة . ومن ذلك ايضاً نواويس عليها كتابات لاتينيَّة تُرى في لبنان . وفي دير بيت خشبو واحد منها (١

الَّا ان الرومانيين لم يكتفوا بتدوين الكتابات الدالَّة على ملكهم . فلما كان الله جبلهم على السياسة والعمل لم يحتلُّوا بلدًا دون ان يباشروا فيه اشغالًا خطيرة واعمالًا اثيرة تؤُول كلها لمنفعة رعاياهم كالقني تُجلَب بها المياه الى اهل المدن من منابعها البعيدة . وقد سبق لنا ذكر قناة دير القلعة (ص ١٠)

وفي لبنان قني غير هذه المذكورة بل هي اعظم منها شأناً وامتن بنياناً . فمن ذلك القناة الضخمة التي كانت تجري بها مياه نهر بيروت وتُعرف اليوم بقناطر زبيدة وهي بلا شكّ من آثار الرومانيين

وقد بُنيت هذه القناة بنحيت الحجارة الكبرى وكانت تمرّ بوادي النهر فوق جسر عظيم ذي ثلاثة صفوف قناطر راكبة بعضها فوق بعض لا يزال منهُ الى يومنا بقايا حسنة تبعد نحو سبعة كيلومترات عن بيروت في شماليها بيد ان الصف الثالث من القناطر قد تهدَّم وهبط ايضاً وسط الجسر فلا سبيل الى ان تجري فيهِ المياه . وكان علوّ هذا الجسر يبلغ عند تمامهِ خمسين مترًا وطولهُ ٢٤٠

اما زمان بنائه فليس من دليل عليه فانهُ لم يُكتَشف حتى يومنا شيءٌ من الكتابات المترجمة عن احواله . الَّا ان متانة شغلهِ وهيأة بنائهِ المحكم تنطق بلسان حالها عن اصلهِ الرومانيّ ومما يبيّن ان هذه القناة بقيت قروناً طويلة تجرّ المياه الى بيروت ان في مستودعها وجدرانها الداخليَّة راسباً سميكاً من الموادّ الكلسيَّة التي ابقتها المياه في ممرّها . ولعلَّها خربت في الزلزلة التي حدثت في ايام يستنيان الملك لما صارت بيروت ردماً تنعق عليها الغربان

وكانت المياه بعد ان اجتازت الجسر المذكور تَلج في نفق (سرب) ينفذ في الجبل مسافة طويلة وينتهي الى السهل حيث صبرت منهُ بقايا على الزمان وكانت تجري المياه في منعطف الاشرافيَّة فوق مسير السكَّة الحديدية الحاليَّة . وكانت القناة تفضي

---

١) Ibid., p. 328. راجع ايضاً في تاريخ شمسين (ص ٤٤٧) (الفصل الذي بهِ بيَّن ما كان لاقليم سوريَّة عند الرومانيين من الاعتبار والخطارة

الى المدينة مارّةً تحت مدرسة الحكمة للموارنة . وقد حسب حضرة الاب جوليان اليسوعيّ ان هذه القناة كانت تغني البلدة في كلّ ثانية بمتر مكعَّب من الماء اعني خمس عشرة مرَّة أزيد من ادوات الشركة الانكليزية حالًا ١)

وكان الرومان قد ابتنوا في سورية قناةً رابعة كانت غايتها اجتلاب المياه من نهر ابرهيم الى جبيل الّا ان آثارها ليست كآثار قناة بيروت

وما يحسن بنا قولهُ ان الرومان لم يكونوا ليرضوا بالمياه المجلوبة في قنيّهم الّا ان تكون صافيةً نقيَّة من كل الاقذار ولذلك كانوا يباشرون بعملها عند رؤوس الينابيع وينقرونها بالصخر الاصمّ او يبنونها بحيث لا يدنّسها شيء من الاوساخ فيغطّونها بصفيح الحجارة . وفي عملهم هذا عبرة للشركات الحاليَّة لتصون المدن من جراثيم الامراض التي تسبّبها الاقذار الداخلة في القناة لاسيما بعد امطار الخريف حين تجرف السيول الى القناة اجساماً غريبة تنبثُّ بانحلالها في المياه كلّ انواع الجراثيم الفاسدة

فيظهر ممَّا تقدَّم ظهور الشمس في رابعة النهار انَّ الرومان بجلبهم المياه من الينابيع النازحة اخصبوا البلاد التي مدّوا فوق رواقها حمايتهم . ولعلّهم لم يكتفوا بذلك بل اقتسموا المياه في المدن فجعلوا لكل دار قسطاً كما تفعل في زماننا شركات المياه . ولنا شاهد على صحّة ذلك بكتابة وُجدت في مستعمرة رومانيَّة من اعمال افريقية كانت اصغر شأناً من بيروت وقد ذُكر فيها صريحاً هذا تقسيم المياه على بيوت الاهلين ٢) . فلا نظن انَّ بيروت حُرمت ما لم تحرَمْهُ غيرها من المستعمرات وهي اعظم منهنَّ قدراً

ومن افضال الرومانيين التي لا تُنكر السكك والطرقات . فانهم ما نشبوا ان احتلُّوا ربوع الشام حتى سعوا باصطناع السكك فيها . وكانت غايتهم الاولى بذلك ان يمهّدوا الطرق لجيوشهم ثمّ ينشّطوا بين رعاياهم التجارة والمعاملات . ولم يثنِ عزمهم ما لقوهُ في لبنان من المسالك الوعرة والصخور المرتفعة فانَّ همّتهم

---

١) راجع مجلّة الرسالات الكاثوليكية Missions Cath., 1894, p. 420-430 وفيها لهُ مقالة حسنة عن قناة بيروت الرومانية

٢) راجع مجموع الكتابات اللاتينيَّة (C. I. L., VIII, 51)

لم تعرف الكَلَل فوثَّروا الطرق ومهَّدوا السبُل في جميع انحاء البلاد التي فتحوها . وكانت السكَّة المارَّة على سواحل فينيقية من عهد قدماء المصريين في القرن الخامس عشر قبل المسيح كما تشهد عليهِ المُكاتبات المكتشفة حديثاً في تلّ العمارنة (١) وقد جاء فيها ذكر العَجلات الحربية التي لا يمكن ان تسير دون سكك منظَّمة . بيد ان هذه السكة القديمة لم يبقَ لها أثر بخلاف سكَّة الرومان فانَّ بقاياها لا تزال الى يومنا ظاهرةً على الساحل . وكذا قُل عن جميع السكك التي تولَّوا صُنعها في لبنان

امَّا الذين كانوا يقومون بهذه المشروعات الجليلة فهم جُند الرومانيين . ومصداق ذلك في كتابة لاتينيَّة نُقشت عند معبر نهر الكلب . على ان التاريخ ينبئنا بأن هؤلاء الجنود في كل البلاد التي فتحتها رومة اعمالًا تُعَدّ من اعمال الجبابرة . فكم من قصور وقلاع شيَّدوا وجسور عظيمة عمّروا وخنادق حفروها واسوار ضخمةٍ ابتنوها . وكان يسير في عداد الجنود قومٌ من المهندسين والصُنَّاع يقومون بهذه الاعمال

ومما امتازت بهِ السكك الرومانية الوثاقة والمتانة مع توفير اسباب الراحة لبني السابلة . فكانوا يجعلون وسط السكَّة مرتفعاً عن الحضيض يفرشونهُ بصفائح كبرى من الحجارة البركانيَّة او ما شاكلها صلابةً . ولئلَّا تنخسف بها الارض كانوا يضعون لسندها ثلاث طبقاتٍ متوالية اسفلُها من الحصباء والرمل ووُسطاها من دقيق الحجارة المعجونة بالكلس . اما الطبقة العليا فكان سَمكها ١٥ سنتيمترًا تتركَّب من كِسَرات الخزَف والآجرّ بينها الملاط الشديد . وكان على جانبَي الطريق مسلك للسابلة (Trottoirs) برفعة قليلة عنها وعلى طرفيهِ حجارة ضخمة

وكان الرومان يضمنون الامان لسككهم بان يقيموا من مسافة الى اخرى مراكز لجندهم وخاناتٍ للسفر ومرابط للخَيل ومحطَّات للبريد

---

١) راجع كتاب الاب ديلاتر (Delattre) اليسوعي المُعنون : Le Pays de Chanaan, province de l'empire égyptien, p. 39.

وكانوا ينصبون من ميل الى آخر انصاباً من الحجارة فيها ارقام تدلّ على مسافات الطريق وبُعد المكان عن حواضر المُدن . وربّما كانوا ينقشون في هذه الانصاب اسم القيصر الذي امر بنهج الطريق او اصلاحها . وهذه الانصاب مكّنت اهل البحث والتنقيب من تتبُّع آثار سكك الرومانيين . وتراها ملقاةً على ساحل البحر غائصةً في الرمل او مطمورة بين الردم وهي تدلُّ على السكّة الساحليّة التي مرّ ذكرها . والحقُّ يقال ان هذه السكة كانت طُرفة من عجائب البنايات وتراها الى اليوم منقورة في الصخر بقرب نهر الكلب وجونية . وعند ممرّ السيول والانهار ترى آثار الجسور العظمى التي كانوا اصطنعوها . نخصّ منها بالذكر جسر المعاملتين الذي لم يزل صابرًا على آفات الدهر

ومن سككهم الناطقة بفضلهم الطريق التي اصطنعوها من جبيل الى بعلبك وهي تمرّ في اعالي لبنان فوق العاقورة وهناك يشعب بين جبلَين تخرقهُ الطريق فتفضي الى بركة اليمّونة ثمّ تتّسع وتمتدّ فتُصبح من احسن السكك الجبليّة واتقنها لكنّ آثارها في منعطف لبنان الشرقيّ دارسةٌ . ولعلّ هذه الطريق سبقت عهد الرومان وما لا مُشاحّة فيهِ انّ الرومان تولّوا اصلاحها وتوسيعها كما يؤخذ ذلك من كتابة لدوميطيانس قيصر في آخر القرن الاول للمسيح وُجدت عند المكان المسمّى بدرّاجة مار سمعان

هذا ومهما توغّلت في لبنان وجدتَ للرومانيين مآثر وكتابات ونقوشاً . مثال ذلك الكتابات التي تراها في الوهاد الواقعة بين الصنّين وغابة الارز لاسيما في مقاطعات العاقورة وتنّورين وقرطبة حيث تجد كتابات عديدة خُطّ فيها مرارًا اسم ادريانُس الملك وحروف هذه الكتابات تبلغ نصف ذراع طولًا وقد اعتبرها بعض اهل تلك النواحي كأرصاد تحتها كنوز دفينة بحثوا عنها بعد نقر الحجارة وتحطيم الكتابات . امّا سبب تكرار اسم هذا القيصر الرومانيّ فلكونه قضى في بلاد الشام سنين طويلة وكان يصحبهُ في اسفارهِ عددٌ غفير من النقّاشين وارباب الصناعة والحرف . ومن المرجّح انّهُ مرّ بمدينة جبيل وزار معابد الزُّهرة في لبنان .

ومما يعود فضلهُ الى الرومان فيستوجبون لهُ الشكر العميم عنايتهم بنصب

الاشجار في لبنان . وقد مرّ لنا في المشرق (١ : ٧٢٨) كلام في ذلك وبيّنّا هناك انّ لبنان كان في القرون الخالية مجمّلًا بالغابات تعلو قممَهُ ضروبٌ من الاشجار . واثبتنا ايضاً ان الحكومة الرومانيّة كانت احتكرت لها اربعة اصناف منها وهي العرعر والارز والسرو والصنوبر (١ وكلّها من اشجار الجبال المتينة الخشب الوارفة الظل اختصّها الرومان بانفسهم لئلّا يتصرّف بها الاهلون فيقطعوها بلا حكمةٍ . وكان الرومان يتّخذون منها الخشب لتجهيز سفنهم وابتناء مساكنهم في سوريّة

وممّا يُخبر عن پمپيُّوس القائد الروماني فاتح الشام انهُ اصطنع لهُ اسطولًا من خشب لبنان فقطع دابر القرصان الذين كانوا يتجوّلون في بحر الروم متلصّصين . ولمّا انتشبت الحرب بين پمپيُّوس المذكور ويوليوس قيصر تولّى كاسيوس من اصحاب پمپيُّوس قيادة اسطول الشام وأبحر بها الى صِقلّية لمحاربة سفن قيصر واحرقها (٢ وكل ذلك دليل على اهتمام الرومانيين بزراعة لبنان وتوفير غاباتها

ومن كل ما سبق يفهم القارئ ما للرومان من المشروعات الطيبة والاعمال الجليلة التي لم نذكر منها سوى برضٍ من عدّ . وفي تتمّة مقالاتنا عن آثار لبنان سيأتي ذكرهم غير مرّة . وفي ما سبق كفاية لتقدير اعمالهم

وخلاصة قولنا عن الرومان انّهم في ولايتهم كانوا يهتمّون بصوالح رعاياهم ويوفّرون لهم اسباب النجاح ويوسعونهم أمانًا وراحةً ونال اهل سوريّة بهمّتهم

---

١) وقد ارتأى العلّامة الاب مرتينوس اليسوعيّ في تاريخ لبنان ان الكتابة التي تدلّ على احتكار الرومان لهذه الاشجار والتي شرحناها في المشرق (١ : ٧٢٧) انما كان لها معنًى آخر . فظنّ الاب المذكور ان الرومان كانوا خصّصوا هذه الاشجار للإِلٰهة عشتروت او الزهرة . قال : « ومما يؤيد رأيي ان احتكار هذه الاشجار لم نجد لهُ اثرًا سوى في بلاد جبيل حيث كانت عبادة الزهرة متغلّبة شائعة . ثم كثيرًا ما ترى على الحجارة التي وردت فيها الكتابة المذكورة حروفًا ثلاثة غيرها باللاتينية وهي D F S معناها على ظنّهِ D(eæ) F(ecit) S(acrum) « خصصها بالإِلٰهة » . اي ان ادريان الملك خصّص بعبادة الزُّهرة الاربعة الاصناف من الشجر المذكور. (قلنا) وهذا شرح غير ثابت كما بيّنهُ حضرة الاب جلابرت (Mélanges de la Fac. Orientale. IV. 209 seqq) ومعنى هذه الحروف Definitio sylvarum اي تحديد الغابات (المحتكرة)

٢) راجع تاريخ يوليوس قيصر (Cæsar, *Bell. Civil.* III)

قسماً وافياً من ذلك السلام الذي نُسب الى رومة (pax romana) متّعنا الله بمثلهِ في ظلّ دولتنا العليّة آمين

٦ الصنّين

قد سبق ان القائد الروماني پمپيُّوس اخرب في اثناء محاربة لبنان قلعةً تُدعى بورومة . ولكن لم نتعرّض للبحث عن موقع هذا الموضع . فانّ من اصحاب العاديّات من ظنّ انها سمار جبيل وقيل قلعة الحصن في نواحي دوما وقيل غير ذلك . وقد فات هؤلاء الكتبة انّ الجغرافيّ اسطرابون في كلامهِ عن بورومة جمع بينها وبين قلعة اخرى دعاها « سنّان » وسنّان على الرأي الارجح قلعة قريبة من جبل صنّين فينتج عن ذلك ان قلعة بورومة ليست بعيدة منهُ ايضاً . واذا طلبنا في جوار الصنّين موضعاً في اسمهِ شبهٌ بقلعة بورومة لا نجد غير برمّانا . ومن المحتمل ان الاقدمين لحسن موقع هذا المكان كانوا شيّدوا هناك حصناً حريزًا يشرف على الوديان المجاورة وعلى سواحل بيروت . على اننا لم نجد في برمّانا اثرًا لهذه القلعة ولعلّ پمپيُّوس قوّض اساسها او اتت على بقاياها مصائب الدهر فابادتها

امّا قلعة « سنّان » فمع كونها على مقربة من جبل صنّين لم تكن في مشارفهِ العليا لانّ البرد هناك قارسٌ والسُّكنى في الشتاء شاقّة وانما كانت على منعطف رُباهُ . والارجح انّ هذه القلعة كانت مبنيّةً فوق احدى السكك في الوديان الفاصلة الصنّين عن جبل الكنيسة او الحاجزة بين جبل الباروك وجبل الكنيسة اعني بقرب سكّة الشام الحاليّة . وهذه المواقع خطيرة لانّها كمضيق يُفضي الى بطاح سوريّة المجوّفة

واما اسم قلعة سنّان (Σιννᾶν) المذكورة في كتاب اسطرابون فانّهُ اسم الصنّين بعينهِ لكنّهُ على صورة لفظهِ القديمة

وقد ارتأى بعض الكتبة المحدثين نقلًا عن تقليد شائع في لبنان انّ جبل صنّين هو الجبل المدعو « سنير » المذكور في الكتاب الكريم . وقد وهموا بمشابهة الاسماء مع انّ سفر تثنية الاشتراع (٣ : ٩) ينفي صريحًا هذا الرأي ويدعو حرمون سنير عند قولهِ : « وحرمون يسمّيهِ الصيدونيُّون سِريون والاموريّون سنير » .

وانما شُبّه الامر على البعض لوجودهم في سفر نشيد الاناشيد اسم سنير مقروناً باسم لبنان حيث يقول العروس لعروستهِ السريّة (نش ٤ : ٨) « هلمّي معي من لبنان من رأس امانة من رأس سنير » (١ . وزعم هؤلاء ان امانة اسم الجبل المشرف على حمّانا . وكلّ هذه الاقاويل مزاعم لا سند لها وان لم تكن محالًا . واسم لبنان في التوراة لا يُطلَق فقط على الجبل المعروف اليوم بهذا الاسم بل يدلّ ايضاً على جبل الشيخ الذي بازائهِ الّا اذا زاد الكتاب صفةً ما تبيّن نية الكاتب الكريم كقولهِ مثلًا (يوشع ١٣ : ٥) : « لبنان جهة مشرق الشمس »

واما اسم « سنير » فتجدهُ في كثير من كتبة العرب كالمسعودي فانهُ يقول (في كتاب التنبيه ص ١٥٣) في اثناء كلامهِ عن الموارنة : « انَّ امرهم مشهور بالشام وغيرها اكثرهم في جبل لبنان وسنير وحمص واعمالها » . وفي كتاب المسالك والممالك لابن حوقل (ص ١١٤) مدلول سنير على جبل الشيخ او على الجبال الواقعة في شمالي غربيّ دمشق . وجاء في الصبح الاعشى للقلقشندي (ص ١١٣١ من نسخة مكتبتنا الشرقية) : ثم يمتدّ (لبنان) الى الشمال ويجاور دمشق واذا صار في شماليّها سمّي جبل سنير . وكذا في مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني وغيرهم . لكنَّهُ يؤخذ من قول ياقوت في معجم البلدان (٣ : ١٧٥) انَّ سنير تدلّ ايضاً على قسمٍ من لبنان او على الجبال الواقعة « بين حمص وبعلبك » . اما لفظة « صنّين » فيظهر انَّها حديثة العهد لم نجد لها ذكرًا في تآليف العرب القديمة

ومن يتسلّق قمم صنّين العليا يجد ثمّت آثاراً من بناء مربّع مشيّد بنحيت الحجارة . وعلى مشارف جبل الكنيسة بناء آخر مثلهُ . ولا يمكننا ان نحكم على اصل هذه الابنية حكماً قطعيّاً ولعلّها من مآثر الفينيقيين بنوها لمباشرة مناسكهم الدينية . والله اعلم

---

١) راجع ايضاً نبوّة حزقيال (٢٧ : ٥)

٧ ساحل علما

فلنواصل الآن سيرنا الى جهات الشمال بعد ان استطردنا الى ذكر اعالي لبنان واعمال الرومانيين في انحائه . وفي كسروان آثار قديمة وصفنا منها قسماً في الفصول السابقة وهاك ما بقي علينا وصفهُ

وممَّا يستلفت الانظار في اسفل كسروان متحجّرات على شبه السمك تجد منها شيئاً كثيرًا في ساحل علما . وهذه الآثار قد ورد ذكرها في اسفار قدماء الرحَّالين وقد ذكرها المسافر الشهير منكونيس (Monconys) في رحلتهِ المكتوبة في القرن السابع عشر (ج ٢ ص ٧١) وكرَّر بعدهُ اصحاب الاسفار وصفها . وجاء في ترجمة القديس لويس التاسع ملك فرنسة للسير دي جوانفيل عن اسماك متحجِّرة جمعها قوم من لبنان ما تعريبهُ (١: «ولما كان الملك في صيداء اتى اليهِ قومٌ بحجر غريب ذي قِشَر وفُلوس . وكان اذا نزع عنها قشرة وجد بين كل حجرين شبه سمكة بحريَّة متحجِّرة لا ينقصها شيء من هيئة الاسماك وتركيبها وزعانفها وحسكاتها والوانها كأنَّها اسماك حيّة . وقد اعطاني الملك منها حجرًا فوجدت فيهِ سمكةً من نوع الشبوط تامَّة البنية ذات لون اسمر » . وفي متحف عاديَّات مدرستنا الكليَّة عدد كبير من هذه المتحجِّرات التي يرتقي عهدها الى الازمنة السابقة التاريخ

هذا وفي ما مرَّ (راجع الصفحة ٥) قد اتينا بذكر قرى كسروان المجاورة لخور جونية . فلنذكر الان القرى العليا من هذه المقاطعة . واوَّلها غزير يوجد في اسفلها مدافن ومعاصر قديمة . اما قصبة كسروان فلم نرَ لها اثرًا ينبئ بوجودها قبل القرون المتوسطة . الَّا انَّ اسمها سرياني (ܓܙܝܪܐ) كاسماء اغلب قرى لبنان ومعناهُ «القطيع » او « المقطوع » ٢)

وقد وجد بعض الرحَّالة في « فتقا » على بعد ساعة من غزير شمالًا كتابات عديدة

---

١) راجع Joinville, *ch.* 118, *ed. Wailly*, *p.* 330

٢) لا « قطيع الغنم » كما زعم ف . ابي حلقة في جغرافيَّتهِ (راجع المشرق ٢ : ٤٧٥)

يونانيّة احداها من سنة ١١١ للمسيح يُستفاد منها انهُ كان هناك هيكل . وهذا دليل على ان فتقا كانت موضعاً معتبرًا

٨ مِعراب

معراب مزرعةٌ على عِطف الجبل بين دلبتا وعين ورقة تبعد نحو كيلومتر ونصف من عين ورقة في شرقيّها بجهة ريفون . فيها آثار ماثلة يعرفها اهل تلك الضواحي بقلعة معراب او يدعونها بمطلق اسم القلعة . والارجح ان هذه الاخربة احد المعابد العديدة التي اقامها ارباب الدين القديم على مشارف لبنان تعزيزًا لديانتهم . وهو نعم الموقع يمتدُّ منهُ البصر جنوباً الى بيروت وبحرها اللازوردي وشمالًا الى جبيل وبطائحها الخضراء . والآثار الباقية عبارة عن جدران ضخمة الحجارة طولها ٢٥ مترًا في ١٠ امتار عرضاً و ٦ امتار علوًّا . وقد قيست بعض الحجارة فاذا طولها

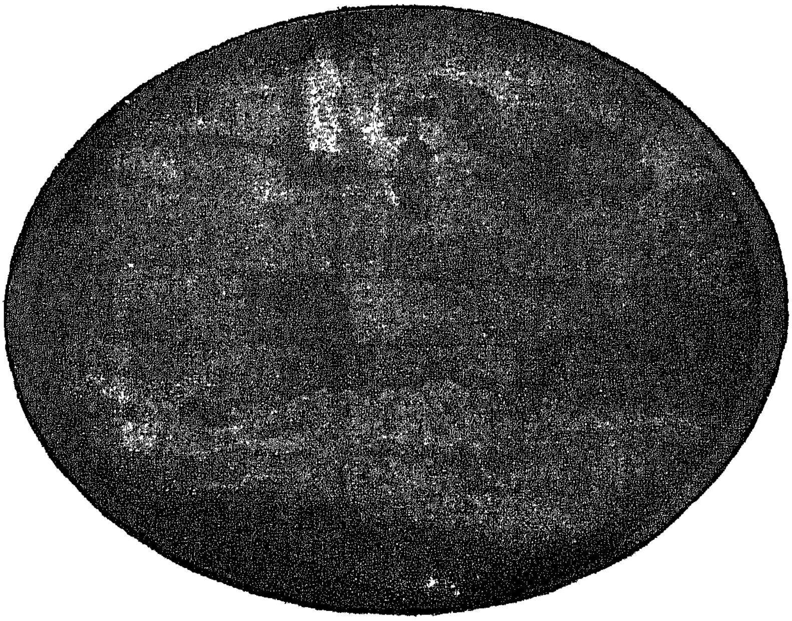

آثار قلعة معراب

يبلغ خمسة امتار بنيّفٍ في عرض متَرين · وفي البناية حجارة متّسعة محفورة في الصخر ذات حافّة ينفذ فيها سقايةٌ لعلّها جُعلت قديماً لتجري فيها دماء الذبائح وأسكاب التقادِم · وهذه غاية ما نعلمهُ عن هذه البناية التي أعلن اولًا امرها اليسوعيُّون في غزير فأرشدوا اليها رينان ايام سياحتهِ في لبنان فذكرها في كتابهِ «بعثة فينيقية» (١ ولم يصفها (راجع تاريخ الموارنة للدويهي ١٦ و ١٢٦)

٩ غِينة

فاذا انحدرنا الآن من مزرعة مِعراب وعبرنا وادي غزير ثم اتّجهنا الى ناحية كفور (٢ حيث تنتصب قمّة مستديرة الشكل تُعرف برأس الكنيسة وجدنا على مسافة نحو كيلومترين منها بجوار قرية غينة صخرةً منفردة يبلغ علوّها بضعة امتار

وللصخرة المذكورة وجهان الشماليّ والشرقيّ قد نحتها القدماء فنقشوا في كلّ منهما ثلاث تصاوير ناتئة طمس الدهر قسماً منها وحُطِّم منها قسمٌ عمدًا · واوّل من وقف من العلماء على هذه النقوش الغريبة الابوان اليسوعيّان بوركنو (Bourquenoud) وروز (Roze) في سنة ١٨٥٧ ورسما صورها في مجلّة الابحاث (٣

فالجهة الشرقيّة وهي الكبرى تمثّل بطلًا عَبل الذراعين شديد الجسم في يدهِ رمحٌ مُشرع كانّهُ متحفّز للقتال وقد صوّب بسنانهِ الى صدر حيوان ضارٍ هجم عليهِ وسند احدى قوائمهِ الى كتفهِ كانهُ يحاول افتراسهُ · والشخص المنوّه بهِ لابس ثوباً خفيفاً وهو شعار يكاد يبلغ ركبتهُ تضمّهُ حُبكة عند وسطهِ · اما هيئة الحيوان فهي اقرب الى الدبّ منها الى الاسد · وقياس القسم المنحوت من الصخر يبلغ مترًا و ٩٦ سنتيمترًا علوًّا ومترين و ٨٨ س · عرضاً

وبقرب الصورة الموصوفة آنفاً نقشٌ آخر اصغر منهُ يمثّل امرأةً رشيقة القدّ جالسة

---

١) راجع Mission de Phénicie, p. 328

٢) راجع ما ورد عن كفور في الكتاب السابق ذكره (ص ٣٢٧)

٣) راجع Etudes Religieuses, 1861

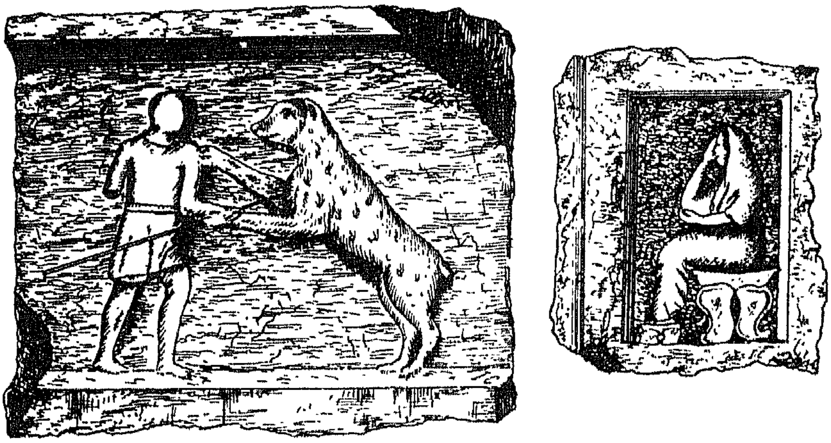

آثار غينة

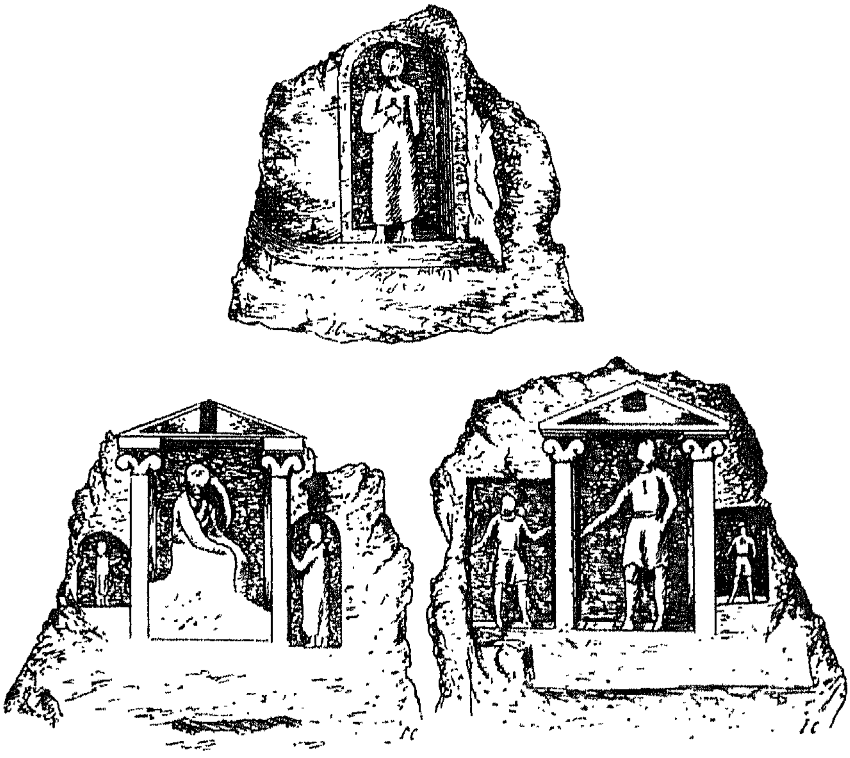

آثار المشنقة

على مقعد تراها كسيفة البال كئيبة رافعة يمينها الى وجهها وبصرها مائل الى صورة البطل المقاتل . وعلى رأسها منديل يبلغ طرفاهُ الى وسطها . اما رجلاها فتسندهما الى مسند نقوشهُ على مثال المقعد التي هي جالسة عليهِ

وفي الجهة الثانية من الصخر على شمال هذه التصاوير رسوم اخرى بيد انَّها داثرة مطموسة . وممَّا يظهر منها جليًّا صورة شخص منتصب يتّكئ الى شبه سهم او صولجان تلوح على وجههِ امارات السكينة والوقار . امَّا بقيَّة التصاوير فلا سبيل الى وصفها او اثبات رسومها لاندثارها وما لا شكَّ فيهِ انَّ ثمَّ صورة حيوان ولعلها وحشان . وللاب العلّامة بوركتو (١ مزاعم في شرح تصاوير هذا النصب الثاني لا يوافقهُ عليها العلماء

وما من شأنهِ ان يكشف عن سرّ معنى هذه النقوش انَّ تحت رسوم الجهة الشرقيَّة مغارةً نُحتت في الصخر

ولا ريب انَّ هذه البقايا تنبئُ بآثار تعبُّد اهل فينيقية لادونيس او تموز (٢ . ولعلَّ الاحاديث الشائعة بين القوم كانت تشير الى قرية غِينة وتروي عن موت هذا الاله انهُ قُتل في هذا المكان فناحت عليهِ امهُ الزهرة او عشتاروت . امَّا المدفن فالمرَّجح انَّهُ نُحت تخليدًا لهذه القصَّة لا لتمثيل قبر حقيقيّ

وما يحسن ذكرهُ هنا ما ورد عن مأتم تموز في سفر حزقيال اذ رأى هذا النبي رجساً في الهيكل فوصفهُ بقولهِ (حز ٨ : ١٤) : « واتى بي الى مدخل بيت الرب . . . فاذا هناك نساء جالسات يبكينَ على تموز »

على انَّ هذه الرسوم الدينيَّة لا يتَّضح معناها تماماً الَّا بمقابلتها بآثار اخرى صبرت على الايام عند قرية المشنقة

١٠ المشنقة

موقع مآثرها الجليلة في وادي نهر ابرهيم على ربوة ذات قطع عموديّ مشرفة

---

١) راجع مجلَّة الابحاث Etudes, 1861, p. 945

٢) ومدلول كلا الاسمين واحدٌ

على النهر ولتلك الضواحي منظر يجمع بين الحسن والغرابة · اما الآثار التي تستلفت الخاطر في المشنقة فاربعة :

(الاولى) عبارة عن سور او حمىً مربَّع مستطيل تكسيرهُ ٩٥ مترًا طولًا في ٥٠ عرضاً · وباب البناء من جهة الشرق · والظاهر ان هذا التربيع كان يحدّ سابقاً المعبد والابنية اللاحقة بهِ كما ترى في قلعة فقرا وفي حصن سليمان في بلاد النصيرية وغيرهما · وحائط السور قليل السمك بسيط البناء يستند في جهتهِ الشماليَّة الى صخر · وفي داخل السور في الجهة المقابلة للباب بقايا اساس مربَّع بُنيت فوقهُ عواميد لم يبقَ منها غير حجارتها السفليَّة · وقد اتُّخذ جانب من أخربة هذا البناء لعمارة حديثة

واذا احفينا في البحث عن اصل هذه الاطلال وجدنا انها كانت هيكلًا يتوسَّط السور الذي ذكرناهُ · وكان لهذا الهيكل اعمدة من الطراز الهندسي القورنثيّ يعلوه شبه هرم مخروط الشكل بقي منهُ حجران منقوشان نقشاً بديعاً

والآثار (الثانية) على شمال السور الموصوف تبعد عنهُ ١٢٠ مترًا · فهناك مجاز قد نُحت في الصخر ونُقش على جانبيهِ رسوم قديمة · وفوق هذا الصخر نواويس ضخمة منقورة في الحجر على شكل أجران مستطيلة لها اغطية مخروطة الجوانب · امَّا النقوش فهي بائرة وهي سبعةٌ عدًّا ففي مدخل المجاز المذكور صورتان عظيمتان متقابلتان من كل جانب وهما منقوشتان في ضمن إطار او كوًى من صنف الهندسة الايونيَّة ويلاصق هاتين الصورتين من جانبيهما صورتان اخريان اصغر منهما ولكل منهما اطار متقوّس كما ترى في الصور التي رسمناها · والصورة السابعة وهي متوسطة في الكبر نُقشت في الصخر منفردةً عن بقيَّة التصاوير من جهة الشرق

واحدى الصورتين الكبيرتين التي عن يمين العابر في الصخر تمثِّل بطلًا لبسهُ كالشخص الذي وصفناهُ في نصب غينة · ولعلّ الصورة الموازية والدارسة لقدمها تمثِّل امرأة تنوح · واما اشخاص الصوَر الصغرى التي على طرَفي الصورتين الكُبريين فمن تَبعة الشخصين المتوسّطين تراهم يحدجونهما بالنظر ويتأثرون بحركاتهما

ومعنى هذه التصاوير اذا قوبلت بتصاوير غينة يتَّضح جليًّا وانَّما تمثِّل نبذة

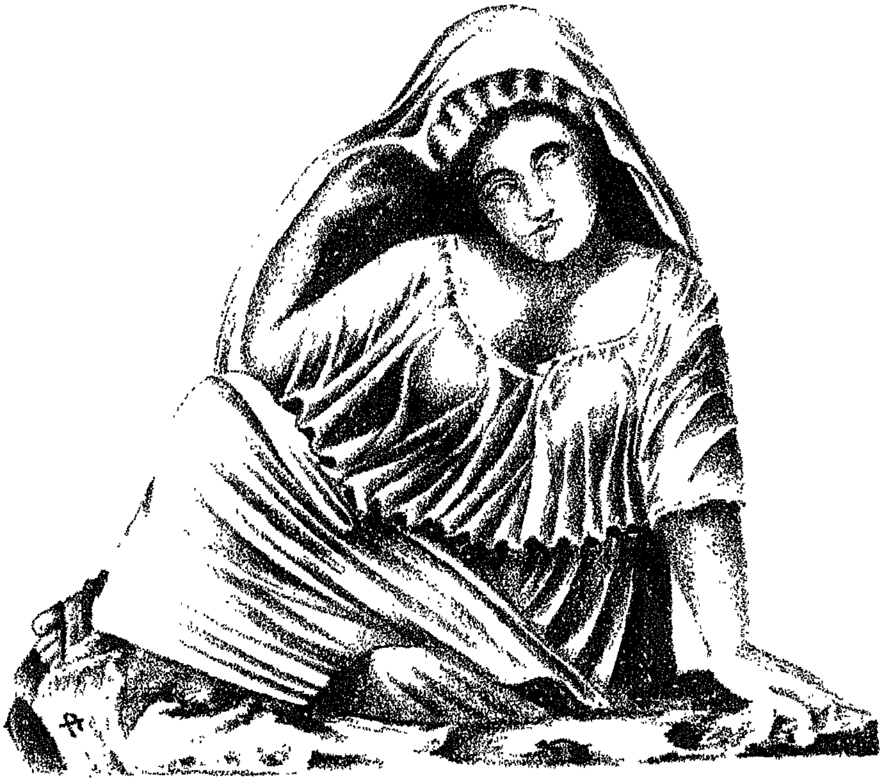

تمثال الزُّهرة المعبودة في لبنان

من ترجمة تموُّز اعني موتهُ ومناحة الزهرة عليهِ · قال مَكروب المؤرّخ اللاتينيّ (١ : « والزهرة مصوَّرة في لبنان مقنَّعة الرأس كئيبة الوجه تسند رأسها الى شمالها المحتجبة بردائها » (٢

والاثر (الثالث) من آثار المشنقة على مسافة عشر دقائق شرقاً من باب السور فهناك ساحة بُني فيها في القرون الغابرة معبد صغير اخرَبهُ بعض طلّاب الكنوز منذ سنين قليلة · وبين الرَّدم نُصُب أُقيم ذكرًا للبعل وفي رأس النصب اكليل وعلى طرفيهِ نقوش تمثِّل الصاعقة (٣

امَّا الاثر (الرابع) فهو في شمالي غربيّ السور الاعظم فهناك ابنية من ضيعة سكنها قديمًا النصارى والدليل على ذلك انَّ من جملة الاخربة كنيسة على هيئة الكنائس البوزنطيَّة · ولعلّ النصارى احتلُّوها الى ايام الفتح الاسلاميّ

هذا وقد بحثنا عن اسم المشنقة القديم فلم نجدهُ وكذا قُل عن اسمَي غينة ودير القلعة فان التواريخ القديمة لم تُفدنا من امرها شيئاً · وما لا شبهة فيهِ انَّ هذه المعابد التي وصفناها أُقيمت لاكرام تموُّز إله الجبليين وكان ذكرهُ شائعاً في تلك الانحاء وكثرت الهياكل على اسمهِ · يُستدلّ على ذلك من اسم نهر ابراهيم عند القدماء وكانوا يدعونهُ ادونيس (Adonis) وهو تموُّز · امَّا عهد هذه الابنية فمجهول ايضاً لكنَّهُ على الاصحّ لا يسبق زمن تملُّك الرومان على سوريَّة ولبنان

١١ الديانة الفينيقية في لبنان

قد اشرنا في الفصول السابقة الى دين اهل لبنان ومناسكهم وهياكل آلهتهم المشيدة في مشارف الجبل كدير القلعة وغينة والمشنقة · وعدَّدنا اسماء آلهتهم كالبعل وعشتاروت وتموُّز · الَّا اننا احببنا ان نفرد هنا فصلًا خصوصيًا لهذا البحث الهامّ ونلخص كل ما ثبت لدى العلماء من هذا القبيل فان هذا النظر العام من شأنهِ ان

---

١) راجع كتابهُ Saturnales I, 21

٢) وقد رسمنا صورتها الموصوفة هنا

٣) راجع بعثة فينيقية Mission de Phénicie, Pl. XXXII

يوضح كثيرًا من احوال لبنان ويكشف ما استغلق فهمهُ من امور اهلهِ الاقدمين

وقد شاء الله ان يكون الفينيقيُّون قوماً وَسطاً بين الشعوب الشرقيَّة القديمة والامم الغربيَّة التي خلفتها . ولا تخرج ديانتهم عن هذا الحكم بل تراها بعد الفحص المدقَّق انَّها تُشبه في كثير من امورها ديانة مصر وآشور وان آلهة الفينيقيين هي الهة ممالك النيل والفرات استعارها منهم بعدئذٍ اليونان فكساها شعراؤُهم بضروب من المحسّنات الخياليَّة وزوَّقوها بمسحة من الرونق والجلال

ومن خواصّ ديانة الفينيقيّين انَّهم كانوا يتعبَّدون لاوثانهم دون ان يُجهدوا فكرهم في تنظيم آلهتهم وبيان العلاقات التي تربط الهاً بآخر كما ترى في ديانة الاشوريين واصنام اليونان فانَّ بين الهة هؤلاء الشعوب بعض النظام بحيث يتسلسل صغيرهم من كبيرهم وينتمي بعضهم الى بعض بخلاف آلهة الفينيقيين فانَّ في معبوداتهم تشويشاً ما ولعلَّ هذا الاختلاط ينجم عن حالة اهل فينيقية السياسيَّة واستقلال مدنهم . وربما وجدتَّ المعبود الواحد متَّصفاً في مدينة بصفات لم يُعرف بها في مدينة اخرى قريبة منها

وما لا مشاحَّة فيهِ انَّ عبادة البعل كانت تعمُّ كلَّ انحاء فينيقية . ومعنى اسمهِ في اللغات الساميَّة الربّ والسيّد وإنْ ذلك الَّا صفة عامَّة لجميع آلهة الفينيقيَّة كانوا ينعتون بها معبوداتهم الخاصَّة في كل مدينة فيقولون « بَعل صيدون وبعل بريت وبعل طرسوس وبعل لبنان وبعل حرمون » وهلمَّ جرًّا . واسم الجمع بعليم وردت غير مرَّة في اسفار العهد القديم . غير انَّ مدلول هذه المسميات في الغالب الهٌ واحد كانوا يختصّونهُ في كل مدينة بعبادة محليَّة تبين بعض صفاتهِ . ثمَّ خُدع القوم بهذه الصفات الخاصَّة فجعلوها آلهةً ثانويَّة قائمة بذاتها دعوها البعليم وكلُّها منبثق من الاله الاعظم الاصليّ تشترك بقسمٍ من كمالاتهِ وقواهُ . وامسى الاله الواحد منقسماً الى آلهةٍ متعدّدة

الَّا انَّ تقسيم الذات الالهيَّة كثيرًا ما كان يتبع تخطيط البلدان فيبني مثلاً اهل مدينةٍ هيكلاً للاله العظيم فلا يلبثون ان يعتبروا ذلك المقام كمسكن لبعض قوى الاله ثمَّ يتَّخذونهُ كمعبودٍ مستقلّ . وعلى هذه الصورة تعدَّدت البعليم في صور وصيداء ولبنان وحرمون وصارت لاحقةً بالمبدإ الاوَّل والبعل الاعظم

امّا اذا استقصينا البحث عن هذا البعل الاوّل المذكور فيظهر جليًا انّ المعنيّ بهِ انّما هي الطبيعة الهيوليّة بكلّ قواها تُبدع وتُفني ٠ وتخلق وتلاشي ٠ وتحيي وتُميت ٠ وكانوا يعرّفون هذا الاله باسماء مخصوصة في كلّ حالةٍ من حالاتهِ فأدّت بهم اسماؤهُ الى ان اعتبروهُ كآلهة شتّى

وكانوا اذا حسبوهُ كعلّة الموجودات ومُولد الكائنات يدعونهُ بعل تموّز او أدون ومنهُ اشتقّ اليونان اسم ادونيس (١) (Adonis) ٠ ومن المحتمل ان يكون ادون هذا هو المعروف ايضاً باسم بعل لبنان ٠ اما تكنيتهُ ببعل سمائيم او بعل السماوات فكان يراد بهِ اله النور وجرم الشمس ٠ وكان لكل البعليم علاقة مع بعض النجوم السيّارة الّا ان الاله « تموّز ادونيس » معبود مدينة جبيل كانت علاقتهُ مع الاجرام الفلكيّة اعظم من غيره ٠ وكان الفينيقيّون في زمن الدولة اليونانيّة يزعمون ان ادونيس المشار اليهِ انّما كان شابًّا يتصيّد في الشام وانهُ كان ابنًا لعشتروت ففي بعض الايام خرج سائحًا الى جبال لبنان ليتصيّد في غاباتها المشرفة على جُبيل اذ وثب عليهِ خنزير برّي فقتلهُ

الّا ان هذه الخرافة على زعمهم كانت رمزًا عن الشمس وتقلُّباتها من حالة النور الى الظلام في بعض فصول السنة ٠ فكانوا اذا قدم الخريف يحتفلون باعياد يدعونها جنازة ادونيس (Adonies) ففي تلك الايام كنت ترى نساءهم يلبسنَ الحداد ويذهبنَ الى نهر ابرهيم المخصَّص لذكر ادونيس فيجلسنَ على ضفّتيهِ باكيات معولات يرثينَ موت الاله ومحاسن الطبيعة التي يعبّر عنها (٢) ٠ وكان البعض منهنَّ يُسبغنَ ذيولهنَّ ويسدلنَ شعورهنَّ ويسرنَ في شوارع جُبيل مغبّرات شُعثًا يلطمنَ وجوهنَّ ويولولنَ على تموّز ويغنّينَ الاغاني الشجيّة المبكية

اما اذا انتهى فصل الشتاء وزهت الدنيا بقدوم الربيع وانقشاع الغيوم عن الشمس فكانوا يقيمون لذلك مواسم تنبئ بفرط سرورهم وعظم افراحهم

---

(١) ولعلّ هذه الصيغة هي صيغة المنادى بدلًا من « ادوني » اي سيّدي ٠ وكانوا اذا ابتهلوا شفاعة البعل يدعونهُ بهذا الاسم

(٢) راجع آية حزقيال النبي وما ذكرناهُ في الفصلين السابقين عن نقوش غينة والمشنقة (ص ٣٨ — ٤١)

ومن تعبّدهم للاجرام الفلكيَّة المنيرة نتجت عبادتهم للنار وكان الفينيقيُّون يعظّمونها كاحدى اركان الطبيعة ويقدّمون لها الذبائح فيحرقونها وربَّما اتّخذوا لمحرقاتهم اطفالًا صغارًا لا يرثون لحالهم

وممَّا يشعر بتعبّدهم للافلاك عبادتهم للبعل حامون اي المحرق وكان اسمهُ شائعاً عند القرطجنّيين وللبعل رَصَف (Reseph) وهو اله الصاعقة ونار السماء . وكذا كان اهل صور يعبدون بعل ملكرت الههم الاعظم على صورة حجر منيرة . ومن ذلك ايضاً تعبُّدهم للرجوم او الحجارة الواقعة من السماء

وزد على ما سبق ان عبادة الحجارة كانت من خواصّ دين الفينيقيين فكانوا يقيمون انصاباً ينحتونها ويدعونها بيت ايل (١ اي بيت الله يزعمون انَّ الذات الالهيَّة تحلُّ فيها وتسكنها . واكثرما كانوا يختارون لعبادتهم حجارة الرجوم لاسيما تلك التي رأوها ساقطة من الهواء على شكل شهب ناريَّة فيعدُّونها لذلك هبةً سماويَّة . واذ كانت هذه الرجوم مركّبة من مواد بركانيَّة ذات لون اسود وتوفَّر عددها في لبنان فلذلك شاعت عبادتها في انحائهِ . وممَّا كان يزيد في اعتبارها عند القوم ان يروها على شكل مخروط لما يجدون في هذا الشكل من الرموز الدينيَّة كما اثبتنا ذلك في بعض فصولنا السابقة (٢

وكان البعل او الطبيعة الاله معتبرا عند الفينيقيين كذي مبدأين ممتازين احدهما مبدأ الخليقة الفاعل والاخر مبدأُها المفعول . ومن المبدإِ المفعول نتجت الإِلٰهات الإِناث وليست الأُنثى عندهم سوى إعلان لقوَّة الاله الذكَر تظهر خواصّهُ وتقابلهُ . وكما انَّ البعل كان الاله العظيم كذلك كانت عشتاروت الإِلٰهة الكبرى وهي تنقسم اقساماً عديدة على مثال البعل فترى لكلّ بعل خاصّ يُعبد في بعض المدن بعلةً من جنسهِ . وحيثما كان البعل ممثِّلًا الشمس كانت البعلة تمثِّل القمر . ولبعل السمائيم إلهةٌ توازيهِ يدعونها ملكة هالسمائيم . ومن الازواج المذكورة في الكتابات الفينيقية بعل

---

١) ومنها اشتقّ اليونان لفظتهم Βαιτύλιον . راجع قاموس التوراة لفيغورو

٢) راجع المشرق (٢ : ١٢٧) ومقالتنا السابقة في دير القلعة

صيدون وعشتاروت في صيداء وتمُّوز وبَعلة جَبَل (١ في جُبَيل · وكثيرًا ما يُطلق على بَعلة جبل اسم البعلة بلا اضافة وكان هيكلها من اشهر الهياكل تحجّ اليهِ الزوّار من كل صوب

وكانت عشتاروت والبعل ومَلكرت كصنف من التثليث الالهيّ في صور · وكان لهذا الثالوث مرتبة عليا بين الآلهة يذعن لهُ بقيّة المعبودات الثانويّة · واتخذت صيدون لها ثالوثًا آخر يتركب من عشتاروت والبعل واشمون · امّا الجبيليّون فكان ثالوثهم إيل وتمُّوز وبعلة · وبعلة هذه هي التي يدعوها المؤرخون في زمن الدولتين اليونانيّة والرومانيّة زُهرة لبنان اشتهرت عبادتها في أفقة كما سيأتي

وكان للفينيقيين ما خلا هذه الاصنام آلهةٌ أُخرى من الطبقة الثانية وردت اسماؤهم في الخطوط القديمة

وخلاصة الكلام ان دين الفينيقيين كان مرجعهُ الى تأليه قوى الطبيعة وتعزيزها · امّا مناسكهم الدينيّة الظاهرة فتغلّبت عليها الفظائع والارجاس حتى انّهم كانوا يعدّون اعمال العهارة والفجور كافعال تقويّة يتقرّبون بها الى آلهتهم النجسة ولم يأنف كهنتهم من المجاهرة بالفُحش فانهم كانوا يتّخذون لكلّ هيكل نساء من المومسات يدعونهنّ عالمات (عوالم) او قدسات يعرضون بهنّ لكل ضروب الفحشاء

ومن قبائحهم ان كهنة البعل وعشتاروت في بعض المواقف كانوا يتخنّثون فيلبسون لباس النساء ويطلون وجوههم بالغُمرة ويعرّون اعضادهم ويسيرون في المدينة جموعًا فمنهم من يشهر السيف والفأس ومنهم من يضرب الصنج والطبول ويزمّر بالزمّارة وكلهم يولولون ويرقصون كرقص الدراويش في ايامنا فتارةً يخلفون بين ارجلهم وتارة يحنون صدورهم وحينًا يقفزون قفزًا وطورًا يزحفون على الحضيض وهم يسحبون على الارض شعورهم المتشعّثة · ثمّ كانوا يعمدون الى المدى والسكاكين والحراب والسيوف فيخدّشون وجوههم ويشرّحون ابدانهم ويقطعون

---

١) ولبعلة جبل هذه ذكرٌ في مراسلات تلّ العمارنة المكتشفة حديثًا التي يرتقي عهدها الى القرن الخامس عشر قبل المسيح

قطعاً من لحومهم ويطعنون بطونهم فاذا سالت دماؤهم واصطبغت اجسامهم قدَّموا ذلك ضحيَّة لطواغيتهم . وقد ورد في سفر الملوك الثالث (الفصل ١٨ الآيات ١٦ — ٣٠) ذكرٌ كثيرٌ من هذه الامور وفيه وصف ضحيَّة كهنة البس على جبل الكرمل في عهد الياس النبي الحيّ

ومن فظائعهم التي ألمعنا الى ذكرها في معرض كلامنا عن دير القلعة التقادم البشريَّة التي كانوا يضحُّونها لاصنامهم وكانت هذه الضحايا احسن موقعاً عند الهتهم يأنسون اليها ويتنسَّمون منها رائحة الرضى . وكانوا يؤثرون لهذه الذبائح الفظيعة الاولاد الابكار لاسيا الاطفال الصغار بعد ولادتهم يزعمون انَّ هذه البواكير تستجلب بركات الآلهة على اصحابها

تلك كانت اعمال الدين الباطل التي لم تزل سائدة معزَّزةً رغماً عن اقوال الانبياء وغيرة اولياء الله في العهد القديم حتى ظهر ابن الله وضاءت انوار النصرانيَّة في العالم فاقشعت هذه الظلمات المدلهمَّة وخذلت عبادة الاصنام واخربت هياكل الشرك على يد ملوكها المعظمين كقسطنطين وثاودوسيوس

١٢ اليمُّونة

اليمُّونة قريةٌ على عطف جبل منيطرة من جهتهِ المشرفة على سهل البقاع بينها وبين افقة بعض الشبه . واسم اليمُّونة مشتقّ من السريانيَّة (ܝܡܘܢܐ) معناها البحيرة دُعيت بذلك لانَّ بقربها حوضاً تجتمع فيهِ مياه تلك النواحي يدعوها الاهلون بركة اليمُّونة . امَّا قول المسيو رينان في كتاب بعثة فينيقية (ص ٣٠٧) انَّ البحيرة اشتقَّت اسمها من اسم القرية فهو خلاف الواقع كما ترى

والبحيرة المذكورة في غور عميق تكتنفهُ الجبال العالية من كل صوب ما خلا الجهة الشماليَّة الشرقيَّة . فانَّ في هذه الجهة ربوةً صغيرة تقوم في وجه المياه وتصدّها عن السيلان . اما وطأ الارض الذي تمتدّ فيهِ البحيرة فتربتهُ مرصوصة من الحوّارى الشديدة البياض فاذا دخل فصل الصيف نضبت مياه البركة ويبس غورها البالغ طولهُ نيفاً وكيلومترين في عرض نحو الف متر . فيسير السائر في تلك البطحاء على

هونهِ لا تزلّ بهِ الرجل ولا تغوص في وحل وكل ذلك دليل على انّ المياه وقت اجتماعها لا تتصفّى في ذلك الوطإ وانما تغور في الارض كما سنذكر

وفي شمال البحيرة عند سفح الجبل المنتصب عليها ترى نبوعاً عديدة تتفجّر في الارض ماؤها زلال عذب اصفى من الدمعة · يتجمّع في مسيل عرضهُ بين مترين وثلاثة امتار فيجري عند طرف البركة الشرقي ثم يجتاز البحيرة في عرضها الى ان يبلغ حوضاً قليل السعة كأنَّهُ بركةٌ في بركةٍ كبرى · وهذا الحوض الصغير غير منتظم الجوانب لا يتجاوز ٤٠ متراً في اوسع امكنتهِ · اما عمقهُ فيبلغ في شهر ايلول خمسة امتار ثمَّ يأخذ بالنقصان الّا ان هبوطهُ لا تكاد العين تلحظهُ لكثرة ما يجري اليهِ من المياه

وما لا ريب فيهِ انّ المياه المتجمعة في الحوض الصغير تسيل من منفذٍ خفيّ يدعوهُ الاهلون بالوعاً وهو محجوب عن العيان تخفيهِ الحجارة وركام من الحصى والرمل · فتسيل المياه من هذه الشقوق الى سرب تحت الارض

واوّل من عرّف الاوربيين بهذه البحيرة السائح الفرنسيّ بولس لوقاس (Paul Lucas) زارها في اثناء القرن السابع عشر وهو يزعم في رحلتهِ انّ هذه البحيرة حديثة العهد · وهو زعم مردود يشهد على بطلانهِ اسم اليمّونة السرياني وهو اقدم من ذلك العصر بكثير

ثمّ تردّد كثيرون من السيّاح الى لبنان وزاروا البحيرة المذكورة وبعضهم صحّفوا اسمها ببحيرة ليمون (Laimoun) (١)

وممّا يجدر بالذكر ان سطح مياه بركة اليمّونة مع صعوده وهبوطهِ سنويّاً لم يبلغ الى نضوب البحيرة تماماً حتى سنة ١٨٧٠ · فلمّا دخلت السنة المذكورة ساخت الارض بطبقة الوحل والرمل التي كانت في قعر البالوع فاتّسعت فوهة المنفذ الداخليّ وانحطّت مياه البحيرة على حين غفلة وجرت من هذه النافذة · وكانت سابقاً تنضّ في الارض نضيضاً

هذا ثم تعود مياه البحيرة عند الاعتدال الربيعي فيرتفع سطحها وتتدفّق جوانبها

---

(١) راجع كتاب ريتّر (Ritter : *Erdkunde*, XVII, 301)

الى ان تبلغ معظمَ ارتفاعها بعد شهر من الزمن وذلك ان المياه تتبجّس من مغارة قريبة في منعطف الجبل فتسيل الى البحيرة وتغمرها . وهي لا تزال تجري من تلك المغارة بقوّة شديدة الى انقلاب الشمس الصيفي وهو منتهى ذوبان الثلوج على رؤوس الجبال فتنقطع المياه اذ ذاك بغتةً وتأخذ البحيرة بالنضوب شيئاً فشيئاً للسبب السابق ذكرهُ حتى لا يظهر من البحيرة الّا قعرها . على انَّ هذه اليبوسة الناجمة اليوم عن نفوذ المياه في قعر البالوع كانت سنة ١٨٧٠ جزئيَّةً لان الارض المنخسفة في ذلك العام مع كونها نخرة كانت من ذي قبل تمسك قسماً من المياه حتى في اوان حمارَّة القيظ

ولعلَّ القارئ يسأل وماذا يحدث بالمياه المتوارية من بحيرة اليمُّونة والى اين مجراها ؟ اجبنا ان هذه المياه تنفذ في قلب الجبل فتجري الى جهة الغرب وتخرج من مغارة أفقة وعند قرية العاقورة منحدرةً نحو ١٥٠ مترًا عن سطح بحيرة اليمُّونة ومن هذه المياه يتكوَّن نهر ادونيس المعروف اليوم بنهر ابراهيم . وهذا الامر قد ثبت الآن عند العلماء لا يرتابون في صحّته لانَّ مياه اليمُّونة لا اثر لها في منعطف الجبل الشرقيّ من جهة البقاع وزد على ذلك انَّ الجبل الفاصل بين وادي نهر ابراهيم وبطحاء اليمُّونة قليل الاتساع في باطنهِ مغاور عديدة يسهل نفوذ المياه اليها

وان سرتَ بضعة اميال الى جنوبيّ بحيرة اليمونة على منعطف الجبل الشرقيّ وجدتَ وادياً كثير الاشجار في وسطهِ بحيرة صغرى جميلة المنظر تدعى بركة الزينيَّة طولها نحو كيلومتر في عرض ٥٠٠ متر مياهها صافية كالزلال وليس في هذه البركة من السمك شيء وانما تسبح في مياهها الضفادع والحيَّات المائيَّة بخلاف بركة اليمُّونة التي يتوفَّر فيها السمك

وبحيرة الزينيَّة تحفُّ بها التلال المرتفعة وتسيل اليها المياه المتجمِّعة من الثلوج الذائبة وتنصبُّ فيها جداول عديدة تجري في تلك الاصقاع . وقعر المياه من المواد الكلسيَّة النخرة الكثيرة التفتُّت الشائعة في اعالي لبنان فتنفذ منهُ المياه وتغور كما تنضب مياه بركة اليمُّونة فتقحل الارض وتيبس بالتمام وعلو هذه البحيرة الصغيرة عن سطح البحر نحو ١٨٠٠ متر كأنها في حسنها احدى بحيرات جبل الالب (راجع المشرق ١ : ٤٢٦)

ومن الآثار القديمة التي تُرى في اليمُّونة دكّة مربَّعة من الحجارة المنحوتة بُنيَت على طرف البحيرة في وسط النبوع المتفجِّرة التي تُحدق بها • وهناك بقايا من أسوار وأعمدة وأفاريز وصفائح ضخمة من الحجارة تدلُّ على انَّ ثمَّ كان هيكل رومانيّ أبادهُ الدهر • ولا اثر هناك لكتابات قديمة

وقد حاول بعض المحدثين ان يثبتوا انَّ هيكل أفقا الذي ذكرهُ القدماء كان في جوار بحيرة اليمُّونة • الَّا انَّ هذا الزعم لا سند لهُ كما بيَّن الامر رينان في بعثة فينيقية (١ والصواب ان القدماء اتَّخذوا لهم هيكلين احدهما على مقربة من بحيرة اليمونة والآخر عند نبع مغارة افقة وكان بين الهيكلين تناسب يعدّهما القوم كمعبدَي إِلٰه واحد لما بينهما من الشبه في خروجهما من حوض واحد • ولعلّ هذا الوفاق بين الهيكلين حمل المؤَرّخ اليوناني زوزيمس (٢ على ذكر بحيرة بقرب هيكل الزهرة عند افقة • وانَّما قال ذلك توسُّعاً لا يريد بلفظة « πλησίον » اليونانيَّة « المجاور القريب » بل مطلق الاقتراب فقط • ومن الممكن ايضاً انَّ هذا المؤَرّخ لم يتثبَّت الامر بنفسهِ بل اوردهُ عن سمع (٣

هذا ثمَّ ان الطريق المؤَدية الى بركة اليمُّونة الى بعلبك كثيرة الاثار فيها كتابات عديدة الَّا ان اكثر هذه الخطوط دارسة مطموسة لا حاجة الى ذكرها في هذه الخلاصة

١٣ أَفْقا

كرَّرنا مراراً اسم افقة (ويقال افقا) في فصولنا السابقة على اننا لم نخصّها بعد بالذكر • فرأينا ان نفرد لها باباً خاصًّا لنفيد قرَّاءَنا ما بلغنا من امرها

قلنا ان وادي نهر ابراهيم كان يُعَدّ في القرون الخالية كارض مقدَّسة تعبَّد فيها الفينيقيُّون لتموز (ادونيس) فاقاموا لهُ المزارات والابنية الدينيَّة يحجُّون اليها ويتبركون بها • وقد امتاز بين هذه المعابد هيكل افقا الشهير جعلوه عند رأس نهر ابرهيم في موقع يفوق بحسنهِ جميع مناظر لبنان ويأخذ بالابصار لحسنهِ الفتَّان هكذا

(١ Renan : *Mission de Phénicie*, 308

(٢ Zozime : *Hist.* 309 *seqq.*

(٣ راجع في هذا الصدد مقالة حسنة نشرها مسيو شرل غايردو بك في مجلَّة مصر ومؤلفها العلَّامة المسيو بلنش هذا عنوانها (Les eaux d'Adonis au mont Liban, p. 12, *seqq.*)

وصفهُ رينان في كتابه الموسوم ببعثة فينيقية وبيَّنَّاه في مقالتنا عن جبال الالب ولبنان (المشرق ١ : ٧٢٢)

يشتقُّ العلماء اسم أفقا من السريانيَّة **ܐܦܩܐ** اصلها **ܡܦܩܐ** او **ܢܦܩܐ** معناها « المخرج » يريدون بذلك « مخرج المياه » او الينبوع . فمنهُ دُعي المعبد الذي نحن في صدده وكان مبنيًّا لاكرام « زُهَرة أفقا » يتقاطر اليهِ الحجَّاج من كلّ نواحي الشام . وكان اهل تدمر يقصدونهُ في كل سنة لمناسكهم . لكنهُ لم يبقَ من هذا الهيكل القديم غير بقايا ضخمة تنبئ بعظم شأنهِ . وهذه الاخربة منتشرة فوق سطحٍ بُني على ركائز متدرّجة بازاء العين بميلةٍ الى الجنوب ومن يتأمل هذا البناء يجد بينهُ وبين هيكل فقرا تشابهاً في بعض اقسامهِ . ومن جملة الآثار الباقية الى يومنا عمود من الصوَّان وكثير من الحجارة الكبرى المنحوتة

وقد خرب هذا الهيكل مرَّتين . هُدِم مرَّةً اولى بايعاز قسطنطين الكبير بعد تنصُّرهِ لاسباب ذكرها اوسابيوس القيصري في تاريخ هذا الملك حيث قال [1] :

« لما استوى قسطنطين على منصَّة الملك رقب من سموّ عرشهِ ما نصبهُ ابليس من الاشراك في فينيقية لصيد النفوس . فوجد من ذلك على هضاب لبنان في موضع قفر لا تطرقهُ السابلة معبدًا تحدق بهِ غيضةٌ . وكان المعبد المذكور أُقيم لبعض الاصنام الدنسة يدعى الزهرة . يتوارد اليهِ البغايا واهل الفجور فاضحى بذلك اشبه بماخور منهُ بمعبد ديني . ومع ما كان يجري في ذلك المكان من الآثام الفظيعة والارجاس الشنيعة كان الامر باقياً محجوباً عن عيان ارباب السلطة لانهُ لم يتجاسر احد من اهل الفضل ان يدخل المعبد ليتحقَّق صحَّة ما تناقلتهُ الالسن . بيد انَّ قسطنطين وقف على حقيقة الامر فرأى من أخصّ واجباتهِ ان يقوّض اركان ذلك الزون النجس . فتقدَّم الى عمَّالهِ بان يهدموا ذلك المقام ويكسروا اصنامهُ ويتلفوا ما حُمل اليهِ من الهدايا النفيسة . فأُرسلت الى أفقا فئة من الجند وتمَّموا اوامر الملك فلم يُبقوا ولم يذروا » . وكان ذلك سنة ٣٢٥ للمسيح امَّا سكان افقا فأُمروا بان يبارحوا سكناهم فتوطَّنوا بعلبك

---

[1] راجع الجزء الثالث من ترجمة قسطنطين لاوسابيوس الفصل ٥٥ وتاريخ سوزومان في مجموع الاباء اليونان (مين ٦٧ ص ٩٤٨)

ولكن بعد وفاة قسطنطين عاد سدنة هيكل الزهرة وحاولوا بناء الهيكل ثانيةً · ولعلّهم حقّقوا امانيهم على عهد يليانوس المعروف بالجاحد فبقيت عبادة الزهرة مدّةً من الزمان الى عهد ثاودوسيوس الكبير · ونظنّ انّ هذا الملك شدّد الاوامر فردّ الفينيقيين عن هذه العبادة النجسة كما أبطل عبادة الاوثان في انحاء كثيرة من مملكتهِ · والارجح ان الاخربة الباقية الى يومنا هي بقايا الهيكل الثاني المنوَّه بذكره وخرابهُ بسبب احدى الزلازل التي دهمت سواحل الشام كما وصفنا ذلك في المشرق (١: ٣٤٧,٣٠٣ و ٢: ٩٧٠) · وما يؤيد ظنَّنا ان بعض الجدران سقطت دفعة واحدةً مع بقائها على نظامها الاول · وقد وجدت الزلازل مساعداً لفعل الخراب بما كان يجري من المياه تحت الهيكل · فانهارَ البناء لذلك عند حدوث الزلزال والله اعلم

١٤ مجاري المياه في لبنان

لا يتمُّ وصفنا السابق لينابيع أفقة ولبحيرة اليمُّونة إلّم يُحِطْ قرّاوُنا علماً بحالة ابنان من حيث مسايل المياه في جهاتهِ المختلفة وذلك فنٌّ يلحق بفنّ الجغرافية يدعوه الفرنج الهدروغرافية اي رسم المياه وفي تعريف مجاري المياه في لبنان فوائد مرتبطة بتاريخهِ ارتباطاً لا تنفصم اواريُّهُ · وقد ادرك الاقدمون ما في هذا الامر من الشأن الخطير حتى انهم اعتبروا بعض عيون لبنان ومياهه المتفجّرة كآلهةٍ حيَّة اكرموها إكرامهم لمعبوداتهم المختلفة · وقد أتينا بشواهد على ذلك في ذكر عين أفقة ونهر ابراهيم المخصَّصين لاكرام الزُّهَرة وتمُّوز

ومن المعلوم ان لا خصب للتربة في الشرق اذا ما انقطعت عنها المياه او قلَّت كمّيّتها بحيث لا تفي بحاجة الزراعة · وما بلغ ابنان من العمران ما بلغ الّا لغزارة مياههِ وكثرة مسايلهِ

ومن لطف الخالق انَّ طبقات لبنان العليا تتركَّب من عناصر كلسيَّة كثيرة التفتُّت نَخِرة ينساب الماء فيها دون عائق ويتسلسل في منافذ ضيّقة ثمَّ يتجمَّع في مغاور تحت الجبال كأنّها خزانات للماء يفيض منها الى اسافل البلاد · ومن السواعد التي تمدُّ الى تلك الاحواض الطبيعيَّة المياه المتكوّنة من الثلوج الذائبة في قمم

لبنان ومادَّتها لا تكاد تنقطع عنها ابدًا فانَّ جبل صنّين مثلًا ووادي الارز والنُقَر المحيطة بهما عبارة عن احواض من الثلوج يبلغ عمقها من ٣٠ الى ٧٠ مترًا وطولها من ٧٠ الى ٣٠٠ متر عرضاً فلا يزال مَدَدها متواصلًا يجري الى المغاور والاوشال التي منها تحصل الجداول والانهار والبُحَيرات الموجودة في باطن الجبل

وقد اخبر المهندسون الانكليزيون الذين عُهد اليهم سنة ١٨٧٣ فحص مياه نهر الكلب انهم ركبوا قارباً وتتبَّعوا مجاري هذا النهر في اعماق الارض . فلمَّا قطعوا ١٢٠٠ متر وصلوا الى بحيرة واسعة غزيرة المياه يبلغ عمقها بضع مئات من الامتار وكان ماؤُها زلالًا شديد الصفاء والبرودة . وكان يتدلَّى من سقف المغارة عُمُد لطيفة من الماء المتحجّر (stalactites) وكانت عُمد أُخرى (stalagmites) تعلو عن حضيض الارض وجوانب البحيرة فتنتصب مرتفعةً كشُمُع . فحاولوا ان يقطعوا تلك البحيرة ويتقدَّموا في اسراب الجبل فلم يقووا على ذلك فانفتلوا راجعين

واجتهد غير هؤُلاء الانكليز من ارباب الهندسة ان يزوروا مغاور أَفقة فتقدَّموا في منافذها المتعدّدة ووجدوا جداول واحواضاً من الماء لكنَّهم لم يبلغوا الى نهايتها وهذا ممَّا يؤَيد رأي من قال ان بين افقة وبركة اليمونة وصلةً تجمع بينهما

وهذه المياه الوافرة المخزونة في اعالي الجبال واوشالها الباطنة تنصبُّ شيئاً فشيئاً الى الأَهوية والبطاح على حسب اعطاف الجبل واسرابهِ المختلفة . وربما وصلت المياه الى سفح الجبال بشدَّة غريبة فتنفجر وتفور صاعدةً في الجوّ ثم تجري من نبعها كانها النهر في كثرة مياههِ . ترى ذلك في نبع نهر بيروت وانطلياس وجعيتا وخصوصاً في نبع نهر العاصي عند خروجهِ من مغارة مار مارون بقرب الهرمل . وليس في الشام كهذا النبع يتفجّر بقوَّة عجيبة من بين الصخور كأنَّهُ مدفوع بمضخَّة (طلمبا) قويَّة ثم يمتدّ في مسيل عرضهُ ١٥ مترًا الى ١٧ م

ومن خواصّ عيون لبنان انقطاعها في بعض فصول السنة . وقد ذكرنا هذا في غضون كلامنا عن بحيرة اليمّونة . وقد لحظ الاهلون مثل ذلك في نبع نهر بيروت المعروف بالديشونيَّة كما ورد في المشرق (١ : ٢٣٧) حيث علَّل اسباب هذا الانقطاع حضرة الاب صالحاني . ولعلَّهُ يوجد سبب آخر لوقوف مياه هذا النهر وذلك اذا

انهار شيء من الردم والصخور فحال مدّةً دون مجرى المياه · ففي غرّة سنة ١٨٣٧ لمَّا اصاب مدينة صفد زلزالٌ هائل نقضَ ابنيتها وهدم بيوتها انقطعت بغتةً مياه نهر بيروت ولم تعد الى مسيرها الّا بعد مدّة وكان لونها ضارباً الى الحمرة ففهم الناس ان قسماً من الجبل تهوَّر في المياه الداخليَّة وحجز دونها · وقد ذكرنا في البشير (في تاريخ ٢٣ ت ١ سنة ١٨٩٩) ان بعض التراب والصخور انهارت من سقف المغارة التي يخرج منها نهر الكلب فتناقصت المياه من جراء ذلك مدة ساعتين الى ان دفعت المياهُ الحاجز من طريقها وعادت كمألوف عادتها · هذا وفي تقسُّم المياه على جوانب لبنان فائدة كبرى تجدي نفعاً كل بلاد الشام فضلًا عن الجبل وحده · فكما انَّ النيل يحيي البلاد المصريَّة كلها كذلك لولا لبنان لأَصبحت بلاد الشام كصحراء غامرة لا خير فيها كصحارى جزيرة العرب · فانَّ لبنان يمتصُّ فوق رباهُ نداوة البحر ويجذب الابخرة المتصاعدة الى الجوّ فتتكاثف وتنزل على قممهِ امطاراً وثلوجاً تتوزَّع من ثمَّ على جميع انحاء الشام على هيئة ينابيع وجداول وبُحيرات · فلو توارى لبنان من الكون لنضب نهر العاصي والليطاني بل ليبست كلّ مسايل سواحل فينيقية · وما كنتَ لتجد شيئاً من حدائق طرابلس ورياض بيروت وبساتين صيداء وبطاح البقاع المخصبة بل كنت ترى مفازات مقفرة تمتدُّ مدى البصر وهي جرداء صلعاء ليس في أرمالها ديار ولا نافخ نار · فحيّا الله لبنان وبيّاهُ ونفعنا بفضله وجدواهُ

١٥ قلعة فقرا

ان سرت صاعداً من مزرعة كفردبيان مُيمّماً شمالها الشرقي على مسافة ساعة ونصفٍ منها وجدت في منتصف الطريق المؤدية الى ميروبا على جنوبها ربوةً قريبة من جسر الحجر ورأس نبع اللبن يبلغ علوّها فوق سطح البحر ١٦٠٠ متر · وعلى هذه الربوة اخربة تفوق بسعتها كل آثار لبنان لا يماثلها بامتدادها الّا أخربة عين عقريم المعروفة بالناووس في مقاطعة الكورة على انَّ عين عقريم مع سعتها دون قلعة فقرا · هذا واننا لا نرى حاجةً الى تعداد ردوم هذه القلعة كلها وانما نكتفي بأَهمّها وهي اربعة :

١ً الهيكل · هو من المآثر الجليلة · ومن خواصه انَّ بُناتهُ نحتوا باديَ بدءٍ

في نفس الصخر مساحةً كبرى جعلوها كاساس الهيكل واتخذوا الحجارة المنحوتة في الصخر كموادّ لبنائهم فاقتصدوا بذلك في نفقة نقل الحجارة ولعلّهم قصدوا غير ذلك . وما لا ريب فيه ان الفينيقيين اتخذوا هذه الطريقة ديدناً وجروا عليها في ابنيتهم المختلفة . وقد بلغ الفينيقيّون في نحت الحجارة مبلغاً بعيد الشأو حتى يخال للمعتبر ان صلاب الصخور صارت طوع ايديهم يقطعونها كما ارادوا

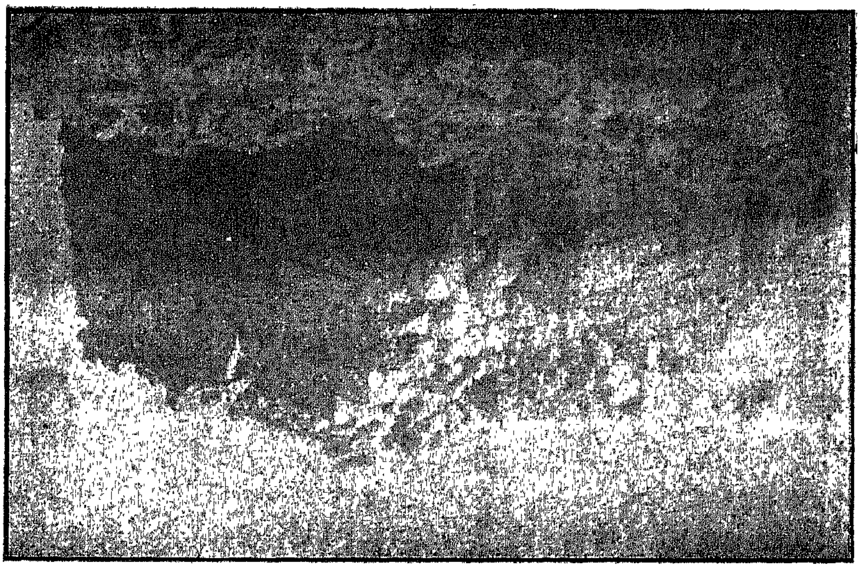

قلعة فقرا

هذا ولم يتخذوا كجدار الهيكل ما مَثَل من الصخور لان الجدران لا تلاصق الصخر لأنّ بينها وبينهُ دهليزًا يفصلها . والهيكل طولهُ ٣٤ مترًا في عرض ١٤ مترًا . وحجارة البناء متوسطة الكبر غير انّ افريز الهيكل والمراقي التي بها كان يصعد الزوّار والسواري الماثلة في مدخل المعبد كانت فاخمةً عظيمة الشان يعمل منظرها في عين الجمهور . وبقايا هذه الاخربة تنبئ بضخامتها فانّ هناك اركاناً وقطعاً من العمد منحوتة في قلب الصخر لكنّها متراكمة فوق بعضها بغير نظام وعلى اسوإ حال

وأمام الهيكل ساحة رحبة الجوانب طولها ٣٨ مترًا في عرض ٣٠ يُحدق بقسم منها الصخر المنتصب فوقها عموديًّا · وكان سابقاً في مقدّمة هذه الساحة رواق يستند الى عمد والشاهد على ذلك ما ترى هناك من الاعمدة المحطّمة · وكانت عادة الفينيقيين ان يبنوا هياكلهم في وسط باحة رحبة كما يظهر الامر في هيكل بعلبك وهيكل حصن سليمان في بلاد النصيريّة · غير ان موقع فقرا لم يسمح بذلك لما يحيط بالمكان من الصخور العالية فجعلوا باحتهم بازاء الهيكل

وما يقضي بالعجب عند مرأى هذا الهيكل العظيم انهُ بُني على قمّة الجبال حيث لا ترى اثرًا للقرى فان اقرب الضياع المسكونة اليوم هي اسفل من هذا المكان بنيف وثلثمائة متر

٢ً البرج · وفي شمالي الهيكل برجٌ عظيم مربّع الشكل والمرجّح انهُ كان ينتهي سابقاً ببناء مخروط على هيئة الاهرام · ومن جال في داخلهِ وجد عدّة دهاليز واسراب ودرجاً يُصعد منهُ الى اعلى البرج المذكور(١ · وعلى جوانبهِ كتابتان يونانيّتان يأتي ذكرهما · امّا الغاية من تشييد هذا البناء فمبهمة ولا نعلم أهو مرقب لرصد الاعداء في وقت الحرب وبمجرَّد فحص البناء لا يُستدلّ على شيء من ذلك · ولعلَّهُ قبرٌ لبعض الملوك لانّ الخاصّة لم يتأنّقوا عادةً هذا التأنّق في بناء قبورهم · على انّ الكتابتين اللتين ألمعنا اليهما تنفيان هذا الافتراض لان الواحدة تذكر القيصر الروماني كلاوديوس وتعلمنا الثانية ان مشيّد هذا الاثر هو احد سدنة الهيكل ابتناهُ « على نفقة خزانة الاله العظيم » وعلى ظنّنا انهُ مشهدٌ اقيم كقبر لتموز اله الفينيقيين ولا يعتاص علينا في تقرير هذا الامر غير الدهاليز المجاورة لهُ · ولكن من المحتمل ان هذه الاسراب احتُفرت لغاية دينيَّة او بالاحرى ليتستَّر فيها ارباب تلك الديانة في بعض حفلاتهم الدنسة كما مرّ بك في ذكر هيكل أفقة · وكانت هذه الفواحش تجري غالباً بجوار المعابد الدينيَّة المخصَّصة لذكر تموز

---

١) وقد وصف هذا البرج وصفاً مطوّلًا هنري غويس (Guys) في كتابهِ الفرنساوي المعنون (Relation d'un séjour à Beyrouth et dans le Liban, II, 8) والسائح سيتزن (Seetzen) في كتاب اسفاره المكتوب في بدء عصرنا هذا (Reisen I, 248)

٣ً البناية المربَّعة . وبازاء الهيكل الموصوف بقايا حسنة من بناية مربَّعة يظهر من شكلها انَّها كانت مشهدًا او قبرًا وهذه البناية محكمة العمل وحجارتها ضخمة

٤ً البناء المستطيل . وعلى مسافة نحو مائة قدم من الهيكل من جهة الجنوب اثرٌ آخر لا نعلم من غاية بنائهِ شيئاً وهو على شكل مستطيل ذي جوانب متوازية وتراهُ منقسماً الى قسمين كبيرين او ردهتين لهما باب يصل بينهما من داخلهما ايكون هذا البناء هيكلًا او كنيسةً كما زعم رينان في كتاب بعثة فينيقية (ص ٣٣٧) ذلك امرٌ لا يمكن الجزم بهِ فانَّ هندسة هذا الاثر تخالف هيئة الهياكل القديمة والكنائس المسيحية . وزد على ذلك انّ باب الكنائس كان يوجَّه في القرون الماضية الى الغرب بخلاف باب هذا البناء . وقد استولى الخراب على آثاره فطمس محاسنهُ وذهب برونقهِ فتراهُ في حال اسوأ من بقيَّة الاخربة المجاورة لهُ

هذا وقد سبق القول انَّ على مشارف فقرا غير هذه الآثار . فمن ذلك اطلال بيوتٍ دارسة ومعاصر وقبور منحوتة في الصخر وهلمَّ جرًّا . وكل هذه المباني تشهد على انَّ هذا الموضع كان عامرًا في الاعصار الخالية وانَّ قوماً من السكَّان كانوا يقطنون بجوار الهيكل محدقين بهِ

ولسائل ان يسأل الى ايّ عهدٍ يرتقي تاريخ هذا الهيكل . جوابنا : انَّ الامر مبهمٌ اذ لم يجد احد من العلماء كتابةً تنبئ بقدم هذا البناء . الّا انَّ البرج الذي مرَّ وصفهُ مزدان بكتابتين الاولى على الباب والثانية على احدى زوايا البرج . والكتابة الاولى مطموسة لا يكاد يُقرأ منها سوى سطرها الاول يستفاد منها انَّ البرج شُيِّد اجلالًا للقيصر كلاوديوس الذي جلس على منصَّة الملك من سنة ٤١ الى ٤٥ بعد المسيح . امَّا الثانية فيؤخذ منها ان تاريخ البناء وقع سنة ٣٥٥ لليونان (١ اعني ٤٣ سنة بعد المسيح وانهُ بُني « على نفقة الأله العظيم »

---

١) ان هذا التاريخ مكتوب بالحروف الابجدية E N T وقد رُسم فوقها خُطَيط دلالةً على انها اسفار عددية لا حروف عاديَّة . وكان السائح سيتزن لاحظ ذلك في غضون زيارتهِ لهذا الاثر وقد تحققنا نحن ايضاً الامر بنفسنا في خريف سنة ١٨٩٨ لمَّا تفقَّدنا هذه الآثار . بيد اننا وجدنا للنون اللاتينيّة (N) هيئةً غريبة تقرّبها الى الميم M

(ἐκ τῶν τοῦ μεγίστου Θεοῦ) فتُرى من هو الاله المذكور ؟ على رأينا انهُ تموز بنفسهِ وقد ورد اسمهُ في كتابات جُبيل مصحوباً بلقب العظيم (μέγιστος) ولقب الاكبر (ὕψιστος) ومن ثمَّ يجوز القول انَّ هيكل فقرا كان احد المعابد المشيَدة لاكرامهِ . ويستنتج من لقبهِ بالكبير او الاكبر ان الفينيقيين كانوا يعظِمون في جملة آلهتهم إلهاً سما عزًّا وفاق فضلًا على سواهُ ولعلَّهُ كان في اول الامر معبودهم الوحيد ففسدت ديانتهم بعدئذٍ وتعدَّدت آلهتهم

فمما تقدَّم يظهر انَّ بناء البرج حدث في السنة ٤٣ للمسيح . امَّا تاريخ الهيكل فاننا لا نعلم شيئاً من امرهِ . نعم ان رينان جزم بانَّ هندستهُ تشبه هندسة البرج فاستنتج من ذلك انَّهما بُنيا في زمن واحد . لكنَّنا نحن لا نرى في قول رينان برهاناً كافياً لتقرير هذا الامر كما انَّنا لم نجد في هندستهما شبهاً ظاهرًا . امَّا الآثار الباقية الموجودة في فقرا فعلى رأينا انها من اجيال متباينة والله اعلم

١٦ الساحل بين جونية وجبيل

(برجا وعين ماحوز ونهر ابراهيم)

قد حان لنا بعد ذكر الآثار القديمة الموجودة في مشارف كسروان ان نعود الى الساحل فنواصل سيرنا من جسر المعاملتين شمالي خور جونية الى جبيل . ومن سلك هذه الطريق وجد عدَّة ابراج ينسبها العامَّة الى القديسة هيلانة الملكة . وهي في الحقيقة اقرب منا عهدًا قد ابتناها اصحابها بعد عهد الفرنج المعروفين بالصليبيين لمراقبة الساحل

وممَّا يستلفت انظار ابناء السبيل مرسًى صغير يُدعى برجا او بالاحرى طبرجا مشتقٌّ من لفظة يونانيَّة (τοπαρχία) يُراد بها قصبة المعاملة او المديرية . وكان لبرجا في سابق الزمان اسمٌ آخر فينيقيّ مُمات كانت تنسب اليهِ القصبة فيقال « طبرجا المحل الفلاني » (τοπαρχία X) كما نقول مديريَّة كذا . فلم يبقَ اليوم سوى الاسم الدالّ على رتبة البلدة ومقامها . وهذا الامر يصحّ ايضاً عن قرية أُخرى تُدعى باسم برجا (او طبرجا) موقعها جنوبي بيروت عند خان النبي يونس

ويُستدلّ من اسم برجا المذكور على انها كانت على عهد ملوك القسطنطينية . بل لنا دلائل على انها وجدت قبلهم بزمان . ألا وهي المغاور والاسراب والمدافن العديدة التي يشاهدها القوم على مقربة من مرساها الصغير فوق الرُّبى المحدقة بالقرية على جانبيها . وهذه المدافن القديمة تشغل مكاناً متّسعاً قلّما تجد مثلهُ سعةً في غيرها . ولا شطط ان وكّدنا في القول انهُ كان ثمّت للفينيقيين مدينةٌ صغرى

ومرسى برجا حرج قليل الاتساع وهو شبه جونٍ تراه في الغالب بأمن من سورة الرياح . ولا بدع في ان السفن الفينيقيّة كانت تأوي اليهِ في الانواء

وممّا ينبئ بشأن برجا في السنين الغابرة بقايا قناتها التي بها كانت تجري المياه منحدرةً اليها من الاودية المشرفة على غزير

وان سرت من برجا بعيدًا عنها وجدت بئرًا او عينًا يدعوها اهل تلك النواحي عين ماحوز . وقد ذُكرت في التواريخ الصليبيّة مصحّفةً بمَوْس (Maus) (١) . ولعلّ اصلها يرتقي الى ايّام الفينيقيين . وهذه العين من الاعمال القديمة الخطيرة يُنزل اليها بدرج محكم الاتقان نُقر في الصخر . وكان بقرب هذه البئر في القرون المتوسطة حصن كما يشهد على ذلك الشريف الادريسي (٢

وفي شمالي عين ماحوز بقرب قريتَيْ بوار وصَفرة مدافن متسعة منقورة في الصخر . لها مداخل عديدة في جوانب تلك الوديان . وهذه القبور تدلُّ على وجود قرية قديمة هناك ما لم يُقَلْ انّ بلدة برجا كانت تمتدّ الى تلك النواحي وتتّصل بها

وان تابعت المسير بلغت نهر ابراهيم . وهنا مُشكل في تعريف اصل هذا الاسم الذي ورد ذكرهُ اولًا في جغرافيّتي الادريسي والدمشقي (٣ . والتقاليد المحليّة تزعم انّ ابراهيم الذي نُسب اليهِ النهر كان اميرًا على المردة . وما لا شبهة فيهِ ان الاسم القديم كان ادونيس (تموز) . وقد مرّ لنا في الصفحة ٤٣ انهُ اسم

---

١) راجع غليلموس الصوري ك٧ ف ٢٢

٢) وصف الشام (ص ١٧ ed. Gildmeister) . واعلم انّ الادريسي يذكر بين جونية وماحوز مكانًا يدعوه « عطفة سلام » يقول عنهُ انهُ « جون كبير يبعد عن جونية عشرة اميال »

٣) طبعة بطرسبرج (ص ١٠٧)

احد آلهة الفينيقيين يقيم لذكرهِ اهل جبيل عيداً سنوياً يدعونهُ ادوني (Adonies) ومصبّ هذا النهر جميل المنظر يُدرك من رآهُ كَلَف الفينيقيين باختلاق الخرافات المتعلّقة بهِ . وفي فصل الشتاء بعد الامطار كانت المياهُ تطمو فيضحي لونها كمداً ضارباً الى الحمرة فكان الاهلون يزعمون انّ ذاك هو دمُ تموز المسفوك فينوحون عليهِ

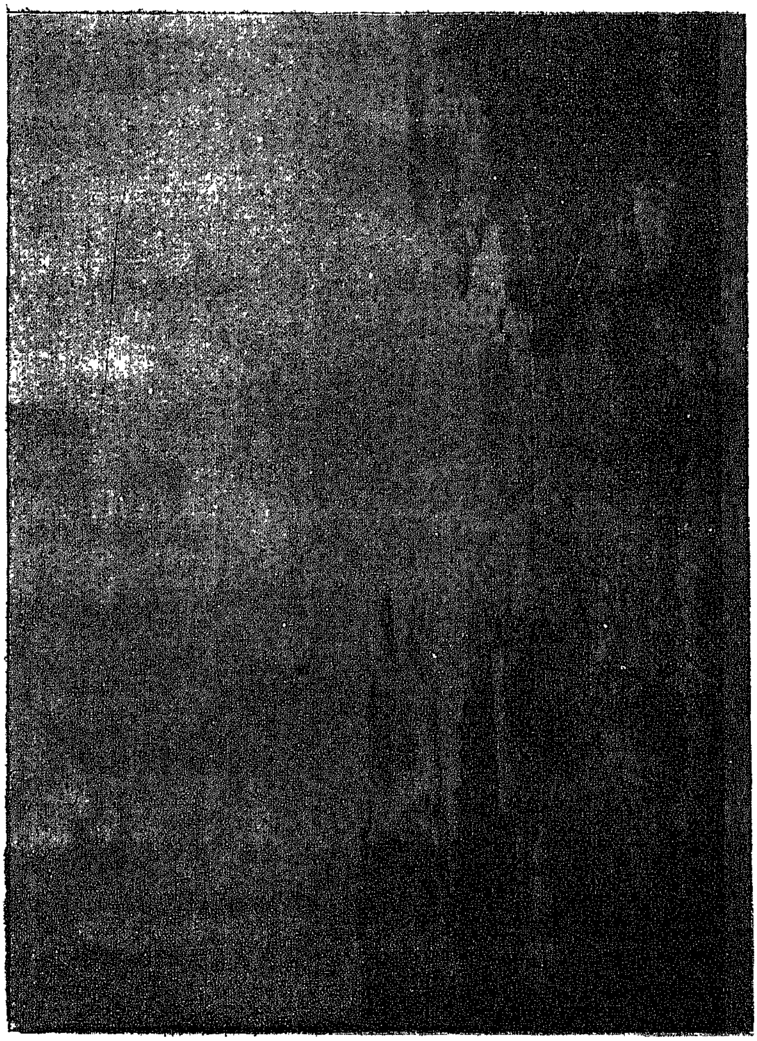

صورة برجا

١٧ جُبَيل

ليس من شأننا ان نسرد هنا اخبار هذه المدينة الشهيرة او نلخّص تاريخ احوالها فان ذلك يقتضي كلاماً مطوَّلًا يخرج بنا عن الحدود التي افترضناها على نفسنا في مقالتنا (١ وانَّما نكتفي بان نذكر فقط آثارها الجليلة التي صبرت على ممرّ الزمان

كانت جبيل مدينة الفينيقيين المقدَّسة يحجُّون اليها كما يُحجُّ الى المزارات الشهيرة · اما موقع المدينة القديمة فان جمهور العلماء لا يرونهُ مختلفاً عن مكان البلدة الحديثة · وقد ورد ذكر جُبيل منذ القرن السادس عشر قبل المسيح في الرسالات التي اكتُشفت حديثاً في تلّ العمارنة · وممَّا جاء هناك من الافادات التاريخيَّة انَّها كانت على سِيف البحر ولها عمارة بحريَّة وانَّ اهلها كانوا من حذَّاق الملَّاحين · وفي نبوءة حزقيال (ف ٢٧) وتواريخ الاقدمين ما يؤيد تقرير هذه الكتابات الجليلة الشأن كما اوضحهُ الدكتور جول روقيه (٢ · وكلُّ هذه الشواهد تنطبق على موقع المدينة الحديثة

بيد انَّ جبيل القديمة كانت رحبة الجوانب واسعة الارجاء تمتدّ اكثر من المدينة الحاليَّة امتداداً بالغاً · ولنا على ذلك البيّنات الواضحة منها قِطَع عديدة من العواميد وبقايا ابنية فخيمة تراها في خارج سور جبيل الحديثة · ثم انّ السور الحالي ليس بقديم ولا يتجاوز عهد الصليبيين بل هو من اعمالهم · فوجود الآثار القديمة في خارجهِ لا يدلُّ على انها في الاعصار السالفة لم تكن متَّصلة بالبلدة · ولمَّا استولى الفرنج على المدن الساحليَّة في القرون المتوسطة وجدوا جبيل في حالة من الخراب يُرثى لها · فاخذوا في ترميمها واستعانوا لتشديد المدينة وتحصينها بموادّ أخربة

---

١) ومن اراد الوقوف على تاريخ جبيل فعليهِ بالخُلاصة التي صنَّفها الدكتور جول روقيه فقرأها على مسامع نخبة من اهالي بيروت في حفلة عُقدت في مرسح كليّتنا ثم نشرها بالطبع في المجلَّة الكتابيَّة (Revue biblique, VIII, 553) بهذا العنوان :

Gébal-Byblos, son histoire dans l'antiquité et sa nécropole phénicienne.

٢) راجع المقالة المذكورة (ص ٢)

البنايات القديمة التي وجدوها قريبة دانية · ولعلّ ندرة وجود الآثار القديمة في جبيل مسبَّبة من اتخاذها للابنية المستحدثة · وفي عصرنا هذا تلف كثير منها في ابنية قرية عمشيت فكان اهلها ينقلون من جبيل كل ما يصلح لبناء مساكنهم · وهذا لعمري ممَّا يوجب الاسف لان بقايا ترقّي الاقدمين وتقدُّمهم يلاشيها التمدّن الحديث فيصبح لها بمثابة نوائب الحدثان ومصائب الزمان بل اوخم عاقبةً منها كما بيَّن ذلك الدكتور جول روقيه

واذا زدنا على هذه عوامل الخراب الزلازل التي تلاعبت بكثير من آثار جبيل (١ فهمنا كيف انَّ هذه المدينة امّ المستعمرات الفينيقيَّة لم تُبقِ للخلف من مآثرها السابقة الَّا النزر القليل

واول ما يستلفت النظر من آثار جبيل بُرجها فانَّ بقاياه الضخمة لم تعمل فيها صروف الزمان · وهو لا يزال منتصباً ينبئ بعظم شأن بُناته

وموقع البرج المذكور في جنوبي شرقيّ المدينة لهُ منظر خطير يأخذ بمجامع لبّ ناظره · وهو مبني بحجارة كبيرة ولعلّ ذلك الذي حمل أغلب الكتبة على ان ينسبوهُ الى الفينيقيين زعمهم الباطل انَّ قدم الابنية يُعرَف بعظم حجارتها وضخم موادّها · وكانوا يزيدون على هذا تأييدًا لرأيهم انَّ على البرج المذكور مسحةً من العتاقة تشهد بقِدَمه

بيد انَّ ذوي الخبرة من المهندسين واصحاب العاديَّات أبطلوا هذا الزعم بعد الفحص المدقَّق وبيَّنوا ببراهين مقنعة ان هذا البرج من عمل الصليبيين في القرون المتوسطة · وسندُهم في ذلك الى ما يحدق بالبرج الكبير من الابنية الثانويَّة وهي عبارة عن بروج صغرى لا سبيل الى نسبتها الى الفينيقيين لما يدخل في تركيبها من الموادّ المأخوذة عن ابنية اقدم عهدًا شادها اليونان والرومان كاعمدة من الصوّان أُدرجت في جدران هذه البروج · وهذا الامر شائع في ابنية الصليبيين بخلاف الامم السابقة لعهدهم · اعني انَّهم كانوا اذا دخلوا بلدًا انتفعوا بخرائب آثاره القديمة كالهياكل والقصور فيتَّخذون موادَّها لابنيتهم الجديدة ويستغنون بذلك عن

---

١) راجع المشرق ٣ : ٩٧٠

نقلها من المقاطع · فاذا ثبت انّ هذه البروج الصغرى هي للصليبيين يصح القول ان البرج الكبير هو ايضاً من آثارهم لما بينهُ وبينها من الشبه في هيئة الحجارة وطريقة النَّحت فان لحجارة كليهما نتوًّا متشابهاً ولهيئتها عتاقة واحدة (١ مع ما ترى بين حجارتها من الاختلاف في الكبر · وهناك ايضاً عدة تفاصيل هندسيَّة عُرف بها الصليبيُّون دون غيرهم منها شعار البنَّائين وعلاماتهم وقِطَع كتابيَّة يونانيَّة ورومانيَّة أُقحمت في البناء بلا نظام

هذا واننا لا ننكر ان الحجارة الكبيرة التي تُرى في البرج الكبير هي من نحت الاقدمين وقد بيَّنَّا غير مرَّة لاسيما في خلال كلامنا عن دير القلعة انهم كانوا يحبُّون اتّخاذ مواد ضخمة لبناياتهم · لكن الصليبيين نقلوا هذه الحجارة التي وجدوها فاتّخذوها لشؤونهم الخاصَّة

امَّا آثار قدماء الجبيليّين فقليلة جدًّا · منها عدد كبير من العواميد تراها في كلّ انحاء البلدة حتى يسوغ ان ندعو مدينة جبيل مدينة العواميد · وقعر ميناها الصغير مفروش كلُّهُ بهذه العواميد · وهي من الصوان الصلب قد نُقلَت من بلاد مصر بحرًا · ولا نشكُّ في انها كانت داخلةً في الهياكل والمعابد العديدة التي كان يتباهى بها اهل جبيل لانّ مدينتهم كما سبق لنا القول كانت مركز الديانة الفينيقيَّة يحج اليها اهل البلاد ليتيمَّنوا بزارها · وكان للبلد ايضاً اروقة واسعة قائمة على مثل هذه العمد في صدر الشوارع الكبرى كما كان شأن المدن الرومانيَّة في ذلك العهد

وممَّا يستحق الذكر ايضاً بعض قوائم ومساند كانوا يضعون فوقها التماثيل · ومنها ايضاً مذابح صغيرة وحجارة عليها كتابات لا يسعنا هنا تعدادها ووصفها واكثرها قد نُشر بالطبع في اوربّة · وقد اسعدنا الحظ على وجود بعض منها كتبت باليونانيَّة لم تسنح لنا الفرصة حتى الآن بنشرها

---

١) وهذه العتاقة ليست بدليل قاطع على قدم هذه الابنية وانما هي لاحقة بصنف الحجارة الرمليَّة التي تستعمل في الساحل · فان ابخرة البحر والرطوبة تعملان فيها عملًا سيئًا فيظنّ من يراها انها عريقة في القدم مع انها حديثة · وترى مثل ذلك في بعض بنايات بيروت التي لا يتجاوز عهدها ٢٠٠ سنة

فهذه غاية ما نرى الى ذكره سبيلًا عن عاديّات جُبَيل الباقية في ضمن سورها ٠ وهي لعمري نزرة بالنسبة الى شأن هذه المدينة وخطرها ٠ ولا غرو ان تحت ردمها آثارًا جليلة وكنوزًا علميَّة سوف يطلعنا عليها المستقبل اذا ما تيسَّر للعلماء ان يحفروا حيث شاؤوا ٠ وما يزيدنا ثقةً بهذه الاكتشافات انَّ اهل جبيل كثيرًا ما يجدون في املاكهم امتعةً شتَّى غالية الثمن يبيعونها خفيةً للاجانب كالتماثيل والنقود والقطع المعدنيَّة الى غير ذلك ممَّا لا يمكن ضبطهُ وتدوينهُ في كتب آثار بلادنا

ومن ابنية الفرنج في جبيل كنيسة مار يوحنَّا المارونيَّة ٠ وهي كانت سابقاً ارحب منها اليوم ولعلَّها كانت مزيَّنة برواق في صدرها ٠ وهندستها كهندسة كنائس الصليبيين ذات ثلثة اقسام مقبَّبة تنتهي بحنايا ٠ ونقوش اكلَّة عَمَدِها في قسمها الكبير تجمع بين الطرزَين الهندسيين الغوتي والكورنتيّ

وبقرب الكنيسة جرن للعماد غاية في اللطف والدقَّة وهو عبارة عن قبَّة كنصف كرة تستند الى اربع أقواس على شكل بيضيّ وترى فوق ثلاث اقواس منها اشغالًا هندسيَّة وزيناً حسنة ٠ اما القوس الرابعة فلا تُرى لانها مستندة الى جدار الكنيسة ١)

واذا ما خرجنا من سور البلدة لقينا كما في داخلها كميَّة وافرة من عواميد صوَّان متكسّرة ٠ وممَّا اكتُشِف حديثاً في ارض تخصّ عبد الواحد افندي اساس بناء فخيم اشبه بهيكل ٠ والاساس المذكور بالغ العمق يُدخل منهُ الى أسراب غريبة الشكل لا تُعرف غايتها ٠ وفي المكان عينهِ وُجدت قِطع تماثيل ونقوش من الرخام الابيض

مدافن جبيل

ومن آثار جبيل الغريبة قبورها القديمة ومدافنها وكان موقعها خارج البلدة ليس بعيداً عن اسوارها ٠ الَّا ان هذه المدافن المعروفة اليوم ليست مدافن الفينيقيين وانَّما هي احدث عهداً كما ارتأى ذلك الدكتور روڤيه في بحثهِ السابق الذكر ولعلَّنا نسمع

---

١) راجع De Vogüé : *Les Églises de la Terre S*^{te} , p. 375

عمّاً قليل ببشرى اكتشاف نواويس جبيل الفينيقيّة فينتفع بها العلماء كما انتفعوا باكتشاف نواويس صيداء

واليوم يصعب علينا ان نُقدّر سعة مدافن جبيل وشكلها بعد ما حلّ البلدة من التقلّبات المتواترة وامتداد الرمل على قسم كبير منها · والارجح ان مكانها المخصوص بها كان في شرقي البلدة وجنوبها

وفي هذه المدافن لم يُكتشف الى يوم تاريخنا شيء من الآبار التي كان الفينيقيّون يؤثرونها لقبر موتاهم كما ترى في صيداء وغيرها من المدن الساحليّة · على انَّ عدم اكتشافها ليس بسبب كافٍ للجزم بعدم وجودها كما زعم المسيو رينان (بعثة فينيقية ص ٢٠٦) · واننا نرّجح مع المسيو روڤيه وجود مثل هذه الآبار ولو لم يتوصَّل احدٌ بعد الى اكتشافها · لكنَّ جبيل لا تخلو من المغاور المخصوصة بدفن الموتى الاقدمين · وقد وجدوا ايضاً حُفراً منقورة في الصخر ونواويس لهذه الغاية نفسها

اما المغاور فعلى ضربَين منها طبيعيَّة وجدها الانسان فاستخدمها لدفن امواتهِ · ومنها صناعيَّة حفرها بيدهِ لهذه الغاية · وبين المغاور الطبيعيَّة ما كان عهدهُ قديماً جدًّا يشبه الكهوف السابقة لزمن التاريخ التي وصفها حضرة الاب زُموفن في المشرق (١ : ٩٧ و ٣٥٣) احسنها المغارة التي تُشرف على مسيل ماءٍ في لحف ضيعة قصوبة على مسافة نصف ساعة من شرقي جبيل · وهي قريبة الشبه بمغارة انطلياس (المشرق ١ : ١٠٢) المرتقية الى طور الظرَّان · وقد نُقر في جوانبها الداخليَّة مخادع كانت تجعل فيها الموتى · وفوق احداها نقش يمثّل محاراً من الصدف الملتوي لعلَّهُ من عهد الرومان

ومداخل هذه المدافن تنفتح عموديًّا او ببعض انحراف في وجه الصخور · ومنها كثير في الوديان المجاورة لجبيل وفي الصخور التي تطلّ على البحر · وفي بعض الآونة ترى لهذه المدافن نقشاً قليلاً ويُدخل اليها على سواء الرجل وربَّما وجدتَ لها حجرةٌ او اكثر كانت تشتمل سابقاً على نواويس انتهك حرمتها قومٌ من طالبي الخبايا وبائعي العاديَّات لم يبقوا منها الا قطعاً محطَّمة · وفي الغالب لا تجد في هذه المدافن الا حُفراً كالافران منقورة في الصخر

وتاريخ هذه المدافن لا يمكن تعيينهُ بالضبط لاسيما بعد ان نُزعت منها اجهزة الدفن وسُلبت امتعتهُ كما سبق ولو بقيت لاستطاع العلماء ان يستدلّوا بها على عهدها · اما الكتابات فلا يرى منها الّا النزر القليل وهي كلها يونانيَّة ورومانيَّة · وعليهِ فلا يتَّفق علماء الآثار العاديَّة على تعريف عهد هذه المدافن · ومنهم من زعم انها سبقت فتح الرومان للشام · وقد ارتأَى رينان ان بعضها يرتقي الى ايَّام الكنعانيين

امَّا الدكتور روڤيه فانَّ رأيهُ ان هذه الكهوف كلها من عهد الرومان · وقد دعم قولهُ بحجج حسنة ترجّح رأيهُ دون ان تزيل كل الشبهات · ومن براهينهِ انَّ ما وُجد من العاديَّات في هذه المدافن منذ ٥٠ سنة لا تصح نسبتها الى غير الرومان فيستنتج من ذلك انَّ المكتشفات السابقة لهذا التاريخ كانت ايضاً رومانيَّة · (نقول) ان هذا الدليل لا يخلو من القوَّة لكنَّهُ ليس بجازم لان كثيرًا من هذه العاديَّات لا تزال مخفيَّة لدى فاتحي هذه المقابر · وكذا نقول عن البرهان الثاني حيث بيَّن الدكتور ان النواويس والنقود التي وجدت في هذه الكهوف كلّها من عهد ملوك الرومان · فانَّنا نسلّم لجنابهِ بقوَّة هذه البيِّنة لكنَّنا لا نجسر ان نحكم في ذلك حكماً فصلًا ريثما يتمّ البحث المدقّق في مستودعات هذه الكهوف · كما انهُ لا يجوز ان نبني على هذه الاكتشافات الجزئيَّة احكاماً عموميَّة عن عادات الجبيليين في دفن موتاهم

هذا واننا نوافق المسيو روڤيه الموافقة التامَّة في نسبتهِ بعض المدافن الى الطور اليوناني الروماني وهي: ١ً المدافن ذات الطبقتين الواقعة في الرملة التي تُرى جنوبي الطريق المؤدية من جبيل الى بيروت · ولكلّ قبور هذه المدافن منافذ على شكل أقواس · ٢ً المغارة الواقعة على مقربة من المدافن السابق ذكرها اتّخذها ايضاً القدماء كمقبرةٍ وحضيضها مبلّط بالفسيفساء · ٣ً بعض كهوف اخرى طُليت بالملاط ومنها ما هو مزيّن بالتصاوير · فهذه بلا شكّ ليست من اعمال الفينيقيين ولكن من المحتمل ان تكون سبقت تاريخ الميلاد بقرنٍ واحد او ازيد على مثال صفائح القبور التي وجدت في صيداء قبل سنين قليلة وقد نشرنا كتاباتها في مجلّة

العاديّات (١ . ٤ً بعض مدافن مقبّية . ومن المعلوم ان الفينيقيين الاقدمين لم يستعملوا القبب

نواويس جبيل

نواويس جبيل كنواويس غيرها من المدافن الفينيقيّة . لكنّهم لم يجدوا حتى الان فيها الّا ناووساً واحدًا يمثّل هيئة الجسم البشري (Sarcophage anthropoïde) وهو اليوم في متحف اللوفر . والنواويس الخشبيّة لا اثر لها في جبيل مع كثرتها في غيرها من المدن الساحليّة . امّا النواويس من الرصاص والآجرّ والحجارة والرخام البلدي مع اطباقها المحدَّبة فهي اشبهُ شيء بنواويس بلاد فينيقيّة من حيث هيئتها ونقوشها

وقبل ختام هذا الباب لا بدّ ان نثبت هنا قولًا لرينان بخصوص اثقاب وشقوق مختلفة الشكل وفي الغالب مستديرتهُ تُرى في قعر النوافذ الداخلة في قلب الارض . فظنّ المسيو رينان انّ العمَلة الذين كانوا يحفرون هذه المقابر كانوا يسبرون متانة الصخر بادواتهم قبل حفره ليعلموا ما سيلقون في شغلهم من المشقّة

وقد ردّ الدكتور روفيه على زعم رينان بما لا يُنقض من الحجج فبيَّن انّ هذه الاثقاب ليست بصناعيّة وانما هي صدوع طبيعيّة كثيرًا ما تحدث في الحجارة الرمليّة كما يُستدلّ على ذلك حيثما شاعت هذه الحجارة وقد رأينا كمثل هذه الشقوق في جبيل نفسها خارجاً عن المدافن

فهذا نظرٌ عموميٌّ لخّصنا فيه ما يُعرف عن جبيل وآثارها . فعاديّاتها كما ترى قليلة ولكن لا يجوز للعلماء ان ييأسوا من وجود آثار غيرها . ولقد اساء رينان لمّا قال عن جبيل انّهُ لا يؤمل اكتشاف شيء جديد فيها . وكان دأب هذا الرجل ان يبحث دون تروٍّ كافٍ عن العاديّات ولمّا لم يعثر في جبيل على ما كان ينتظرهُ جزم بان هذه المدينة خلوة من المآثر القديمة

اما نحن فنؤثر رأي الدكتور روفيه حيث قال في خاتمة مقالتهِ عن جبيل :

---

١) راجع Promenade épigraphique à Saida, *Revue archéolog.*, 1898, II.

« اننا نعتبر جبيل ومدافنها الفينيقيَّة كأنَّها مجهولة تماماً . ونظنّ انَّ آبارها المتخذة لدفن الموتى قد سُدَّت افواهها مع صفائح قبورها بالرمل والتراب المنقول الى هذه المدافن من التلال المجاورة فاتُّخذت تلك التلال كجنائن وبساتين وصارت المدافن مطمورة في قعر الارض . ولكن لنا الامل الوثيق ان سيتوصَّل عمَّا قليل اصحاب الهمَّة الى هذه القبور المكنونة في اعماق الارض . ولنا ضمين لتحقيق آمالنا في ما شاهدناهُ في مدافن صيداء التي فيها وُجد قبر الملك تبنيت وعــدَّة من نفائس الآثار تخلب عقول الزوَّار في متحف الاستانة العليَّــة . والفضل في اكتشافها عائد الى سر مهندس ولاية بيروت السابق بشارة افندي

« ولعلَّ سعة حدود هذه المدافن البالغة في العمق كسعة المدافن التي اتُّخذت بعدئذٍ بدلًا منها . امَّا مركزها فالارجح انهُ على مسافة ١٠٠٠ او ١٥٠٠ متر من المدينة على منعطف الرُّبى المجاورة . هذا ما يظهر لنا بالحدس والتخمين وهو سبيل نهجهُ لمن يأتي بعدنا باحثاً في عاديَّات جبيل (١ »

١٨ بلاد جبيل

لبلاد جبيل شأن خطير في التاريخ وعلم العاديَّات . وذلك لانَّ قاعدة تلك الانحاء كانت اضحت في عهد الرومان مركزًا لعبادة تموز فصارت الضواحي التابعة لها كحرَم لا يجوز انتهاكهُ . وكانت الجماهير تحجّ الى هذا القطر لتكرّم الاماكن التي تخيَّلتها كموقع لآثر تموز واعماله المُختلَقة . ولذلك لم تكد ربوة من الرُّبى التي تجاور مدينة جبيل تخلو من معبد تنبئ آثارهُ الباقية بعظم شأنهِ

وممَّا كان يزيد هذه النواحي حسناً وبهجــةً انَّ لبنان كان في ذلك العهد مجلَّلًا بابهى حلل الطبيعة تزينــهُ الغابات الكثيفة وتظلّلهُ الاشجار الباسقة فكان اشبه بجبال الالب التي هي اليوم فخر سويسرة ومصدر ثروتها (راجع مقالتنا في جبال الالب ولبنان . المشرق ١ : ٧٢١) . فكنت ترى لكل معبد غيضة تحدق بهِ وتمدّ

---

١) وفي الواقع قد وُجدت في جبيل بعد كتابتنا لهذه الفصول آثار أُخرى قد وُصفت في المشرق ١٩٠٣ (٦ : ٩٢٣) و ١٩٠٤ (٧ : ٢٢٨)

فوقة افنانها الوارفة كما ترى اليوم في بلاد النصيريَّة المزارات والمقامات على آكام تكتنفها ضروب الاشجار كأنَّها قلائد الزمرُّد

اما الآثار الباقية فمنها ما هو مطمور في الارض ومنها ما تخذهُ الخلق لبنايات مستحدثة كالكنائس والبيع يدلُّ عليها كتابات قديمة طُمس بعضها او نقوش متقنة الصنع تراها في الجدران او صفائح محطَّمة أُلقي حطامها في زوايا الكنيسة او انصاب مخروطة وعتبات مستطيلة الى غير ذلك بل وجدنا مذابح بعض الكنائس مبنيةً بحجارة المذبح القديم نفسه · واذا طُفت حول هذه الكنائس رأيتَ آبارًا او صهاريج او احواضًا او قبورًا منقورة في الصخر كلها شاهد على الازمنة الخالية

بَلاط

موقع هذه القرية على مقربة من قَصوبة في جنوبيها · كنيستها على اسم النبيّ العظيم مار الياس وهي مبنية بحجارة هيكل قديم كان هنالك · وفي جدرانها بعض قطع من تماثيل رومانيَّة متحطّمة وفي داخلها اربع كتابات يونانيَّة يستفاد منها ان الهيكل القديم الذي قامت الكنيسة مقامهُ كان على اسم الاله العظيم (Διὶ μεγίστῳ) وهو البعل كبير آلهة الفينيقيين او تموز قرينهُ ونائبهُ في بعض الامكنة (راجع المشرق ٢ : ٦٢) ولهذه الكتابات تاريخ يقضي باعتبارها كاقدم الكتابات اليونانيَّة في لبنان فانها ترتقي الى السنة ١٩ قبل المسيح

ولبلاط مدافن قديمة وقبور منقورة في الصخر أحكمُها صنعاً ما يُرى غربي المدينة · وهي عبارة عن ستَّة اجران متلاصقة متجانسة الشكل غاية في الاحكام نُقرت في الصخر بعد قطعهِ وتسويتهِ واهل بلاط يجدون عددًا وافرًا من العاديَّات في قريتهم وضواحيها · ولو باشر العلماء ثمَّ حفريَّات منظَّمةً لوجدوا فيها ما يسرُّهم (١

اده

هي في شمالي حَبوب وشرقيّ شمالي جبيل · من آثارها القديمة موادّ كنيستها

---

١) راجع كتاب بعثة فينيقية لرينان ص٢٢٣ ورحلة دوسُّو الى سوريَّة سنة ١٨٩٥ ص٥

القامة على ذكر القديس جاورجيوس . فانّ هذه الموادّ قد استخرجت كلها من ابنية عاديّة . ومن اعتبر جدرانها وجد في خلالها قطعاً شتى من العمد والحجارة المُطنَّفة . وقد انتزع المسيو رينان عتبة الكنيسة وارسلها الى متحف اللوفر في باريس . وعليها يُرى نقش من الرموز الشائعة في الدين الفينيقي وهو يمثّل كرةً ملتفّة حولها حيّات تجتمع اذنابها من فوق . والكرة المذكورة بين جناحين منتشرين على جانبيها . وكان لبيت العباد الذي قرب كنيسة جبيل حجر فيهِ مثل هذه النقوش الّا انهُ احدث عهداً من العتبة السابق ذكرها (راجع ص ٦٣) . وهذا الحجر نقلهُ ايضاً رينان الى باريس

وفي نواحي اده معابد كثيرة كانت في سابق الدهر هياكل للاصنام ومنها ما هو مزدوج . وسنعود ان شاء الله الى ذكرها عند كلامنا عن كنائس لبنان المارونية القديمة

عمشيت

عمشيت قرية جديدة بالنسبة الى غيرها من القرى المجاورة . وليس فيها من اثر ثابت يؤدي بالقول الى وجودها في الطور اليوناني الرومانيّ وهي اليوم بلدة معتبرة اخذت في النموّ منذ اوائل القرن الحالي . امّا الكتابات العديدة التي يجدها الناس في عمشيت فكلّها منقولة اليها من جبيل او ضواحيها (١

عبادات

فاذا رقينا الان الى مشارف لبنان وجدنا في طريقنا كنيسة شامات المزدوجة التي فيها آثار هيكل من الطرز الايوني (ionique) ترى عمدها من داخل الكنيسة . وفوق شامات على مسافة نصف ساعة منها عَبادات او عبيداتُ ترى في جدران كنيستها عند بابها الخارجي كتابةً يونانيّة كُتبت في ايام انطونينوس (٢

---

١) راجع بعثة فينيقية ص ٢٢١ ورحلة دوسُّو ص ٦

٢) هذا الاسم مشترك بين انطونينوس المعروف بالبارّ ومرقس اوريليوس انطونينوس

قيصر وهي ذات شأن لتاريخ الديانات في لبنان . والكتابة على اسم « المشتري السماوي الاعظم السارنايّ (Σααρναῖος) المشفع » وقد اختُلف في شرح الصفة « سارنايّ » والارجح انهُ نسبة لاسم هذه الضيعة القديم فدُعي بهِ البعل المعبود فيها وفي تراكم هذه النعوت والصفات اشارة الى معبود اعظم متفرّد بالجلال هو الرب سبحانهُ وتعالى الذي لا إله غيره ُكان القدماء اشركوا بهِ معبودات ثانويّة فتاهوا في بيداء الشرك

بجديدات

في بجديدات ايضاً آثار قديمة متعدّدة . سيأتي الكلام عن كنيستها ونقوش جدرانها . امّا مذبحها الحالي فهو المذبح القديم نفسهُ الذي كان الوثنيّون يقدّمون عليهِ تقادمهم . ومثل هذا المذبح في كنيسة مار اما بجوار اده . ولا تخلو بجديدات من الكتابات القديمة اليونانيّة لكنّ اكثرها مطموس لا يسعنا هنا ان نذكر ما ورد في شرحها من الآراء المتباينة بلا فائدة للقراء

جربتا

في جربتا وهي قرية قريبة من بجديدات اجمل نقش حفره القدماء في لبنان على وجه الصخر . وهذا النقش عبارة عن نُقرة مستديرة ترى في اعلاها شلو بعض الآلهة وتحت التمثال المذكور مذبح وعلى الجانبين شخصان رجل وامرأة واقفين في هيئة السجود وترى شخصين آخرين يسوقان الضحيّة ويحملان كل لوازم الذبيحة . وهذه الصورة قد صبرت على ممرّ الدهر الّا انّ رأس الاله قد حُطم فيها عمداً . ورسمها حسنٌ يشهد لمصوّرها بالحذق ودقّة الصناعة فانّهُ اجاد كلّ الاجادة بتمثيل حركات الاشخاص ولبسهم وهيئاتهم المختلفة . ومن فوائد هذا الاثر انّهُ يدلّنا على لبس قدماء الفينيقيّين فضلًا عن تعريفهِ لديانتهم . وعلى مسافة قريبة من هذه الصورة كهوف ومدافن منها اشتقّت جربتا على الاصحّ اسمها اليونانيّ (Κρύπτη) اي مغارة

فيجوز ان تنسب الكتابة لكلّ منها فيكون تاريخها امّا سنة ١٥٤ — ١٥٥ او ١٧٧ — ١٧٨ بعد المسيح

معاد

لا ريب انَّ معاد كانت في سالف الاعصار ضيعةً مهمةً ومركزًا خطيرًا · وفي القرون المتوسطة بُني لها قلعة · وكنيستها نعدُّها طرفةً من طُرف الايام نذكرها في جملة الكنائس القديمة المعتبرة · ومما اكتُشف فيها كتابة يونانيَّة للاله سَتراپ تاريخها السنة الثامنة قبل المسيح ارسلها رينان الى باريس · ومن خواصها كثرة اغلاطها · مما يدلّ على ان حافر الكتابة كان يرسم الرسم دون ان يفهم مضمونهُ · وهذا كثير في الخطوط اليونانيَّة القديمة المكتشفة في لبنان كما ترى مثلًا في كتابة دوما · وهو من البراهين التي تنبئ بان الفينيقيين لم يتقنوا التكلُّم باللغة اليونانيَّة

وان سأل سائل تُرى مَن هو هذا الاله سَتراپ · اجبنا ان الستراپ عند اليونان كالمرزبان عند العرب وكلاهما يدلُّ على رئيس الفرس وسيدهم المتولّي امورهم بالنيابة عن الملك · فيكون الاله المذكور في كتابة معاد دُعي بذلك ايَّام دولة الفرس في فينيقية · فسمّوه سَتراپًا اي سيدًا كما سمّوا غيرهُ من الآلهة « بعلًا وملوخًا » وكلاهما بمعناهُ يراد بهما السيّد والملك · وان اعترض المعترض بقولهِ ان المرزبان دون الملك مقامًا فكيف دعي بهِ الاله العظيم · قلنا انَّ المرزبان كان في اعين الشعب كالوالي والحاكم الاكبر الذي يعودون اليهِ في كلّ امورهم لبُعد الملك الاعظم عنهم · فاعتادوا اكرام الوالي المذكور حتى صار لديهم بمنزلة الملك عينه · ثم نسبوا اليهِ قسمًا من الصفات الالهيَّة كما كانوا ينسبونها للملوك · وكذلك ترى كثيرًا من الصفات الالهيَّة كانت في بادئ الامر تدلّ على رتبة مقصودة ثم نقلها العامَّة شيئًا فشيئًا للدلالة على السلطان المطلق والاله الاعظم كما ترى في غير ذلك من اسماء اللاهوت كالبعل وأدون وملوخ وكلها انتقلت عند الفينيقيين بالمجاز من معناها الاصليّ الى معنى الاله الكبير المتعالي

مهما كان من امر هذا اللقب فانهُ من المقرَّر ان اسم الاله ستراپ لم يُرَ ذكرهُ في غير هذه الكتابة الحجريَّة · على انَّ پوزانياس المؤرّخ كان ذكره في كتابهِ

السادس (ف ٢٥ و ٢٦) فجاء اكتشاف هذه الكتابة مؤيّدًا لقولهِ (١ وترى من ثمَّ ما في درس الآثار القديمة من الفوائد لمعرفة التاريخ · ولا يقولنَّ قائلٌ ان هذه الاشياء زهيدة ليس تحتها كبير امر · أجبنا انَّ العلم في الغالب متوقّف على مثال هذه الدقائق فاذا جُمع شتاتها نجم عنها فوائد لم تكن في الحسبان فكأنَّها اشعَّة النور تبيد اذا ضمَّ بعضها الى بعض سلطانَ الظلام وتقرّر اسمى الحقائق وأجلَّها

* * *

١٩ احوال لبنان في القرن الرابع عشر قبل المسيح

وفقًا لما ورد في مراسلات تلّ العمارنة

كثيرًا ما اشرنا في سياق كلامنا عن آثار لبنان الى مراسلات تلّ العمارنة · فأحببنا ان نستطرد الى وصفها لما ينجم عن معرفتها من الفوائد الجمَّة المعربة عن احوال بلادنا قبل تاريخ الميلاد باربعة عشر قرنًا · فان هذا لعمري عهد قديم ما كنَّا لنرجو قبل عشرين سنةً ان نقف على شيء من اخباره · فأتى هذا الاكتشاف في حين لم تهجس فيهِ الضمائر ولم يخطر على بال · امَّا الفوائد التي تُستخلص من المكاتبات فقد ألحقناها بآثار بلاد جُبيل لكثرة ورود اسم هذه الناحية فيها فنقول :

ان تلّ العمارنة مزرعة صغيرة مجاورة لوادٍ موقعهُ جنوبي مدينة المنيا في الصعيد على مسافة ٨٠ كيلومترًا منها عند ضفَّة النيل الشرقيَّة · والوادي المذكور تحيط بهِ الصخور وهو يُدعى باسم المزرعة المنوَّه عنها · وفي هذا الوادي بُقعة واسعة تمتدّ مباشرةً من قرية « شيخ قنديل » وكان على وجهها أطلال وأخربة قديمة · اما الصخور المجاورة فكانت قد نُقرت فيها مدافن تزينها النقوش والكتابات الهيروغليفيَّة استنتج منها العلماء انَّ ثمَّت ازهرت مدينة « خوت اتن » او « خوت

---

١) راجع مبحثًا مهمًّا ورد في المجلَّة الاسيويَّة الفرنسيَّة عن الاله ستراب المذكور
(J. A., 1877^2 p. 157)

ناتن (١ » كرسي ملك فرعون مصر المدعوّ امينوفيس الرابع وكان هـذا الملك بنى تلك المدينة نحو سنة ١٣٨٠ قبل الميلاد وبقيت مدةً الى ان خربت بعد وفاته

ولما كانت بعض شهور سنة ١٨٨٨ بينا كان قومٌ من الفلاحين يحفرون بجوار هذه الاخربة اذ عثروا على صناديق خشب مملوءة من قطع الآجرّ كلها مكتوبة على وجهيها باسطر متلاصقة ناعمة . فسُرّ الفلّاحون بهذا الاكتشاف واملوا من بيعه ربحاً طائلاً . وحملهم طمعهم الى ان كسروا اكبر هذه الالواح فجعلوها قطعاً ليزيد بذلك عددها وربحهم معاً . ولعلّ جهلهم كان أودى بهذه الكنوز الدفينة لولا ان الخبر بلغ مسامع أولي الامر فبادروا حالاً الى تلافي الضرر وضبطوا ما وجدوهُ من الآجرّ ومنعوا كسرهُ وتشتيت قطعهِ . وقد نال المتحف البريطاني النصيب الاوفر من هذه الكتابات فانّ منها هنالك ٨٠ آجرّة كبرى حسنة . اما المتحف المصري فاصاب منها نيّفاً وستين قطعة . وفي دار عاديّات برلين منها ١٨٠ قطعة دون القطع السابقة كبرًا وكذلك تمكّن بعض الخواصّ فحصلوا على قطع صغرى ابتاعوها لنفوسهم

وما عتّم العلماء ان عرفوا ان الكتابات المرقومة على الآجرّ هي الكتابات المسماريّة البابليّة وانها تشتمل على سجلّات الدولة في ايام امينوفيس الرابع وابيه امينوفيس الثالث فكان لهذا الاكتشاف احسن وقع لدى المستشرقين

وان سأل سائل كيف دخلت اللغة البابليّة في سجلّات ملوك مصر ؟ أجبنا ان الامر لا يخلو من بعض الشبهة . وقد ذهب قومٌ من العلماء الى انّ اللغة البابليّة كانت في ذلك العهد اللغة الرسميّة بين الدول الشرقية كما ترى اللغة الفرنسية في ايامنا . وذهب غيرهم كالاب ديلاتر اليسوعي الشهير (٢ الى ان اهل الولايات الشامية في زمن مكاتبات تلّ العمارنة كانوا يتكلّمون باللغة البابلية وهو عندنا الرأي الارجح . على اننا بقولنا هذا لا ننفي وجود لسان غير اللسان الاشوريّ اخذ مذ ذاك الحين

---

١) لم يتّفق العلماء على كتابة الاعلام الواردة في رسائل تلّ العمارنة فاتّبعنا ما رأيناه اقرب الى الصواب

٢) راجع كتابهُ في بلاد كنعان على عهد الدولة المصريّة :
Le pays de Chanaan, province de l'ancien empire égyptien, (p.26 - 30)

يمتزج بلغة بابل نريد بذلك اللغة الكنعانية التي يظهر منها بعض الآثار في رسائل تل العمارنة . وهذه اللغة الكنعانية هي التي تغلّبت بعدئذٍ في انحاء الشام وطمست (بفرعيها العبرانيَّة والفينيقية) آثار لغة اشور . وهذا يطابق ما نعرفهُ من احوال بلادنا فان اهلهُ كانوا قبل عهد المسيح بثلاثة آلاف سنة قبائل ساميَّة من البابليين ثم لم يزل يهاجر الى سوريَّة جيلٌ من الناس نُسبوا الى الكنعانيين حتى غلب هذا العنصرُ الكنعاني العنصر البابليّ وقام مقامهُ (١

وعليهِ ان اول فائدة تُستفاد من مكاتبات تلّ العمارنة انما هي شيوع اللغة البابليَّة في لبنان مع ابتداء انتشار الفينيقية . وترى التراكيب الفينيقية في رسائل اهل الساحل لا سيما جبيل وبيروت اكثر منها في غيرها . فيؤخذ من ذلك ان سوريَّة كانت وقتئذٍ كمضمار يتجارى فيهِ شعبان كبيران : البابلي وهو المتولي على الارض المالك عليها تحت سيطرة فراعنة مصر . والكنعاني الذي ينمو ويزداد يوماً فيوماً الى ان ثبتت دعائمهُ وامتدَّت اطنابهُ واستولى على السيادة بدلًا من خصمهِ المدحور وغلَّب لغتهُ على لغتهِ

*

ومن بعد هذه المقدَّمة يترتَّب علينا ان نبحث عن مضمون مكاتبات تلّ العمارنة فنقول انَّ هذه المراسلات تُقسم الى قسمين : الاوَّل يشتمل على الرسائل التي بعث بها الى فراعنة مصر أقيالُ آسيَّة وملوكها غير الخاضعين لدولة المصريين كالحثّيين وملوك العراق وبابل واشور . امَّا القسم الثاني فانهُ يتضمَّن رسالاتٍ انفذها الى ملوك مصر او وزرائها ولاةٌ وامراء عديدون من سورية وفلسطين . وكانت بلادنا في ذلك العهد تحت حكم مصر فيستشفُّ من مطاويْ كلام الكتبة التذلُّل والتواضع كما يكتب العمَّال الى سادتهم بل العبيد الى اولياء امرهم

وفي مقدَّمة هذه الرسائل اسم الكاتب على هذه الطريقة : « عبدك فلان » او « فلان عبدك من مدينة كذا » او ايضاً « فلان كَلْب الملك » . ولا ترى احدًا من هؤلاء الكتبة يلقّب نفسهُ بملك او امير بل يكتفي باسم « خزانو » وهو

---

١) راجع كتاب المعلم ڤِنكلر H. Winckler: *Die Völker Vorderasiens*

الحاكم او الوالي . وقد ورد في رسالة حاكم جبيل « ريب ادّى » او « ريب ادّي » قولهُ للفرعون : « لاي سبب جعلني الملك خزانو » فاستدلّ المستشرقون من هذا الكلام ومن غيره انّ رتبة « الخزانو » كان ملك مصر يقلدها بنفسهِ الولاة فيخلفهم فيها اولادهم من بعدهم . ويستدلّ من هذه المكاتبات ان النساء كنّ يَتلْنَ رتبة الخزانو كالرجال وهو امرٌ غريب لم نجد لهُ شبيهاً في تاريخ الشام سوى ما ورد عن زينب في تاريخ تدمر (١

وتحتوي الفاتحة ما عدا اسم الكاتب ذكر الفرعون والقابهُ على هذا المنوال : « الى الملك سيدي والهي ونوري وشمس السماء فلان . . . عبدك وتراب قدميك وسائس خيلك . اني اخرّ على اقدام سيدي سبع دفعات وأنطرح سبعاً على صدري وظهري » وفي بعض الرسائل يبالغ الكاتب في التذلُّل والخنوع الى ان يجعل نفسهُ « كلباً اهلاً بان يطأهُ سيّده تحت اقدامهِ » ثمَّ يلي هذه المقدمة فحوى الكتاب

امَّا رسائل الملوك فمقدَّماتها تُشعر برتبة اصحابها مثال ذلك ما كتبهُ « دوسرتا ملك ميتاني » اي بلاد ما بين النهرين وكانت اختهُ زوجةً لِأمينوفيس الثالث وابنتهُ لابنهِ امينوفيس الرابع :

> « الى الملك العظيم ملك بلاد مصر اخي وصهري (وفي الاشوريَّة ختني) الذي يحبني وانا احبهُ كتبت هذا لافيدك . انا دوسرتا الملك العظيم صهرك الذي يحبُّك ملك ميتاني اخوك اني على احسن حال . واقرأُ عليك السلام وعلى آل بيتك وعلى اختك وحريك وعلى اولادك وعلى عجَلاتك وخيلك ووزرائك وبَلادك وكل مالك . سلامٌ للجميع يكون اطيب سلام

وفي مكاتبات تلّ العمارنة اعلام مُدن كثيرة نكتفي بذكر ما لهُ بعض العلاقة مع اخبار لبنان وهي : عكّاً (كما تُكتب اليوم) وصوريّ (صور) وصيدونا (صيداء) وبيروتا او بيرونا (بيروت) وجبلة (جبيل) وسموراً او سموريّ (وهي بلدة تُرى اخربتها على مسافة كيلومترين من مصبّ نهر الكبير شمالًا)

---

١) وقد اخبر المسيو دوسُّو في رحلة حديثة الى جبال النصيريَّة انهُ وجد امرأةً كانت متولّية رتبة المختار في ضيعتها

واروادا (جزيرة ارواد) . ومن المدن الداخليَّة المذكورة في هذه الرسائل . دِمَسقا او دِمَسقي (١ (دمشق) وقطنا في جوار دمشق (ولعلَّها قرية قطنة)

ولا ترى في مكاتبات تلّ العمارنة ذكرًا لجبل لبنان لاسيما جهاتهِ الداخليَّة الَّا نادرًا . وقد زعم الكولونل الانكليزي كُندر (Conder) انَّهُ وجد فيها اسماء البترون وجونية وشكَّة وشتورة ومكسة في البقاع (٢ بيد ان العلماء الاثبات لم يوافقوهُ على رأيهِ حتى الآن

ومن الاعلام المذكورة اسم مدينة أمّيا ذهب الاب ديلاتر اليسوعي الى ان موقعها وراء لبنان او في جهتهِ الشماليَّة . وقد زعم كُندر ان امّيا هذه هي اميون الحاليَّة في معاملة الكورة . فان صحّ قولهُ تكون اميون أقدم بلدة نعرفها في داخل لبنان. والرسالة التي ورد فيها هذا الاسم كاتبها احد العمَّال المصريين يطلب من صاحب امّيا ان يسلم اليهِ عددًا من العبيد مع ابنة الشيخ ويرسل لهُ فضَّةً وعجلات وخيلًا ثمَّ يختم قولهُ بما نصُّهُ : « اعلم ان الملك على احسن حال كالشمس في السماء وان جيشهُ وعجلاتهِ على ما يرام من الصلاح »

وقد جاء ايضاً مرارًا في هذه الرسائل اسم بلدة تدعى « نخاسه » يظنّ العلَّامة نيبور (٣ انها كانت في شمالي شرقي لبنان. امَّا الاب ديلاتر (٤ فيجعلها قريبة من حمص . ففي اقوال العلماء كما ترى تباين ظاهر

ولكن ان كانت افادات رسائل تلّ العمارنة قليلةً عن احوال لبنان الداخليَّة فانها كثيرة التفاصيل عن المدن الساحليَّة خصوصاً جُبيل . ولواليها « ريب اذَّى » وحده نحو خمسين رسالة في مجموع رسائل تلّ العمارنة

واوَّل ما يستلفت انظار مطالع هذه الرسالات ان مدن ساحل الشام كانت فائزة بنصيب من العمارة والتقدُّم فكانت التجارة البحريَّة فيها على قدَم . وكثيرًا ما ورد ذكر سفن جبيل وبيروت وصيداء التي كانت تمخر عباب البحر المتوسط

---

١) راجع مقالتنا في اسماء دمشق (المشرق ٣ : ٦٥٨)

٢) راجع كتابهُ The Tell Amarna Tablets, 2e *ed. London,* 1894

٣) راجع C. Niebuhr : *Die Amarna-Zeit*, p. 26

٤) راجع كتابهُ السابق ذكره ص ٤٧

وتنقل محصولات البلاد الى اماكن شتّى · وما هو اعجب من هذا ان المدن المذكورة كانت قد اتخذت لها بوارج حربيّة · والدليل على ذلك ما ورد في رسائل « ريب ادى » الى فرعون قال : « ان اهل ارواد عندك الان فاضبط سفنهم التي هي في مصر » · وقال في رسالة اخرى عن سفن بيروت وصيداء : « أليست هاتان المدينتان تحت ولايتك فولِّ عليهما رجلاً يمكنهُ ان يجهّز سفناً لبلاد اموري (١) » · وزاد في رسالة ثالثة ان سفن صيداء وبيروت بلغت ساحل بلاد اموري وقبضت على احدى مراكبها ثم اردف هذا الخبر بقولهِ : « وهذه السفن قادمة الآن لتستولي على بعض سُفني »

*

ولا عجب من هذا الخصام الواقع بين مدن مجاورة فان رسائل تل العمارنة تنبئنا بان امر بلادنا كان وقتئذٍ فَوْضَى لا تجمع اهلَها كلمةٌ · وفي ما يأتي ادلّة على ذلك

اما تجارة الفينيقيين البرّيّة فكانت تبلغ الى تخوم مملكة اشُّور وكانت قوافلهم تعرف حق المعرفة كل الشعوب التي تملك على الاقطار المتوسطة بين بلادهم وبلاد بابل · وقد ورد ذكر هذه الممالك في رسائل تلّ العمارنة · وكان البابليُّون والميتانيُّون يزاولون صناعة المعادن وخصوصاً صيغة الجواهر الكريمة ثمَّ يبيعونها للفينيقيين والفينيقيُّون ينقلونها الى الامصار البعيدة · وكان تجار فينيقية يعاملون ايضاً الحثيين في آسيَّة الصغرى ويرحلون الى عيلام اي بلاد فارس · ولا غروَ فانهُ يستدلّ من الكتابات الاشوريَّة التي سبقت عهد رسائل تلّ العمارنة ان العيلاميين غزوا بلاد فينيقية فتكون الصلات بين الأُمّتين نشأت مذ ذاك الحين

اما الجهات الجنوبيَّة فكان الفينيقيُّون اعلم بها من غيرها فكانوا يُبحرون بلا انقطاع الى القطر المصري تارةً ليدفعوا الجزية للفرعون وأُخرى لمصالحهم الخاصّة فيبيعون سلعهم ويستبدلونها بذهب مصر الشهير الذي ورد عنهُ في رسائل تلّ العمارنة « انهُ كتراب الارض كثرةً » · والمظنون ان المصريين كانوا جلبوا هذا

---

(١) ذكر هذه البلاد وارد في ما يأتي والآراء متضاربة في تعينها

الذهب من بلاد النوبة التي غزوها واستولوا على معادنها

ثم ان تاريخ الازمنة التابعة يشهد على ان سليمان الحكيم وفراعنة مصر في عهده كانوا يستخدمون الفينيقيين لمتاجراتهم وعندنا ان الامر كان كذلك في القرن الخامس عشر والرابع عشر قبل المسيح . وان الفينيقيين لم يجهلوا جنوبيّ جزيرة الهند

وامّا اسفار الفينيقيين الى شمالي غربي البحر المتوسط فلا ذكر لها في مكاتبات تلّ العمارنة . وانما ورد فيها اسم بلاد « ألاسّيا » والمرجح انها توافق بلاد قرمانية الحاليّة او احد الاقطار الواقعة في شمالي سوريّة . ومن اوصافها انها كانت من البلاد الساحليّة . وما لا مراء فيهِ ان الفينيقيين كانوا يعرفون من ذلك العهد جزائر الارخبيل وسواحل آسيّة الصغرى وكانت قفولهم البريّة تتردد الى هذا القطر للمتاجرة

*

فمما تقدّم يلوح للقرّاء ان فينيقية كانت بلغت في القرن الرابع عشر قبل المسيح مقاماً عالياً من حيث تجارتها الواسعة وثروتها الوافرة . وكانت المعادن الثمينة كالذهب والفضّة تُصاغ في جبيل فتجديها ارباحاً كثيرة يدلّ على ذلك كتاب حرّره واليها ريب ادّى السابق ذكرهُ . وكذلك كانت الزراعة والفلاحة في حالٍ زاهٍ رائع . وكان الزيت والخمر من جملة ما يقدّمهُ الفينيقيّون لملوك مصر لاداء الجزية . ولعل الخمر اللبناني اشتهر من ذاك الحين قبل ما يذكرهُ هوشع النبيّ في سفر نبوّتهِ ١٤ : ٨ . وقد ذكرت ايضاً رسائلنا « الاشجار الكبيرة » التي وهبها ازيرو احد امراء الشام ولمّا كان هذا يملك على قسم من شمالي لبنان فعلى ظننا ان الاشجار الكبيرة المذكورة انما المراد بها شجر الارز . وهذا يصحّ ايضاً عن جبال بيروت وجبيل التي منها قُطعت اخشاب هيكل اورشليم في زمن حيرام وسليمان .

وممّا يدل على عمران بلادنا في ذلك العهد ذكر العجلات الحربيّة . لانّ وجود العجلات ينبئ بوجود طرق موثورة وفي توثير الطرق ما لا يخفى من الرقي لان ذلك لا يخلو من الصعوبة في جبال كجبال لبنان (١

---

(١) راجع ما كتبناهُ في هذا الصدد في اثناء كلامنا عن السكك الرومانية في لبنان

وقد جاء في رسالة لاحد ولاة بيروت اسمهُ أُمونّيرا ما تعريبهُ : «لمَّا ورد امر سيدي وشمسي عليَّ انا عبدهُ وتراب قدميهِ . قائلًا لي اذهب الى مساعدة انصار سيدك الملك للحال اطعتُ امرهُ وهاءنذا لاحق باصحاب سيدي الملك مع خيلي وعجلاتي وكل مالي» . ولهذا الكاتب رسالة اخرى يذكر فيها عجلاتهِ الحربيَّة وما بينهُ وبين ريب ادَّى من الصلات الودّية (١)

هذا ولا تكاد رسائل ريب ادَّى العديدة تخلو من ذكر الحرب التي اصلاها عليهِ «عبد الشرى وابنهُ ازيرو صاحبا اموريّ الشديدان» ويؤخذ من سياق كلامهِ انَّ سلطتهُ كانت تمتدّ على ساحل جبيل الى طرابلس او مصبّ نهر الكبير شمالًا والى نهر الكلب جنوباً مع ما يجاور هذا الساحل من لبنان . امَّا والي بيروت أُمونيرا فكان نهر الكلب يحدُّ ولايتهُ شمالًا

ومن تصفَّح رسائل ريب ادَّى ادرك انهُ كان قليل البخت لم تسعدهُ الايام . ومن المبكيات المضحكات ما كتبهُ اليهِ احد عمَّال مصر بسبب قطيع من الحمير كان الفرعون عهد اليهِ بحراستهِ بقرب مصب نهر الكبير في بلدة سميرة:

> «. . . عمَّ الطاعون بلدة سمَرّي فامات الرجال واهلك الحمير . . ويلًا لك من كان يناظر الحمير ان انت لم تهتمَّ بها . . تقول ان الحمير وحرَّاسها قد أُصيبوا بالطاعون وان مواشي سيدي الملك قد هلكت فاذن يُقتضى عليك ان تطلب غيرها للملك . .»

فهذه الرسالة تفيدنا بان فراعنة مصر كانوا اتّخذوا لهم وسطاء من جلدتهم يناظرون ولاة المدن وامراء البلاد ويوقفون الملك على احوالهم وكان هؤلاء المناظرون يبلّغون مرؤوسيهم اوامر الفرعون . وربما لاموهم عن اعمالهم كما رأيت او دافعوا عنهم في وقت الحاجة او اصلحوا ما حدث من الخصام بين اصحاب مدينة وجارتها

ودونك كتاباً آخر من ريب ادَّى لبعض المناظرين المصريين اسمهُ امانپًّا يعرض لهُ فيهِ تشكياتهِ من اخصامهِ :

> الى امانپًّا ابي الصغير من ولدهِ ريب ادى . اني انطرح على اقدام ابي الصغير . ثمّ أسألهُ

---

١) الَّا ان هذه العلائق الودّيَّة لم تدُم زمناً طويلًا كما سترى وقد مرَّ ان سفن بيروت استولت على سفن جبيل

ثانيةً : ألا تستطيع ان تنقذني من ايدي عبد الشرى . . . لا يبالي بامري احد من ولاة المدن ولعلَّهم جميعًا متَّفقون معهُ ولذلك قد استفحل امرهُ . امَّا انت فاجبتَني : أرسل في صحبتي ساعيًا الى بلاط الملك فان رضي الملك اعدتُّهُ اليك مع الجنود ليدافعوا عن حياتك . فكان جوابي : اني لا اتأخر عن ارسال الساعي ولكن ليبقَ ذلك سرًّا لا يعلم بهِ عبد الشرى لان يَنهامون (وهو ناظرٌ آخر كان لملك مصر) قد ارتشى . فأجبتَ : أرسل سفينة الى ياريمُنْتا فيأتيك منهُ فضَّة وحُلل . . . ويلاهُ من يخلّصني فاذا لم تسرع الجنود الى نجاتي سأترك المدينة وانجو بنفسي »

وفي رسائل اخرى يطلب حينًا اربعة رجال وعشرين عجلة وحينًا اربعين جنديًّا (١ . . . وتارةً مئتين من المشاة وفئة من الخيَّالة . الَّا ان الناظر المصريّ لم يجب الى طلبة ريب ادَّى ولم يُبالِ بامرهِ وعليهِ فلم يزل عدوّهُ يغزو ايالتهُ وتتقوَّى شوكتهُ حتَّى ضبط كل النواحي المجاورة لبلاد جبيل ولم يترك لصاحبها غير مدينته . والعدوّ المذكور هو ازيرو وكان مالكًا على البلاد الواقعة شماليّ دمشق وعلى قسم من وادي العاصي اي البلاد المتوسطة بين بعلبك وبحيرة حمص فطمع في املاك جاره صاحب جبيل واخذ منهُ ما اخذ في بقعة طرابلس وجبل عكَّار ولبنان

ثمَّ تفاقم الامر حتَّى بلغ مسامع ملك مصر . وفي رسائل تلّ العمارنة ما يُشعر بغضب الملك على ازيرو لتعدّيهِ حدود ولايتهِ . الَّا ان ازيرو المذكور كتب الى الفرعون ليزكّي نفسهُ ويلقي تبعة الامر على صاحب جبيل . وكتابهُ غريبٌ في بابهِ احببنا ان نثبتهُ هنا :

« الى الملك العظيم سيدي وإلهي وشمسي من ازيرو عبدهِ اني اقبّل الارض امامك سبع مرَّات . . . اعلم سيدي اني انا عبدك متعفر في التراب امامك ملكي ومولاي . ثم اني اتجاسر واقول لعزَّتك لا تُعرْ سمعك الى الاعداء الذين رموني عندك بالزور والبهتان فاني عبدك الخاضع الى الابد »

لكنَّ الفرعون لم يرضَ بقول ازيرو واستدعاه الى مجلسهِ ليدافع امام الملك عن نفسهِ . والظاهر انهُ سُجن في مصر ومات في حبسه

اما ريب ادَّى فلا نعلم عن وفاتهِ شيئًا . وغاية ما يُستفاد عنهُ من رسائل تل العمارنة انَّهُ عمَّر زمنًا طويلًا وانَّهُ تولَّى على جبيل في ايَّام امينوفيس الثالث وابنه

---

١) وفي الاصل يطلب الكاتب ان يكون عشرون منهم مصريين وعشرون من بلاد « ميلوخا » وميلوخا هذه مقاطعة واقعة عند تخوم مصر والشام

امينوفيس الرابع . وفي رسائلهِ دلائل على انهُ كان يطلب خير رعيتهِ وانهُ كان متعبدًا لعشتروت « بعلة جبيل (۱ » يذكر اسمها في مقدّمة اكثر رسائلهِ . ويلوح ايضاً من كتاباتهِ هذه انّ اسرتهُ كانت مالكة على جُبيل وضواحيها منذ قديم الزمن لانهُ يشكو الى فرعون مصر امرهُ ويقابل حالهُ السيئة بحسن حال اجداده فيقول : « ان الملك كان سابقاً يُرسل الى اجدادي دراهم وغير ذلك ممّا كانوا يحتاجون اليه وكان يسيّر لهم جنودًا امّا انا فارسلت الى سيدي الملك ساعياً ليساعدني ببعثة من الجند فلم يرسل اليّ احدًا »

فمما سبق يتضح لقرّائنا ما تتضمّنهُ مكاتبات تلّ العمارنة من اخبار لبنان وسواحل الشام . لكنّ اهميّتها الكبرى مبنيّة على قدمها لانها كُتبت قبل موسى الكليم وقبل سفر التوراة وفيها عدّة تفاصيل تثبت صحّة اقوال الكتاب . ومنها ايضاً يتبيّن ما في درس اللغتين المصريّة والبابليّة من الجدوى للعلوم التاريخيّة . وفي ما اكتشفهُ المستشرقون منها حتى الآن ضمين عن فوائد اكتشافات المستقبل ان شاء الله (۲

۲۰ كنائس لبنان القديمة

نخال قرّاءنا قد اشتاقوا الى مطالعة وصف الكنائس القديمة في لبنان بعد ما كرّرنا ذكرها في فصولنا السابقة . وليس مرادنا ان نستوفي الكلام في هذا البحث لأننا لسوء الحظّ لم نتمكّن من زيارة كل كنائس لبنان القديمة . ثم انّ كثيرًا من هذه البيَع قد خربت في مدّة هذه السنين الاخيرة او ذهب عنها رونقها القديم وذلك لغيرةٍ محمودة في اهل لبنان حملتهم على تجديد بناء كنائسهم او ترميمها لولا انهم حرمونا من بعض الآثار الجليلة الناطقة عن احوال سلفائهم الافاضل وعليهِ فقد

---

۱) راجع فصلنا السابق عن الديانة الفينيقية في لبنان

۲) ان اردت كلاماً مطوّلاً عن مراسلات تل العمارنة فراجع مقالات مسهبة كتبها الاب ديلاتر . ومن جملتها نبذة افرنسيّة دعاها : « اكتشاف تلّ العمارنة » . ثم اردفها بمقالة اخرى وسمها « بكتابات تلّ العمارنة » . وللمستشرق الشهير هالڤي (J. Halévy » مقالات في الموضوع نفسهِ في المجلّة الاسيويّة الفرنسويّة (J. A. 8e série, XVI-XX)

اسرعنا الى كتابة هذه المقالة قبل ان تمتدّ يدُ الخراب الى الكنائس الاخرى العهيدة · وغايتنا من هذه النبذة ان نبيّن للقرّاء اجمالًا ما اتّصفت بهِ هذه البنايات المقدّسة وما هي خواصّها التي تفرّدت بها في لبنان

لا مشاحّة في انّ لبنان يتفاخر على غيره من الاصقاع بوفرة كنائسهِ · فانك لا تكاد تدخل قريةً منهُ بل مزرعة من مزارعهِ دون ان تلقى لها كنيستها ولعلّك تجد في القرية الواحدة اللهمّ اذا كانت متوسطة في الكبر كنيستين واكثر

واغلب هذه الكنائس لا يرتقي عهدها الى ما فوق المئتي سنة تراها في هندستها اشبه ببيوت القرى لا تختلف عنها الّا بسعتها · فانها على هيئة مكعَّب مستطيل مبنيّة بالحجارة والملاط لها على جوانبها ابواب ونوافذ · وفوقها سطحٌ ترى على احدى حافاتهِ قبّةً للجرس لا تظهر بينهُ وبين الكنيسة علاقة هندسيّة · وقد استُبدل السطح منذ عهدٍ قريب بسقفٍ مغطًّى بالآجرّ الاحمر فزادت بذلك الكنائس بُعدًا عن هيئة المعابد الدينيّة · وان سألتَ هل لهذه الابنية طرزٌ هندسيّ اجبنا أنّنا نجهل ذلك ولعلّ بُناتَها انفسهم لم يدروا ايَّ طريقةٍ هندسيّة جروا عليها في هذه العمارات

لكنّ الامر لم يكن كذلك في سالف الاعصار · ولو بحثنا لوجدنا لاهل لبنان في القرون الغابرة طريقةً هندسيّة في بناء كنائسهم كنّا نودّ لو يحييها المهندسون المحدثون في المعابد التي يشرعون بتشييدها او يستجدّون بناءها

فتُرى اين نجد امثلةً لهذه الابنية العتيقة ؟ أفي جنوبيّ لبنان او مقاطعة المتن ؟ كلّا لانّ الموارنة لم يدخلوا هذه الاصقاع منذ زمن مديد · ونزيد على ذلك انّ دخولهم في نفس كسروان ليس بقديم كما بيّنّا الامر سابقًا في المشرق في نبذتنا عن فرا غريفون (المشرق ١ : ٥٦) ثمّ في ردّنا على مقالة « لاحد العلماء » أُدرجت في الروضة · وعندنا انّ الموارنة لم يتوطّنوا كسروان قبل القرن السادس عشر وهو قول يمكن تأييدهُ بأدلّة عديدة لعلّنا نذكرها في مطاوي مباحثنا هذه عن آثار لبنان · وحسبنا اليوم ان نقول انّهُ لا يوجد بين اديرة كسروان العديدة ديرٌ واحد يسبق عهدهُ القرن السابع عشر [١] وكذلك لم نطّلع في تواريخ الموارنة على ذكر رجل من

---

[١] راجع كتاب الخوري منصور طنوس الخوري في المقاطعة الكسروانية ص ٢٨ ·

مشاهيرهم اصلهُ من كسروان قبل القرن السادس عشر · واذا جاء ذكر الموارنة في تآليف الصليبيين فلا نراهم يذكرونهم الّا في البلاد الواقعة بين طرابلس وجبيل اما جنوبي نهر ابراهيم فلا نرى لهم فيهِ اثرًا · وكذا قل عن اديرتهم القديمة وكنائسهم فانها كلها في شمالي نهر ابراهيم كما انَّ اصل قدماء بطاركتهم واساقفتهم من البلاد نفسها

فيتضح من هذه الحقيقة امران : الاوَّل انَّ لآثار كسروان اليونانيَّة الرومانيَّة شأنًا اعظم من آثارهِ المارونيَّة · والثاني ان من يطلب امثلةً تطلعهُ على هندسة الموارنة القديمة لكنائسهم الاجدر بهِ ان يطلبها خارجًا عن كسروان

وفي واقع الحال اذا اجتزنا نهر ابراهيم وتوغَّلنا في بلاد جبيل وجدنا عددًا وافرًا من هذه الكنائس وهذا العدد يزيد على قدر مسيرنا الى الشمال · ولا غروَ لان هذه الاصقاع هي مهد الأمَّة المارونيَّة وموطنها الاول درجت منهُ فامتدَّت في انحاء لبنان فجهات سوريَّة فأقطار المشرق حتى بلغ ابناؤُها في عهدنا بلاد الغرب ودخلوا العالم الجديد · فان وُجد شيءٌ من آثار ابنيتها الدينيَّة القديمة فهي عند مركزها الاوَّل وفي محلّ عزّها

*

قد اجمع علماء العاديَّات ان لهندسة الكنائس المسيحيَّة منذ بدء النصرانيَّة خواصّ مشتركة تشمل كل البلاد إن غربيَّة وإن شرقيَّة مع ما يُرى فيها من الاختلافات الطارئة عليها بسبب تقلُّب الاحوال ودواعي الظروف · ومن هذه الخواصّ تقسيم الكنائس المسيحيَّة سالفًا الى ثلاثة اقسام الحنيَّة او المحراب (abside) ثم السوق (nef) ثم الرواق او الدهليز (portique) · وبيَع الموارنة القديمة لا تشذُّ في ذلك عن غيرها من معابد المسيحيين العهيدة

فاذا اعتبرنا اوَّلًا هيئة الحنيَّة وجدناها شبيهةً بالحنايا اليونانيَّة اي انها مجوَّفة في الداخل ناتئة في الخارج على شكلٍ مستدير كما ترى في كنائس اهدن وكفرحيّ ومار نهرا وسيّدة سمر جبيل ومار ضومط في تولا ومار الياس (كنيسة واقعة بين

وتاريخ الموارنة للدويهي ص ٢٠٣

تولا وعبدلّه) ومسرح وبجديدات وادّه (في بلاد البترون) وادّه (في بلاد جبيل) وفي جوار ادّه هذه عدّة معابد وبيع بُنيت على هذا المثال

هذا ولم ننظم داعل في سلك القرى المذكورة مع ان كنيستها المتهدّمة ذات حنيَّة ظاهرة الى عهدنا · لاننا نظنّ ان هذه الكنيسة كانت في الاصل هيكلًا للاصنام ثم حوّلها الاهلون الى معبدٍ مسيحي على اسم القديس تادروس الشهيد · وبين رَدْمها جدران ماثلة حسنة البناء فيها آثار خطوط كوفية مطموسة · وترى مثل هذه الخطوط في حلتا في كنيسة السيدة القديمة · وكنيسة داعل المذكورة يزورها المتاولة ويكرمونها ولهم عند اطلالها سنديانة كبرى لا يمسّها احد

ولو أردنا ان نسرد اسماء كل الكنائس القديمة المارونية التي جُعل لها حنيَّة مستديرة لطال بنا الكلام · ولعلّ المشكاة التي يجعلها الموارنة وراء المذبح الكبير مثال صغير لهذه الحنايا القديمة اتخذوها كذكر لها · ولا ريب ان الموارنة اهملوا بناء الحنايا في كنائسهم يوم اخذوا يتقرَّبون في مناسكهم وطقوسهم من الكنيسة اللاتينية (١ ويقتدون بها في شؤون كثيرة · كما لحظ ذلك مرارًا مؤرّخو الموارنة انفسهم (٢

هذا وقد اسفنا على ان البُناة الذين سعوا في ترميم بعض الكنائس القديمة هدموا الحنايا السابقة او غيّروا صورتها ما امكن · فترى مثلًا الحنايا الثلاث التي كانت في كنيسة مار دانيال في حدث الجبَّة قد باد اثرها تماماً

ومن خواصّ البيع المارونية القديمة قببُها · ومما استحسنَّاهُ من هذا القبيل قبَّة كنيسة مار الياس بين عبدلّه وتولا وهي تشبه قبة كنيسة جُبَيل · بيدَ ان هذه الكنيسة مهملةٌ يتنازع ملكها اهل القريتين

والكثيرِ من الكنائس دهليز او رواق مقبَّب الشكل كما ترى في كنيسة كفرحي وفي كنيستي بجديدات اعني مار نيقولا ومار تادروس وفي كنائس مار يوحنا المعمدان في ادّه (جبيل) ورشكيدا ومسرح

---

١) ومذ ذاك العهد ايضاً ترك الموارنة بعض العادات الجارية عند اليونان وباقي الطوائف الشرقيَّة · ولعلَّهم تخيَّلوا انّ بناء الحنايا من الابنية المخصوصة بالروم

٢) راجع مقدَّمة كتاب الدويهي المعنون بمنارة الاقداس (ص ٧)

هذه السمات الثلاث اي الحنيَّة والقبَّة والرواق هي التي تعمُّ كنائس الموارنة قديماً اللهمَّ الَّا الدهليز فاننا لم نجدهُ في قسم منها

*

هلمَّ نعتبر الان ما اختصَّت بهِ بعض هذه الكنائس دون غيرها . فمن ذلك ان بعضها كان ذا ثلاثة اسواق كبيعة جبيل وان اعترض علينا احد بان هذه الكنيسة من بناء الصليبيين فلا علاقة لها مع كنائس الموارنة أَحلناهُ الى مثل كنائس أُخرى بُنيت في وسط المقاطعات المارونيَّة كبيعة معاد ورشكيدا ومار جرجس في اهدن

فكنيسة معاد من اجمل كنائس لبنان بناءً وهندسةً لولا انَّ مُرمّميها لم يعرفوا قدر الآثار القديمة فانهم لم يحسنوا إصلاحها وطمسوا كثيرًا من محاسنها وازالوا حنيَّتها ومحقوا نقوشها البديعة وكان لهذه الكنيسة ثلاثة اسواق غير انها اقصر من كنيسة جبيل ودونها في العلوّ . ولعَمَدها رؤوس اكلَّة من الطرزين الهندسيَّين الاقدَمين اي الطرز الايوني (ionien) والدوري (dorique) . اصلها من بقايا هيكلٍ قديم مع آثار أُخرى راجع ما كتبناه عن معاد (ص ٧١) . وفي الكنيسة المذكورة قبور ترتقي الى متوسَّط القرون . وبازاء معاد قرية تدعى صغار لها كنيسة ذات سوقين في اعلاهما حنيَّتان

اما كنيسة رشكيدا فتستحقُّ ذكرًا خصوصيًا لقلَّة شهرتها . والحقُّ يقال ان الدهش اخذ منَّا مأخذهُ لما صادفنا هذا المعبد الجميل في مزرعةٍ حقيرةٍ مجهولة يسكنها المتاولة على مسافة عشر دقائق من عبرين

فلكنيسة رشكيدا رواقٌ واسع كانت سعتهُ في سالف العهد اعظم منها اليوم . والمكان باسم القديس جاورجيوس الشهيد لهُ ثلاثة اسواق مثل كنيسة معاد والسوق الاوسط ينتهي بحنيَّة وراءها قبَّة كبيرة او بالاحرى ثلاث حنايا يندهش لمرآها الناظر . فطلبنا لهذه الصورة الهندسيَّة الغريبة شرحاً يكشف لنا سرَّها المكنون فغلب ظنُّنا ان الكنيسة كانت سابقاً اكبر منها اليوم فرممها البُناة واقتصروا منها على هذا القسم الباقي . ولاثبات هذا الظنّ ادلَّةٌ تتبادر الى ذهن

زائرها ولولا خوف الاطالة لعرضناها هنا . ونكتفي اليوم بأنَّا عرَّفنا القراء بوجود هذه التحفة الهندسيَّة وسنلمح اليها في مطاوي الكلام غير مرةٍ (١

ومن الكنائس القديمة الجديرة بالاعتبار كنيسة حدتون كان بقي منها بعض الاخربة قبل سنين قليلة . فلما بُنيت البيعة الجديدة تضعضعت تلك البقايا دون ان يمكنَّا آنئذٍ زيارتها . ولرينان في وصفها فقرةٌ موجزةٌ اثبتها في بعثتهِ الفينيقيَّة (ص ٢٥٥) فزاد بمطالعتها أسفُنا على فقد هذا الاثر البهيج . وكان في هذه الكنيسة عمودان تزينهما الكتابات القديمة التي رسمها رينان رسماً لا يكاد يُستخلص منهُ معنًى . وكلُّ هذه الآثار من عَمَد وجدران قد طُمست وقت البناية الجديدة

وقد تفضَّل حضرة الخوري نعمةالله نصَّار فارسل الينا كتاباً ضمَّنهُ عدَّة افادات عن هذه الكنيسة الجميلة فقال في وصفها « انها كانت ذات أسواق وفيها سبعة ابواب ثلاثة لجهة الغرب ضمن دهليز مُتقن وبابٌ لجهة الجنوب ولهُ ايضاً دهليز خاصّ وباب للشمال ضمن دهليز طبيعي منقور في الصخر وبابان على جانبي الحنيَّة وهي كانت غاية في الحسن تقوم على ذاتها ووراءها المَوْفه (السكرستيَّا) فُتح لهُ نافذةٌ جنوبيَّة . وكان لهذه الكنيسة اربع قناطر رفيعة اثنتان للجانب الايمن واثنتان للأيسر يتعلَّق طرف الواحدة بجانب الحنيَّة وطرف الاخرى بالحائط الغربيّ »

فهذه التفاصيل تنبئنا بأنَّ كنيسة حدتون لم تُشبه غيرها من الكنائس السابق ذكرها وهي كلها مقبَّبة ذات بابٍ واحد ليس الَّا . اما العواميد التي كانت في داخلها فنرجّح انَّ اصلها من بناية قديمة كهيكل وثني او غير ذلك

وكان حضرة الاب نعمة الله سألنا في كتاباتهِ مرارًا ان ندلَّهُ على اسم اي قديس شيّدت هذه الكنيسة لانَّهُ تحفَّى في السؤال عن الامر لدى العامَّة وبحث عن تقليد الشيوخ فلم يفز بالمرام

---

١) زعم رينان في بعثة فينيقية ان في جدار هذه الكنيسة كتابة قديمة استدلّ عليها . وعندنا انَّ لا وجود لهذا الاثر لانَّ الاهلين يجهلونهُ مطلقاً

قلنا اننا نحن ايضاً بحثنا عن هذا في ما تيسَّر لنا من التآليف فلم نحظَ بالمقصود . ولعلَّ ذلك يمكن استخلاصهُ من كتابة يونانيَّة دلَّنا عليها اهل حدتون . وهذه الكتابة كانت مكتوبة على طوق من النحاس كانت تُناط بهِ ثُريًّا او ما شاكلها . ومضمون الكتابة ما تعريبهُ : « في عهد حنا كاهن مار الياس » يريد كنيسة مار الياس . فيترَّجح من هذا ان الكنيسة المذكورة كانت على اسم القديس اليَّا النبيّ لان لحدتون كنيسة أُخرى قديمة مخصصة بالعذراء الطاهرة وهي باقية الى اليوم

*

هذا وان سياق كلامنا عن رشكيدا ومعاد وحدتون قد بلغ بنا الى ان نبسط المقال عن النقوش التي كانت الكنائس المارونيَّة مزيَّنةً بها . ولا مراء ان تصاوير كنيسة معاد كانت بديعة جدًا كما ينبئ على ذلك ما بقي منها على جدرانها وقد ذهب اكثرها بترميم محراب الكنيسة . وممَّا افادني شيوخ القرية انهم لو ازالوا الردم الذي هناك لوجدوا امثالًا تصويريَّة حسنة من جملتها صورة مار يوحنَّا مارون وفي تاريخ الموارنة للدويهي ما يؤيد زعمهم قال (في حاشية الصفحة ٣٦٨) : « وفي حنايهما (يريد كنيستي معاد وبجديدات) مكتوب « ان الله صباؤوت » ومصوَّر على حيطانهما مار مارون ومار قبريان بالتيجان على رؤوسهما والدروع على اكتافهما » فياليت اصحاب الامر يتولَّون هذا العمل وينتزعون التصاوير من تحت الردم ولنا الامل انهم يلقون مع التصاوير كتابات قديمة بالخط الاسطرنجيليّ تفيدهم علماً عن اخبار قديسي الكنيسة المارونيّة . اما تصاوير كنيسة رشكيدا فقد باد اكثرها الَّا ما يراهُ الناظر في جهة المحراب وهي رؤوس متقنة التصوير تدلّ على ما كان ثمَّت من النقوش الجميلة

ومن الكنائس المزخوفة بالتصاوير كنيستان على اسم مار جرجس في اهدن وعبدلّه وكنيسة مار تادروس في بجديدات قد صبرَت على عوارض الزمان ولو اراد السكَّان لأَمكنهم ان يجددوها بعد ازالة الملاط الذي يحجب قسماً منها مع صيانتها عن الرطوبة . ومما يُرى في جدران مار تادروس صور الكروبيم يحملون بين ايديهم تسبحة التقديس (Trisagion) مكتوبة بحروف اسطرنجيليَّة ولبقية

تصاوير هذه الكنيسة كتابات سريانية تُعرف موضوعها واسماء الاشخاص المصورين فيها . فلا يخلو البحث عنها من الفائدة

وكنت ارغب كثيرًا في زيارة كنيسة مار سركيس المجاورة لشبطين لاني كنتُ قرأتُ في بعثة فينيقية لرينان (ص ٢٥١) ان هذه البيعة مجمَّلة بتصاوير بديعة ظنَّ انها ترتقي الى القرن السابع او الثامن تمثِل على زعمهِ السيد المسيح ورسلهُ الابرار وأردف انَّ وراء الهيكل قد بقي منها صوَر رؤوس جميلة . فزرتُ الكنيسة الَّا اني لم اجد لهذه التصاوير اثرًا البتَّة

وفي كفر شليان معبد صغير غريب الشكل نُقر في الصخر يدعى سيدة نايا (١ وقد تبيَّن لنا من فحصها انها كانت سابقًا مدفنًا ثمَّ جُعلت معبدًا (٢ . استدللنا على ذلك بصغر المعبد وهيئتهِ وارتفاعهِ فوق الحضيض بعدَّة اذرع . وترى في سقف هذا المعبد فوق مذبحهِ وعلى جناحَي الهيكل نقوش وتصاوير اسودَّ قسم منها بسناج السُرُج وهبوة البخور الذي يوقد امام صورة العذراء هنالك . وفي الزاوية القريبة من الباب صليب في تربيعهِ كتابة يونانيَّة مؤداها : « قد انتصر يسوع المسيح » . وعلى شمال الصليب صورة رامٍ بالقوس . وعلى يمينهِ وحش غريب لعلَّهم ارادوا بهِ الشيطان الرجيم فيكون المصوّر اشار بذلك الى انتصار المسيح على قوَّات الجحيم بصليبهِ

وقد ذكر الدويهي في تاريخهِ كنائس أُخر تزينها التصاوير القديمة لم يبقَ اليوم منها شيء . وما يزيدنا اسفًا على فقدها ان نقوش بعضها كانت مؤرخة كبيعة مار نهرا في اده من بلاد البترون فانَّ تاريخها كان يرتقي الى سنة ١٥٧٥ لليونان اي ١٢٦٣ للمسيح (راجع الدويهي ص ١١٢)

وان سأل سائل من اي طرز كانت النقوش والتصاوير التي سبق ذكرها اجبنا انَّها كانت كلها من الشكل البوزنطي فانَّ من يقابل بينها وبين النقوش

---

١) لعلَّ هذه اللفظة يونانيَّة الاصل « νεα » اي جديدة فيكون المعنى « السيدة الجديدة »

٢) وبقرب السراية المبنيَّة حديثًا في قرية اميون كنيسة مثل كنيسة كفر شليان على اسم القديسة مارينا كانت ايضًا مدفنًا ثم حُوّلت الى معبد

البوزنطيّة من حيث طريقة التصوير والالوان وهيئات الاشخاص لا يرى بين الطرزين اختلافاً يُذكر فيحكم بلا شكّ ان مصوّري هذه التصاوير اخذوا الفنّ عن البوزنطيين كما تلمّح الى ذلك الكتابة اليونانيّة التي في معبد كفرشليمان · امّا اصل هؤلاء المصوّرين فنظنُّ انهم كانوا من الشام كفى دليلًا على ذلك الخطوط السريانيّة المحدقة بالصور

وقد بقيت عادة الموارنة على نقش كنائسهم في لبنان زمناً طويلًا · اخبر الدويهي (ص ١٨١) في تاريخ سنة ١٥٨٧ ان الخوري انطون من بيت الجميّل بنى كنيسة مار عبدا في قرية بكفيّا وصوّرها على يد الشدياق الياس الحصروني وانفق عليها الف قبرسيّ ما عدا اكلاف اهل بكفيّا وغيرهم من المحسنين » · ولا بدع ان هذه التصاوير كانت محكمة الصنع لعظم المبلغ الذي صرفهُ باني الكنيسة

كذلك زيّن الحبر الجليل اسطفان الدويهي كنيسة قنّوبين بالتصاوير والنقوش · بقيت منها الى اليوم صورة العذراء ام الله ترى عند اقدامها بطاركة الموارنة جاثين امامها · بيد انّ هذا التصوير ليس بمتقن لكنّهُ يلوح من خلالهِ انّ صاحبهُ يحاول تقليد المصوّرين الفرنج

ويلحق بهذا الباب نقوش أُخرى كان الموارنة يحبّون ان يزيّنوا بها كنائسهم اعني الفسيفساء · فهذه العادة وان كانت شائعة في بلاد كثيرة كانت في بلاد الشام أشيع وأعمّ حسبنا ذكر الفسيفساء المكتشفة قبل ١٥ سنة في مادبا في متصرفيّة الكرك وقطر المؤابيين القديم قد نُقش فيها رسم بلاد فلسطين

وكذلك كان صحن كنائس كثيرة للموارنة مجمّلًا بالفسيفساء وقد وقفت على صحّة هذا الامر بنفسي في كنيسة القديس جاورجيوس في مسرح فانّ آثار هذه النقوش باقية حتى الان · وكان ايضاً لكنيسة كور التي هدمت منذ قريب ترصيع من الفسيفساء · افادنا الامر حضرة الابوين المرحوم الخوري بطرس ارسانيوس رئيس مدرسة مار يوحنا مارون والخوري بولس طعمه ومولد كليهما في هذه القرية

امّا كنيسة حدتون فقد افادنا عن فسيفسائها حضرة الاب نعمة الله بما يلي قال : وكانت الكنيسة مبلّطة بصغار الحجارة المنقوشة وكان اجمل هذه النقوش

في السكرستيّا ملوَّنة بالوان عديدة كالاحمر والاخضر والازرق والاصفر والسمانجونيّ الخ والحجرُ فيها لا يكبر قطعاً عن السنتيمتر المكعَّب . ويستدلّ على حسن رسومها واحكام صنعها من ذات تركيب الحصى . امَّا ارض الكنيسة فكانت مبلّطة بهذه الفسيفساء الّا انها اقلّ اتقاناً . منها ايضاً دهليز الخارج فانّ حجرهُ يكبر سنتيمترين »

هذا بعض ما تسنَّى لنا جمعهُ عن فسيفساء الكنائس في لبنان ولا شكّ ان بيعاً أُخرى قديمة كانت مزيَّنة بها

*

وممَّا قد اذهلنا في قرى عديدة من لبنان انَّا وجدنا في جانب كنائسها كنيسةً أُخرى لاصقة بها او قريبة منها بحيث تُضحي الكنيستان كبناية واحدة . مثال ذلك كنيسة مار يوحنَّا وكنيسة مار تادروس في اده (جبيل) . ومثلها كنيستا شامات وتولا الخ

ولكثير من كنائس لبنان في داخلها صهاريج (١ ونوافذ ضيقة مستطيلة في جدرانها بقرب مدخلها كما في تولا واده (البترون) . وترى في صغار في دار الخواجا انطون جرجس التي كانت كنيسةً قديمة صهريجاً في داخلها ومرامي في جدرانها ويستدلُّ بهذه الآثار الهندسيَّة على انَّ الاهلين كانوا في سالف الاعصار يتحصَّنون في الكنائس فتصير لهم الكنيسة شبه قلعةٍ لكثافة جدرانها ومتانة بنيانها فيشربون من مائها ويرمون القذائف من نوافذها

وفي هذه الكنائس أثر آخر يرتقي الى القرون المتوسطة وهو انهم كانوا يجعلون في جدرانها قطعاً من العواميد ظنًّا منهم انَّ البنيان يزيد بها شدَّةً . ونرى

---

١) وفي اماكن عديدة نرى الصهاريج خارج الكنيسة عند الدهليز مثلًا . ويحتمل انها تكون حُفرت ليُغتَسَل بمائها قبل مباشرة الاسرار. قال الدويهي في منارة الاقداس (ص٥٧) : «مذ انتشرت النصرانية اخذ ابناء الايمان يبنون الكنائس ويجرون امامها منابع الماء او يحفرون الابار ليستحمّ بها الداخلون . . . فقد رُسم على الكهنة في بدء النافور وآخره ان يغسلوا اناملهم طلباً للطهارة وتوقيرًا للاسرار »

مثل هذه العادة جارية عند العرب بي ابنيتهم القديمة لنا شواهد على ذلك في بعض انحاء قلعة جبيل . وتغلّبت عليهم هذه العادة حتى انهم كانوا اذا لم يجدوا عموداً يدخلونهُ في بنائهم ينحتون دائرةً ناتئــة في حجر كبير يمثلون بذلك صورة رأس عمود . كما ترى في قلعــة حلب وفي الباب الشرقي في دمشق الخ (١ . وقد جرى مهندِسو الكنائس المارونيَّة على هذه العادة فانَّ لكنيسة مار ضومط في تولا ولمار جرجس في عبدلِه ولكنيسة السيدة في سمر جبيل ولكنيسة رشكيدا مثل هــذه العواميد المتداخلة في بنيانها

*

ليست قبَّة الجرس في الكنائس الشرقيــة كما تُرى في الغرب . فانَّ الغربيين جعلوا هذه القبَّة كقسم معتبر من ابنيتهم الدينية فتراهــا مُدمجةً بالبنيان متَّصلةً بهِ اتصالًا غير منفصم بخلاف الشرقيين فانَّ قبَّــة الجرس عندهم من العوارض ليس بينها وبين كنائسهم رباط هندسيٌ ولو خلت هذه الكنائس منها لبقيت هندستها الاصلية بحسنها وهندامها . والبيع المارونية القديمة لا تشذُّ عن هذه القاعدة العمومية . فانَّ من يحدق بنظره اليها يرَ لوقتهِ انَّ قبَّــة الجرس من الملحقات التي زيدت على هذه الكنائس بعد بنائها . وادراك علَّة ذلك سهلٌ وهو انَّ الاجراس المعدنيَّــة حديثة العهد بين الموارنة لم يألفوا قرعها الَّا بعد مجيء الفرنج الى بلاد الشام (٢ . قال العلَّامــة الدويهي في تاريخ طائفتهِ (ص١٠٣) : «وفي سنة ١١١٢ اخذ الموارنة في الجبل يدقُّون النواقيس من النحاس بدل الخشب للصلاة»

ومن خواص لبنان كثرة كهوفهِ واغوارهِ التي تُرى في اكنافهِ . وقد اتخذ اهل لبنان الاوَّلون هذه المغاور كمساكن لهم احتلُّوها فعاشوا فيها في قديم الزمن (٣ ثمَّ ابتنى اللبنانيُّون لهم القرى وشادوا البيوت فبقيت هذه الكهوف خاليةً خاوية حتى

---

١) راجع بعثة فينيقية لرينان ص ١٥٩ و ٥٤٧ الَّا ان هذا الكاتب قد اساء بنسبتهِ ذلك الى الصليبيين

٢) راجع المشرق (١ : ٥٨)

٣) راجع مقالة الاب زمُّوفن في الطور الحجري في فينيقية (المشرق ١ : ٩٧)

انتشرت في هذه البلاد انوار النصرانية فلجأ اليها قوم من النسّاك انقطعوا فيها الى العبادة والتألّه وعاشوا ثمت عيشةً اشبه بعيشة الملائكة وجعلوا بتمادي الأيّام غيرانهم كنائس كان يقضي فيها السكّان المجاورون لهم فرائضهم الدينية · فمن ذلك الكهوف الواقعة في وادي قزحيّا وفي سيدة القطّين التي تُعرف اليوم باسم سيدة البزاز · وهي لا تبعد عن قرية صغار في وادٍ مُقفر فانّ هناك ديرًا صغيرًا ذا طبقات متعدّدة ملتصقة كلها في الجبل وللدير سورٌ حصين فيهِ منافذ ضيقة كان النساك القدماء يرصدون منها حركات العدو فيطردونهُ اذا ما فاجأهم · ولمعبد هذا الدير حنيّتان عاديّتان وكان العبّاد اذا جعلوا سكناهم في هذه الأغوار يتّخذون اكبرها لمناسكهم فيجعلونها بيعاً كسيدة قنّوبين وسيدة القطّين وقزحيا الخ

ومما يلحق بهذه الكنائس معبد كفر شليمان المنقور في الصخر وقد مرّ ذكرهُ · ومثلهُ معبد مار سركيس للاباء الكرمليين في بشراي · وكذا كنيسة مار بطرس في العاقورة فانّها كلّها منحوتة في الصخر (١ ولعلّها كانت مدفناً للموتى في الايام الغابرة (٢

*

وقد حان لنا الان بعد ما ذكرناه اجمالًا عن كنائس لبنان القديمة من حيث هندستها العموميّة وهيئتها الخارجة ان نبحث عن داخلها فنقف على صورتهِ واحوالهِ · ولنا في كتاب منارة الاقداس للحبر المفضال والكاتب البارع البطريرك اسطفان الدويهي دليل يرشدنا الى المقصود قال (راجع المنارة ١ : ١٠٣) : « قسم الآباء القديسون الهياكل الكبيرة الى ثلاثة اقسام اي قدس الاقداس وبيت القدس والدار وفقاً لعدد الاقانيم الثلاثة كما يتبيّن ذلك من كنائسنا القديمة مثل كنيسة القديس ماما في اهدن التي بُنيَت في سنة ٧٤٩ وكنيسة القديس سابا في بشرّاي سنة ١١١٢ وكنيسة القديس دوميط في تولا من بلاد البترون وكنيسة القديس شربيل في قرية معاد من بلاد جبيل وغيرها » · فلهذه الافادات شأن خطير لاسيما ان المؤلف ذكر تاريخ بعض

---

١) راجع الدويهي (ص ٢١٩)

٢) راجع بعثة فينيقية (ص ٢٠١)

هذه المعابد . ويا حبَّذا لو زاد في تعداد الكنائس القديمة التي لم يكُ بعدُ استولى عليها الخراب في عهد الدويهي

ولنقدمنَّ على تفاصيل كل قسم من اقسام الكنيسة . فالحنيَّة كما سبق القول كانت مجمَّلة بانواع النقوش والتصاوير التي افادنا الدويهي موضوعها (ص ١٠٤) قال : « وكان الآباء الاطهار يصوّرون الله الصباووت في حنايا الكنائس جالساً على عرش العظمة . ويمثِّلون وجوه الحيوانات الاربعة حول العرش مع الملائكة وقوفاً يقدّمون لهُ البخور والمصابيح المتلألئة حولهُ وذلك لكي يرفع الكاهن نظرهُ اليهِ جلَّ جلالهُ عندما يقدّم الطلبات في سرّ القداس الالهيّ »

وكان للموارنة في كنائسهم القديمة تنظيمات اخرى احببنا ذكرها لتتمَّة الفائدة منها توجيه الحنيَّة الى الشرق . وزاد الدويهي في المنارة (١٠٧:١) : « وأن يكون فوق الحنيَّة طاقة الى جهة الشرق لان الله ابو النور » لكن بعض الكنائس التي زرناها خاوٍ منها . ثم اردف البطريرك المذكور : « وأن يكون تحت الطاقة داخل الحنيَّة كرسيٌّ عالٍ في كنائس الاساقفة اشارةً الى عرش عظمتهِ . . . ويُنصب الكرسيّ في مكانٍ مرتفع لاجل تعليم حقائق الايمان . . . ويُجعل درج تحت كرسيّ الاسقف وتُقام حولهُ مجالس ومساطب متفاوتة لاجل جلوس الخوارنة والبرادطة (١ والقسوس . . . ومثلما اوجب الآباء ان تُبنى المذابح من الحجر للدلالة على استمرار الذبيحة ودوامها اوجبوا ان تُبنى الكراسي في الحنيَّة من الحجر ايضاً (٢ »

ومن الكنائس التي ترى فيها كلّ هذه الشروط مستوفاةً كنيسة مار جرجس في اهدن فانها كانت كنيسةً اسقفيَّة (٣ . هذا وانَّ نَصب كرسي الاسقف في الحنيَّة عادةٌ تفرّدت بها البيعة السريانية دون البيعتين اللاتينيَّة (٤ واليونانية كما اشار

---

١) جمع البردوط وهو زائر الكنائس . راجع المشرق (٢ : ٦٤٩)

٢) راجع منارة الاقداس (١ : ١٠٩-١١٤)

٣) المنارة (١ : ٣٩٨)

٤) اما في الاجيال الاولى فكانت الكنيسة اللاتينية توافق السريانيَّة في نصبها كرسي الاسقف في صدر الحنيَّة (راجع مارتيني قاموس العاديَّات المسيحيَّة ص ١٣٧)

الى ذلك العلّامة الدويهي

وفي قدس الاقداس ما عدا كراسي الاسقف والكهنة بيتُ القربان او تابوت الاسرار كما دعاه العلّامة الدويهي وهذا نصّ كلامهِ (ص ١٠١) : « ويحوي تابوت الاسرار اربعة امور اي جسد الربّ والميرون المقدَّس وزيت العماد وماء الدنح »

وهذه افادات أُخر عن المذبح المنصوب بازاء الاسقف ننقلها عنهُ ايضاً (ص١١٣) : « أمر الآباء المتقدّمون كما يتبيَّن في كنيسة مار سابا بمدينة بشراي وفي كنيسة السيدة بمدينة حلب وغيرهما أن يُنصب فوق المذبح في الهياكل الكبيرة قبَّة جميلة المنظر على اربعة اعمدة بأربع ستائر وفوق الزوايا الاربع اربعة تماثيل تشخِّص الملائكة او الحيوانات الاربعة التي مرَّ الكلام عليها ويُجعل فوق القبَّة تفَّاحة وفوق التفَّاحة صليب »

ولا بدَّ ان يكون المذبح من الحجر مربَّع الشكل « لأنَّهُ مائدة ويمتدُّ في الطول بين الجنوب والشمال اكثر من امتدادهِ في العرض بين الشرق والغرب لاجل وضع كتاب القداس وحُقَّة البخور والنوافير وغيرها »

ويُحتَم بان يُجعل امام المذبح درجة او اكثر لكي يرتفع عن الحضيض (الدويهي ١ : ١١٤ و ١٤٤) وينبغي ألَّا يكون « لاصقاً بالحائط قائماً بمعزل عنهُ »[1] على عكس ما نراهُ اليوم في كثير من الكنائس المارونيَّة . ومن المحتوم ايضاً « ان يجعل المذبح مجوَّفاً لاجل رفع الفضلات المقدسة (ص ١٤٤) وتُفتح كوَّة من جهة الشرق لاجل وضع الذخائر ورفعها عند الاقتضاء . وقد تُنصب اخيرًا مطهرة من جهة الجنوب بجانب بعض المذابح كما ترى في كنيسة ماري جرجس كرسي اهدن ليغسل بها الكهنة والرؤساء ايديهم في خدمة الاسرار » (ص ١٤٥)

وكان امام المذبح دربزين وهو بمثابة الايقونستاس في كنائس الروم وكان لهُ

---

[1] وجاءَ في كتاب التكريسات الذي عُني بنشره سابقاً الكاتب المرحوم رشيد الشرتوني (ص ١٩) : « يجب دائماً ان يكون المذبح الكبير قائماً بذاتهِ وحولهُ تصير الزياحات والرتب المرسومة من الاباء ولاجل ذلك امروا باقامة الحنيَّة حولهُ من جهة الشرق حتى لا يضايقهُ الحائط بتقدُّمهِ »

مثلهُ ثلاثة ابواب بيد انهُ كان يختلف عنهُ بامور . قال الدويهي إمام المؤرخين الموارنة : « اوجب آباؤنا الاطهار ان تكون ابواب الدربزين مفتوحة وجدرانهُ غير مسطومة بل مصنوعة بثقوب على مثال شبكة حتى يتمكَّن الجميع من مشاهدة الاسرار . ولكنَّهم امروا الشمامسة ان يسبلوا الاستار في اوقات معلومة اجلالًا للاسرار (ص١٣٥) »

فكان اذًا الايقونستاس عند الموارنة اشبه بمشبَّك ليس بناء مصمتاً كما في كنائس الروم . ولعلَّهُ كان « كالشعريَّة » التي تفصل بين الرجال والنساء في كثير من كنائس لبنان الَّا انهُ كان مُتقن الصُّنع . وقد شهدنا في كنيسة السيدة في حدتون قطعةً من هذا الدربزين القديم . ولا علم لنا أبقي منهُ في بعض الكنائس ام لا . امَّا في عهد الدويهي فكانت هذه الدرابزين شائعة كما اثبت ذلك في منارة الاقداس (ص ١٢٨)

بقي علينا ان نذكر القسم الثالث من الكنائس المارونية اعني دار الكنيسة او صحنها . فكانت هذه الدار خاليةً في دائرها من الكراسي التي ترى في الكنائس اليونانيَّة . وقد بيَّن الدويهي سبب ذلك قال (راجع منارة الاقداس ١ : ١٢١) : « اباؤنا اصحاب الكرسي الانطاكي اهملوا نَصب الكراسي واوجبوا على نفوسهم ان يصلُّوا وهم قيام كقول الرب : اذا قمتم للصلاة قولوا ابانا الذي في السماوات .. وقد اخبرتنا التواريخ عن تلاميذ ابينا المكرَّم القديس مارون أنَّهم قضوا كل حياتهم منتصبين على اقدامهم ليلًا ونهارًا (١ وانقسموا جوقين امام الباب الملوكيّ ... امَّا الكهنة والشمامسة فيستندون الى العكَّازات لمساعدة الجسد الضعيف ما خلا الرؤساء فانَّهم يجلسون على الكرسي للدرجة التي ارتفعوا اليها » وكان المؤمنون خصوصاً الضعفاء منهم يتخذون ايضاً العكَّازات كما روى ذلك الدويهي في محلّ آخر من

---

١) ورد في التاريخ انَّ صنفاً من النسَّاك فرضوا على نفوسهم تقشفاً ان يعيشوا طول حياتهم قياماً فدُعوا لذلك الرهبان المنتصبين (Stationnaires) راجع معجم اللاهوت الكاثوليكيّ (١ : ١١٤٠) . اشهرهم تلامذة مار مارون . (راجع تاودوريطوس : تاريخ الرهبان PP. GG. T. LXXXII,1419, 1431 ومن هؤلاء النسَّاك من جعل لهُ عمودًا فصعد عليهِ كالقديس سمعان العمودي وغيره

كتاب المنارة (١ : ٦٠ , ٦١)

وكانت الدار المذكورة تشتمل على « القراءات والمنابر واجران المعموديّة واجران الماء المبارك والمرائي وبيض النعام والنواقيس وما شاكل ذلك » اما ترتيب كل هذه الاشياء فكان على هذا النمط : تُقام اولًا قرّاءتان امام الدرابزين من ههنا وهناك لاجل تلاوة الصلاة الجامعة التي تصير ليلًا ونهارًا وعليهما تُتلى الكتب المقدّسة وميامر الاباء وسنكسارات الشهداء . (ثانياً) امّا المنابر التي تُنصب في الدار فبعضهم يقيمونها في اسفل البيعة وآخرون في وسطها والبعض في شمالي الدرابزين لتقرأ عليها الرسائل والاناجيل والوعظ وزياح الميرون والشهداء وامثالها . . . (ثالثاً) يوضع في الدار جرن المعموديّة . وكان يُنصب من قديم بخارج الكنيسة او في دهليزها لكي لا يدخل البيعة الّا من كان ابن النور . الّا انّهم ادخلوه الى الخزانة لانهُ هناك يُحفظ تابوت الرازات (اي الاسرار) كما ترى ذلك في هيكل مار سابا بمدينة بشراي (١ . ويُعلّق فوق الجرن تمثال حمامة دلالة على استقرار الروح القدس . ويُتّخذ الجرن من الحجر . (رابعاً) توضع في الدار اجران لاجل الماء الذي نباركهُ في الغطاس وفي تقديس البيعة وغيرهما . (خامساً) تعلّق في الدار المرائي المدوّرة وبيض النعام » . وهنا للدويهي بعض تفاسير رمزيّة نُحيل القرّاء الى مطالعتها في كتابهِ . ثم قال : « (سادساً) توضع النواقيس في الدار تنبيهاً للمؤمنين للاجتماع للصلاة »

يظهر ممّا سلف ان الشعب لم يجلس في الكنيسة على الكراسي وانهُ كان يحضر الاسرار منتصباً . لكنّ ذلك لم يصدّ المؤمنين عن الركوع . وللبطريرك العلّامة الدويهي فصل مطوّل (ص ٦١) يبحث فيهِ عن انواع السجود والركوع . على ان الجثو على الركب كان معتبراً كضرب من التعبد والاماتة وانما الانتصاب هو هيئة المصلّين الرسمية في الرتب الطقسيّة

وقصارى القول ان الكنائس المارونيّة كانت تتفق مع الكنائس اليونانية (او

---

١) وجاء في كتاب التكريسات (ص ٢٣) انهُ يُفتح حينئذٍ باب خارجيّ « حتى تدخل النساء وتخرج بالسترة »

بالاحرى مع اليونانيَّة واللاتينيــة معاً) في الخواص العموميَّة ولها مع ذلك فوارز تفصلها عمَّا سواها بحيث يحكم صاحب الخبرة اذا رأى ما سبق لنا وصفهُ من طرائق بناء البيع وانواع هندستها الخارجة وتنظيم اقسامها ونقوشها انَّ الموارنة في سالف الزمان هندسةً كنسيَّة خاصة بهم . وكنا وددنا لو لم يَحِدْ بناة الكنائس الحديثة لاسيما منذ مائتي سنة عن تقليد آبائهم القديم . وغاية مــا نتمنَّاه ان تُحفظ الآثار الباقية منها لئلَّا يستولي عليها الخراب . وهذا ما حملنا على كتابة هــذا الفصل في كنائس لبنان القديمة (١

وان سأَل السائل في اي عهد شاعت في لبنان هذه الطريقة الهندسية القديمة . أَجبنا انَّ الامر لا يخلو من الغموض والشبهة . وما يمكنَّا قولهُ ان اكثر هذه البيع شُيّدت قبــل القرن الثالث عشر . وكان بناء بعضها في ايام الصليبيين على مثال كنيسة جُبيل . وهذا رأينا في كنيسة مار شربل في معــاد وغيرها ايضاً من الكنائس كما رواه المؤَرخ المدقّق الدويهي حيث قال (ص١٠٣) : « وفي سنة ١١١٢ شرع بعض اهل البرّ يبنون كنائس ... وكان للخوري باسيل البشرّاني ثلاث بنات تقلا وصالومي ومريم نذرنَ العفَّة وانفقنَ جميع مــا يملكنَ على بناء الكنائس . اما تقلا فبنت في بقرقاشا هيكل مار جرجس ومار دومط . وفي بشنين من ارض الزاوية كنيستين احداهما على اسم القديس لابا الرسول (٢ والثانية على اسم القديس سركيس الشهيد ثمَّ رقــدت بالرب سنة ١١١٣ . اما اختها مريم فبنت هيكل القديس سابا في قرية بشرّاي . وصالومي انشأَت هيكل القديس دانيال في قرية الحدث »

ويرتقي بعض الكنائس اللبنانيَّة الى عهد اسبق فمنها ما بُني في القرن التاسع او الثامن ايضاً كبيعة كفر شليمان التي نعدُّها من اقدم كنائس لبنان . ومثلها كنيسة مار ماما في اهدن (راجع قول الدويهي فيها المندرج اعلاه ص٩٢) . وليس قولنا

---

١) وهنا نكرّر طلبنا الى قرَّائنا بان يفيدونا علماً عن الكنائس التي لم نذكرها في هذه المقالة ولا بأس ان يستدركوا علينا في ما يرونهُ مخلًّا لنصلحهُ

٢) القديس لابا او لبَّاوس ويدعى تدَّاوس معدود بين تلاميذ المسيح الاثنين والسبعين

هذا الّا اجماليًّا . ولو اطّلع احد المهندسين الخبيرين على هذه الابنية لامكنهُ ان يزيد ايضاحًا في تعيين زمن بنائها

*

هذا وننتهز هنا الفرصة لتكرار ما اثبتناهُ في السنة الاولى من المشرق (ص ٢٦١) في مقالة حُرّرت تحت عنوان : «هيّا بنا على درس تاريخنا» . فكان من جملة البنود التي اقترحناها على جمعيّة طلبنا انشاءها في كل طائفة (ص٢٨٣) «ان تعتني بالصور القديمة في الكنائس . . . وتهتمّ بحفظ هذه الكنائس نفسها»

فلم نرَ حتى الان تشكيل لجنةٍ تقوم بهذا المشروع ولعلّهُ لم يفتكر احدٌ في تأليف هذه الشركات الطائفيّة لتبرز الى حيز الوجود قسمًا من هذه المقترحات . امّا العلماء الاوربيُّون فانهم تلقّوا فكرنا في تنظيم مثل هذه الجمعيّات بما لا مزيد عليهِ من الرعاية والالتفات وحدا الامر باحد كبار المستشرقين الالمانيين وهو الدكتور ج . كمپفماير الذي ذكرناهُ غير مرّة في مجلّتنا الى ان كتب فصلًا في «نشرة الاداب الشرقية» (١ يستلفت فيه الانظار الى مقالتنا بل زاد على ذلك انهُ نقل الى الالمانيّة هذه النبذة وألحقها بملاحظات نورد منها شيئًا ليرى اهل بلادنا ما يبني الاوربيُّون من الآمال على تأليف جمعية كهذه . قال الدكتور ما تعريبهُ :

«لا حاجة ان نبيّن لقرّائنا ما ينجم من الفوائد الجمّة من تشكيل جمعية تاريخية في سوريّة كما وصفها الاب لامنس . بل يأخذنا العجب من عدم انشائها حتى الان لا سيما انّ بلاد الشام من الاقطار التي توفرت فيها الاثار التاريخيّة الدفينة التي يتوق الى كشفها العلماء . فنحن نوافق كاتب هذه المقالة في ما اقترحهُ من انشاء مكتبة مركزيّة في سوريّة لدرس تاريخ البلد وهذه المكتبة لا بُدَّ ان تُجعل فيها كل الكتب الادبية واللغوية والجغرافية التي تشتمل على احوال بلاد الشام وان يُلحق بها متحف للاثار الى غير ذلك من التنظيمات التي عدّدها صاحب مقالة المشرق

---

١) راجع Orientalistische Litteratur Zeitung (السنة الاولى ص ١٠٤

ولا نشكّ في ان الذين يبحثون عن شؤون البلاد الشامية يتهللون فرحاً اذا ما تحققت اماني حضرة الكاتب

« ونحن الاوربيُّون نبني آمالًا طيبة على تنظيم جمعية تاريخية يكون اعضاؤها شرقيين . لان ابناء الوطن يمكنهم ان ينالوا بزمن قليل ما لم ينلهُ الغرباء بعد الجهد الجهيد واذا تشكَّلت هذه الجمعية الوطنية بادرت الجمعيَّات الاوربية الى مكاتبتها فتقوى بذلك على اتمام مشروعات علمية ذات شأن خطير »

هذه شهادة اثبتناها ليرى القراء ما للعلماء الاجانب من الكلَف بامور الشرق . ويا ليتنا لا نتأخر عن تلبية دعوتهم فلا نخيب آمالهم فينا

وفي ختامنا هذه المقالة التي خصَّصناها بذكر الكنائس القديمة في لبنان كنَّا وددنا لو امكننا ان نوصي هذه الجمعيات التي نطلب انشاءها منذ سنتين بالمحافظة على هذه المعابد القديمة قبل ان يستولي عليها الخراب . وعلى كل حال اننا نوجه دعوتنا الى ذوي الامر طالبين اليهم ان يصونوا هذه الآثار ولا يدعوا يداً اثيمة تصيبها باذًى . واذا مسَّت الحاجة الى ترميمها فليصلحوا منها ما خرب مع مراعاة هندستها القديمة . فان هذه كانت وصيَّة المثلَّث الرحمات البطريرك بولس مسعد الذي كان حريصاً على حفظ تلك الآثار الناطقة بمفاخر ملَّتهِ في غابر الازمان . على اننا نقرُّ بكل سذاجة انَّ معظم خوفنا من البُناة المحدثين الذين يتخيَّلون ان هذه الابنية لا طائل تحتها فيخربونها لاتخاذ موادها او لتجديدها كما يزعمون وهذه الطامَّة الكبرى

فيا حبذا لو امكننا بما سطَّرناه في هذه المقالة عن كنائس لبنان ان نكف يد الدمار عن بقايا الزمن القديم فان اصبنا المرام لا نتأسف على الاتعاب التي تجشَّمناها لهذه الغاية الشريفة

٢١ دخول النصرانيَّة في لبنان

لهذا البحث علاقة طبيعيَّة مع بحثنا السابق عن كنائس لبنان القديمة فلا يسعنا الّا الخوض فيهِ هنا

روى رينان في كتاب بعثة فينيقية عن الموارنة انهم يدَّعون كون الوثنيَّة لم تشع في وطنهم مطلقاً وهذا افتراء في حقّ اهل لبنان الذين لم يذهبوا الى مثل هذا القول الباطل · وكيف يا ترى يزعم اللبنانيُّون بذلك وكل انحاء جبالهم تنطق بشيوع عبادة الاصنام في القرون الغابرة وفيهِ من آثار التوثُّن ما سبق وصفهُ في مقالاتنا

وما لا مريَّة فيهِ ان لبنان كبلاد الشام جمعاء كان يدين بالشرك بل بقي لعزلة موقعهِ ينوء تحت عبء الوثنية مدَّةً بعد ان ارسلت النصرانية اشعَّتها على سوريَّة اجمالًا وعلى فينيقية خصوصاً وكانت مدنها الساحليَّة على طريق دعاة الدين المسيحي فنالوا من انواره حظًّا وافيًا قبل سواهم

١ لبنان واول مبشِّريهِ

ارتأى بعض الكتبة ان المسيح وطئ ارض لبنان واستندوا في تأييد رأيهم على آيتَي متى (١٥ : ٢١) ومرقس (٧ : ٢٤) حيث ورد عن الرب لذكرهِ السجود انهُ ذهب الى تخوم صور وصيداء · غير ان هذا الموضع لا يصرّح بذكر الطريق التي سلكها المسيح وقد زادنا القديس مرقس في الفصل ذاتهِ ايضاحاً اذ قال (٧ : ٣١) : « انهُ خرج من تخوم صور ومرَّ في صيداء وجاء فيما بين المدن العشر الى بحر الجليل » · فان الطريق التي تؤدي توًّا من صيدا الى المدن العشر تمر في منعطف لبنان جنوبي شرقي صيداء فتبلغ النبطيَّة او جوارها عابرةً على نهر الليطاني عند الجسر المعروف اليوم بالقعقاعيَّة فتنتهي الى جنوبيّ شرقيّ بلاد بشارة · وهذه الطريق تسير عليها السابلة الى يومنا والطبيعة نفسها ترشد اليها · فلهذا الرأي كما ترى سندٌ ولا حرجَ على من يقول بهِ (١

وللكتبة المحدثين قول آخر او تقليد محليّ يزعمون بموجبهِ ان السيد المسيح لم

---

١) راجع المشرق (١١ : ٨١-٩٣) مقالة الاب الفرد دوران في رحلة المسيح الى فينيقية

يدخل فقط صيداء بل بلغ ايضًا حتى ثغر بيروت . والتقليد المذكور اثبتهُ في القرن الخامس عشر احد الزوّار الالمانيين يُدعى برَيْتنباخ (راجع المشرق ١ : ١٩١) . ثمَّ اوردهُ كوارزميوس في كتاب وصف الاراضي المقدسة (١ وذكره احد ادباء الالمان في مقالة طبعها سنة ١٦٩٢ عن بيروت وآثارها . ولعلّ هذين الاخيرين نقلا ما قالهُ برَيْتنباخ . وهذا التقليد على ما نظنّ ليس بثبت ولا نرى وجهًا لتوفيقهِ مع ما رواه الانجيليّون

لكنَّ الله منح بيروت نعمةً أُخرى يحقُّ لاهلها ان يفتخروا بها نريد احتلال القديس بطرس هامة الرسل في ربعها . وهو امرٌ يقبلهُ العقل ويؤَيده النقل . امَّا العقل فلأَنَّ بطرس الصفا انتقل غير مرَّة من اورشليم الى انطاكية فترتَّب عليه ان يجتاز في بيروت وهي اذ ذاك من اعظم مدن فينيقية شأنًا . امَّا النقل فلنا منهُ شهادة قديمة تُعزى الى تلميذ بطرس الرسول وخلفهِ في كرسيّهِ البابوي القديس اقليميس وردت في كتاب الابحاث والميامر (٢ . وهو تأليف قد اختلف العلماء في كاتبهِ الَّا انهم يتفقون على كونهِ سبق اوائل القرن الثالث

وفي الكتاب المومأ اليه فوائد أُخر عديدة عن تاريخ النصرانيَّة في فينيقية والانحاء المجاورة لمدنها الساحليَّة لكنَّنا لا ننقل عنهُ غير ما نراه راهنًا مقرَّرًا توافقهُ الشواهد القديمة (٣ . ومن ذلك ما جاء عن جبيل (٤ ان الرسول الهامة اقام لها اسقفًا حنا مرقس احد تلامذتهِ وكان المذكور ولد في اورشليم وهو نسيب للقديس برنابا (٥ وفي بيتهِ نزل بطرس الرسول لمَّا انقذه الرب من ايدي هيرودس (٦ . فسقَّفهُ على جُبيل كما تشهد على ذلك السنكسارات الشرقية اليونانيَّة والسريانيَّة المارونيّة فضلًا عن الكلندار

---

١) راجع كتابهُ Elucidatio Terræ Sanctæ

٢) طالع مجموع آباء اليونان لمين الجزء الاول والثاني

٣) وقد عدلنا عن ايراد هذه الامور ليس فقط لانَّ مؤلف كتاب الابحاث مشتبهٌ فيه بل لاسباب اخرى يؤدي بنا ذكرها الى الاطالة

٤) وقد ذكر عن بيروت ان القديس بطرس سام لها اسقفًا يُدعى كوارتس

٥) راجع رسالة القديس بولس الى اهل كولوسي (٤ : ١٠)

٦) اعمال الرسل (١٢ : ٢١)

الروماني الذي ذكر عيده في ٢٧ ايلول · والمؤرخون الاقدمون يوافقون في ذلك الآثار الطقسيَّة

فمن ثمَّ تكون اسقفية مرقس المذكور الاثر الاول لدخول النصرانيَّة في لبنان لان جبيل كما اشرنا الى ذلك سابقًا (ص ٦٠ و ٦٧) كانت مرتبطة بلبنان ارتباطًا غير منفصم بل كانت معدودة منهُ داخلةً فيهِ كما ترى في عهدنا · وبما انهـا كانت محاطة بعدَّة هياكل مقدَّسة تشرف عليها من الآكام والرُّبى المجاورة لا سيما هيكلي افقا والمشنقة (ص ٣٩—٤١ و ٤٩—٥١) فكان الفينيقيون يعدُّونها مثل كعبة دينهم يحجّون اليها من اقطار بعيدة فيتمّمون فيها مناسكهم الدينية التي باشروها في هياكل لبنان ويكرمون بزيارتها ادونيس والزهرة

هذا ولا نعلم ما نالهُ اول اساقفة جبيل من النجاح في تتمة رسالتهِ المقدَّسة · الا غروَ انهُ لقي في دعوتهِ عوائق شتى حالت دون رغائبهِ الخلاصيَّة · ومما لا يُنكر انَّ في ذلك الوقت عينهِ اذ بزغت شموس النصرانيَّـة في اقطارنا الشرقية صار للدين الوثني نهضة جديدة في لبنان فانَّ تاريخ بناء بعض هياكل الاصنام فيهِ يرتقي الى ذلك العهد كهيكل فقرا (ص ٥٣) وغيره · ولم تزل الوثنيَّة في عزّ وترقٍ في مطاوي القرن الثاني للمسيح وفي اوائل القرن الثالث

واشتدَّ ازر الدين الوثني في لبنان بملك الامبراطور الروماني ادريان الذي زار لبنان في بدء القرن الثاني وسكن مدَّةً جبيل · وكان هذا القيصر من عبَدة الزهرة يظهر لها التجلّة والاكرام وقد بنى لهـا في رومة معبدًا كبيرًا وادخل عبادتها في بيت لحم لماكسة النصرانية · ومن آثاره الباقية في لبنان الكتابات العديدة التي وصفها اصحاب العاديَّات وذكرناها في مقالاتنا المرَّة بعد المرَّة · ولا نشكّ انهُ حجّ الى معابد الزهرة وادونيس خصوصاً في افقا ودير القلعة [1] كما انهُ شيَّد بعض الهياكل ورمَّم غيرها لاسيما في جبيل وكانت تُعدّ في ايامهِ كاحدى حواضر المدن وامهاتها

وجرى خلفاء ادريان على سننهِ فعزَّزوا في لبنان الشرك والتوثُّن كيف لا وبعضهم

---

١) ولعلَّ النصب الذي وصفناهُ في المشرق (٢ : ١٢٢) قد اقيم حفاوةً بهِ لمَّا زار هذا المعبد

كانوا وُلدوا في لبنان او المدن الملاصقة لهُ نخصّ منهم بالذكر اسكندر ساويروس الذي كان مولده في هيكل الزهرة في عرقا ۰ ولذلك ترى كثيرًا من الآثار الدينية الفخيمة التي تزين لبنان حتى يومنا هذا قد شُيّدت في ذلك العهد ۰ منها هيكلا بعلبك وحصن سليمان في جبل النصيريّة اللذان تشهد على اصلهما كتب المؤرخين ۰ وفي لبنان مباني أخرى غيرها يُجهل تاريخها والارجح انها بُنيت في الوقت عينهِ لما فيها من الشبه مع ابنية ذلك العصر كحصن صافيري في الضنّية وناوس قرب كسبا وبزيزا في الكورة وغير ذلك ممّا سنورد ذكره في مقالاتنا

وهذه الغيرة التي نراها في عبدة الاوثان في اوائل النصرانيّة تدلّ دلالةً واضحة على انّ المشركين في لبنان أبوا الّا ان يدافعوا عن آلهتهم لئلّا تحطّهم ديانة المسيح عن مقامهم الرفيع الذي بلغوا اليهِ سابقًا

ولكن دعنا نستوفي اخبار النصرانيّة في لبنان في اواخر القرن الاول ۰ افادتنا التآليف المنسوبة الى القديس اقليميس انّ القديس بطرس احتلّ طرابلس واقام عليها اسقفًا يدعى مارون ۰ وهذا الامر ذو شأنٍ لا نرى في صحّتهِ التاريخية مشكلًا وان كان مدوّن هذا الخبر زاد فيهِ من الاوصاف الوهمية مــا لا يقبلهُ العلم الصادق ۰ ويسرّنا ان نرى في ذلك العهد اسقفًا جليلًا يتيمّن قراؤنا الموارنة باسمهِ وقد اشتهر في مدينة تطلّ عليها تلك الجبال التي صارت بعدئذٍ مهد طائفتهم العزيزة

ومن الآثار النصرانيــة التي ترتقي الى القرن الاول استشهاد القديس تادّاوس الذي روى عنهُ الرواة الاقدمون انهُ رُجم في بيروت لاجل الايمان وفي تعريف الشهيد المذكور رأيان مختلفان فزعم البعض انهُ احد تلامذة الرب السبعين وذهب غيرهم الى انهُ هو الرسول يهوذا او تدّاوس اخو يعقوب البــارّ ۰ ويصعب علينا جزم الامر لقلّة الادلّة ۰ وانمــا جاء في تاريخ البطريرك ساويرس (راجع المشرق ٣: ١٠٠٤) ان بيروت كانت تحتوي كنيسةً باسم القديس يهوذا اخي يعقوب البارّ في القرن السادس(١ وهذا لعمري اثرٌ حسن يشهد بقدم التقليد عن القديس يهوذا المذكور

(١ طالع Revue de l'Orient chrétien, *Opuscules maronites* 1899, p. 565

٢ نزاع النصرانيَّة والوثنيَّة

يحصَّل من فصلنا السابق ان لبنان لم يُحرم من نعمة النصرانية منذ القرن الاول من تاريخها . ولا جرم ان الدين المسيحي نما في القرنين التاليين . الا انَّ الآثار القديمة لا تكاد تفيدنا عن شؤونه شيئًا فنظن ان نموَّه كان بطيئًا لما تصدَّى لهُ من العوائق من قبل المشركين الذين كانوا اتخذوا هذا الجبل كمعقل لدينهم فبنوا فيهِ الهياكل العديدة وشيَّدوا الآثار الدينية فلقوا في اخلاق الجبليين وطباعهم الفظَّة ما قوَّى روح التعصّب بينهم . وعلاوة على ذلك نرى الشيع الوثنية ليس في الشام فقط بل في كل انحاء المعمور قد التجأت الى مشارف الجبال بعد ان دحرتها النصرانية في المدن العامرة وسفوح البلاد ولنا على ذلك شاهد في جبل برجيلوس المعروف في يومنا بجبل النصيرية فانَّ سكانهُ اصرّوا على وثنيّتهم الى القرن السادس مع انَّ هذا الجبل دون لبنان في علوّهِ واسهل منهُ مرتقى

وهذه الملاحظات العمومية عما لقيتهُ النصرانية في طريقها من العثرات يؤيدها التاريخ القديم الذي لم يذكر الدين المسيحي في لبنان الا نادرًا . وكذلك الآثار الكتابية فان الوثنية منها كثيرة امَّا النصرانية فهي قليلة جدًّا . فكل ذلك دليل واضح على ما نال ديانتنا المقدَّسة من المقاومات والمدافعات قبل ان ترسخ مبادئها القويمة في ارض لبنان حتى صارت في توالي الاعصار عصمةً للدين لا سيما بعد ان توطنت هذا الجبل الطائفة المارونية المعروفة بحماستها الدينية

وفي عهد الملك نومريان القيصر الروماني (٢٨٣—٢٨٤) تشرَّف لبنان بوفاة احد ابنائهِ شهيدًا وهو الطبيب طَليليوس (لعلهُ ܛܠܠܐ اي مظلَّل ومحميّ) وكان استشهاده في قيليقيا ومما ورد في ترجمة حياتهِ انهُ قال للحاكم لما طلب منهُ نسبهُ : « اني أُدعى طليليوس ومولدي في لبنان واسم ابي بريكوكيوس (لعلهُ ܒܪܝܟܐ اي مبارك) وهو نصراني وأحد ضباط الجيوش . وتدعى امي روميليانا واخي يوحنا هو شماس [1] » . فحكم الوالي على طليليوس بقطع الرأس بعد ان مثَّل بهِ واذاقهُ مرَّ النكال الَّا انَّ

---

[1] راجع اعمال القديسين البولنديين في ٢٠ ايَّار

الله عزّ وجلّ اشهر قداسة عبدهِ بما اجترحهُ من المعجزات الباهرة على قبرهِ حتى ذاع اسمهُ في اقاصي الشرق

ومن النص السابق يصحّ لنا ان نستنتج انّ النصرانية كانت اخذت في الامتداد في لبنان منذ اوائل القرن الثالث لاننا نرى العشائر فضلًا عن الافراد يدينون بدين المسيح . وكذلك وجود شمّاس في أُسرة لبنانية يدلُّنا على وجود الرتب الكنسيَّة وكلّ ذلك لا يقوم الّا بكنائس منتظمة . ثمّ ان اسماء المذكورين الّا واحدًا منهـا آراميَّة الاصل فذلك بيّنةٌ على ان لغة اللبنانيين لم تزل بعد آراميَّة اى سريانيَّة

ولا بدَّ هنا من ملاحظةٍ على موقع لبنان الذي ذكره الشهيد طليليوس فنقول انهُ لا يدلّ ضرورةً على لبناننا الحالي لانّ اسمهُ كان في ذلك العهد يشمل الجبـال الواقعة في شمالي نهر الكبير فإلّم نجـد في معرض قول الكتبة الاقدمين ما يزيل الشبهة يصعب علينا ان نستدلّ على جهتهِ المنويَّة

وفي سنة ٢١١ للمسيح زان الله باكليل الاستشهاد هامة فتاةٍ من عذارى جُبيل تُدعى اكويلينا فقصفها المغتصبون كغصن رطيب وليس لها من العمر سوى ١٢ سنة . وقد اخبر البولنديّون (في اعمال القديسين اليوم ١٣ من حزيران) ان نصارى المدينة جمعوا ذخائرها المقدَّسة فدفنوها بمزيد الاكرام ثمّ تعدّدت العجائب على قبرها . الّا ان عبادتها اليوم قد اندثرت فلم يبقَ لها ذكرٌ بين مواطنيهـا وهو امرٌ غريب لولا انّ التاريخ ينبئنا بنقل جسمها الطاهر الى القسطنطينية في القرون التابعة فاصابت هناك من تعبُّد الاهالين ما فقدتهُ في وطنها

وقد ارتأى الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخهِ المخطوط عن لبنان (ص ٢١٣١) ان ذكر الشهيدة اكويلينا قد امتزج في كرّ الاعصار باسم قديسة أُخرى تعرف بمَرْتينا التي يكرّمها اهل جبيل اكراماً عظيماً وفي جوار بلدتهم معبد شيَّدوه على اسمها يحجون اليهِ من كل أَوب والزوّار يأخذون من ترابهِ شيئاً فيتبرّكون بهِ . واكثر ما يأتيـهِ المؤمنون في ايام قطف دود القزّ

وتشرّفت ايضاً طرابلس في ذلك العصر بشهدائهـا منهم الشهيدان مغداليتيس (راجع البولنديين في ١٢ حزيران) ولوسيان او لوسيوس (راجع السنكسار الروماني في ٢٤ كانون الاول) . ولا نعرف من امر لوسيوس المذكور الا اسمهُ كما صرح بذلك

العلماء البولنديون . وعندنا انّ لوسيوس المذكور هو القديس الذي يكرمهُ اهل لبنان منذ زمن قديم باسم القديس نوهرا او نهرا . وليس نوهرا (ܢܘܗܪܐ اي نور) سوى ترجمة اسمه اللاتيني في السريانيَّة وفي السنكسار الماروني في تاريخ ٢٢ تموز ما معناه : « في هذا اليوم نحتفل بجهـــاد الشهيد لوجيوس (ܠܘܓܝܘܣ) وكان اصلهُ من منهور (كذا) من بلاد العجم فطاف البلاد وبشَّر بالايمان في المسيح حتى بلغ مدينة البترون في بلاد فينيقية فمات فيها شهيداً . وهو شفيع المصابين باوجاع العيون ولذلك دعاهُ السريان بلغتهم نوهرا وهذا معنى اسمه لوجيوس »

وليس في هذه النبذة ما يناقض قول الاقدمين بان لوسيوس استشهد في طرابلس وطرابلس كما لا يخفى تُعدُّ من اعمال فينيقية ولعلّ قرب موقع البترون وطرابلس جعل البعض يذكرون وفاته في احداهمـــا دون الاخرى ثم لا نرى التقليد المحلي على رأي ثابت في ذلك لان اهل سمار جبيل يدّعون بانَّ استشهاد القديس نوهرا كان في قريتهم ولهم بئر يزعمون انهُ أُلقي فيهِ فغرق . ويؤيدون زعمهم بكتابـــة سريانية في جدار كنيستهم . ولكن غاية ما يستفاد من هذه الكتابة ان احد افاضل الكهنة مدفون في هذا المكان ولم يبقَ لاسم هذا الكاهن اثر . وسنعود ان شاء الله الى وصف هذه الكتابة عند ذكرنا سمار جبيل

واوَّل ناسك ورد ذكره في لبنان عاش في عهد القيصر ديوقلسيان واسمهُ إرَسْمس وكان مولدهُ في انطاكية العظمى وسُقّف على مدينـــة لم يُعرَف اسمها . فلما امتحن ديوقلسيان المسيحيين بالاضطهاد ترك إرَسْمس كرسيَّهُ الاسقفيّ وتوقّل في لبنان وتعبَّد لله في احدى مغـــاوره وبقي على ذلك سبع سنين حتى أَلهمهُ الله ان يعود الى انطاكية ليثبت المؤمنين في الايمان ففعل واستشهد اخيرًا في ايطالية (١

وكانت مدارس بيروت في تلك الاثناء تنير بتعاليمها العالم الرومـــاني . وكان كثير من النصارى يزدحمون في معاهدها ليأخذوا العلم عن ائمتها . اشتهر في جملتهم القديس غريغوريوس صاحب العجـــائب والقديس اثينودورس في النصف الاوَّل من من القرن الثالث . وممَّن اشار اليهم التـــاريخ في عهد ديوقلسيان شهيدٌ في مقتبل

---

١) راجع اعمال القديسين البولنديين في ٢ حزيران

العمر يُدعى افيان أو أمفيان كان اصلهُ من ليقية ودرس في بيروت ثم استشهد سنة ٣٠٥ في قيساريّة فلسطين ولهُ من العمر ٢٠ سنة فقط (١ . وفي ايامهِ مات في سبيل الايمان في انطاكية الكاهن زينوبيوس وكان اصلهُ من صيداء وقد روى اوسابيوس في تاريخهِ (ك ٨ ع ٣) انهُ كان طبيباً وانهُ اتقن الطبّ حتى برّز فيهِ

واخذت النصرانية بعدئذٍ تقوى وتنتشر في مدن فينيقية الساحلية حتى ان الأُسَر الشريفة نفسها صارت تدين بدين المسيح . وقد انبأنا التاريخ بذكر شاب بيروتي كريم المحتد اسمهُ بَمفيل كان درس على اشهر اساتذة وطنهِ حتى اضحى نسيج وحدهِ في العلوم الدنيويّة لكنَّهُ آثر عليها درس الاسفار المقدسة فانتقل الى قيسارية حيث رُقي الى درجة الكهنوت وأنشأ لهُ مكتبة حافلة بالتآليف القديمة . وكان موتهُ استشهادًا سنة ٣١٠ (٢

وفي ذلك العهد ايضاً ألمع التاريخ الى بعض النصارى الذين حكم عليهم المغتصبون بتعدين معادن لبنان . والمرجّح انهم ارادوا بهذه المعادن مناجم الحديد التي اشتهرت في بعض المعاملات لا سيما البترون وكسروان والمتن الى اواخر القرون المتوسطة . وفي ذكرها بين اعمال الشهداء ما يوقفنا على تاريخ المعادن في لبنان

على انَّ النصرانيّة لم تلبث بعد هذه المحن ان تنتصر على اعدائها فخرجت ظافرةً ممجّدةً على يد قسطنطين الكبير ودخلت في طور جديد ولم تزل مذ ذاك في ترقٍ متداوم بينما كانت الوثنيّة تتقهقر وتهبط حتى انقشع ظلامها ودرست آثارها

لكنّ عبادة الاصنام أبت ان تنكص على الاعقاب دون المدافعة والنزاع . فان الشرك بقي زمنًا طويلًا حتى بعد تنصّر قسطنطين وربما سعى في ردّ غارات دين المسيح . وكان كثير من عبدةِ الاوثان لم يزالوا يتردَّدون الى هياكل الالهة الباطلة . وكان سدنتها يُعرَفون علانية باسم كهنة الاصنام تدلّ على ذلك كتابةٌ وُجدت في دوما جاء فيها ذكر كاهن يُدعى كاستور يلقّب نفسهُ بكاهن اله الطبّ اسكولاب وإلهة الصحّة

---

١) راجع اوسابيوس في تاريخ شهداء فلسطين واعمال البولنديين في ٢ نيسان

٢) راجع التاريخ الكنسيّ لاوسابيوس (ك ٨ غ ١٤) واعمال القديسين للبولنديين في ١٦ شباط و ١ حزيران وكتاب القديس ايرونيموس في المشاهير (العدد ٧٥)

وقد اثبتنا في مقالة سابقة عن افقـا انّ قسطنطين الملك دمّر هيكل الزهرة فيها . والظاهر انّ الوثنيين انتهزوا الفرصة في عهد يليان الجاحد ليجدّدوا بناء هذا المعبد فانّا نرى عبدة الاصنام في القرن الخامس للمسيح يحجّون اليهِ لاقامة مناسكهم الدينيّة (١

وان تتبّعنا التقاليد الشائعة في بلاد الشام وجدنا من الآثار ما يعزوهُ اللبنانيّون الى القديسة هيلانة امّ قسطنطين كبعض البروج المبنيّة على ساحل البحر يزعمون انّها اقامتها لتبلّغ ابنها اخبار الاراضي المقدسة واكتشاف الصليب . الّا اننا بيّنّا ان هذه التقاليد لا صحّة لها (راجع الصفحة ٥٧) وان هذه البروج شُيّدت بعد ايام الصليبيين لمراقبة الساحل وردّ غزوات الفرنج . ولم تكُ هيلانة لتحتاج الى مثل هذه البروج لمخابرة ابنها مع ما كان لديها من البريد برًّا على السكك الرومانية ومن السفن بحرًا وهي تستطيع ما شاءت ان تراسل ابنها في وقت وجيز . ثم ان التاريخ يفيدنا عن ام قسطنطين انها قدمت فلسطين بحرًا وآبت راجعةً كذلك دون ان تتلبّث في مدن فينيقية وتزور لبنان

ومما لا شبهة فيهِ انّ الدين النصرانيّ كان فاز السهم المعلّى في الساحل الفينيقيّ في اواسط القرن الرابع مع ما تخلّف فيهِ من بقايا الوثنيّة فضلًا عن جماعة من اليهود كان اكثر سكناهم في بيروت وصيداء . وقد روينا في مقالتنا عن الزلازل في بيروت (المشرق ٢ : ٩٧١) انّ عددًا غفيرًا من المشركين طلبوا العماد بعد زلزلة ٣٤٩ لكنّ ارتدادهم كان علّتهُ الخوف فعادوا بعد زوال الخطر الى ضلالهم وابدعوا شيعة خلطوا فيها الدين المسيحي والوثني وابتنوا لهم معبدًا اقاموا فيهِ رتبهم المستهجنة

ولم يمضِ على ذلك زمن يسير حتى اقام الله لكنيستهِ انصارًا اجتذبوا اهل الضلال الى النصرانيّة بامثالهم اكثر منهم بكلامهم . وانْ هولاء الا النسّاك والحبساء الذين أوَوا الى مغاور ثم الى اديرة اضحت بهمّتهم كمنائر سطع منها ضياء الدين المسيحي فبدّدت ظلام الوثنيّة تمامًا

---

١) راجع مقالة الدكتور ج. روڤيه المعنونة Le temple de Vénus à Afka, p. 15. 16

في مبادئ المعيشة الرهبانية في لبنان

قال القديس ايرونيموس في ترجمة القديس هيلاريون (ع ١٤) : « لم يعرف احد من اهل الشام ناسكًا قبل هيلاريون » فمن ثمَّ يظهر ان أرَسمس الذي سبق لنا ذكره مات ولم يقتدِ بنسكهِ احد الى عهد القديسين انطونيوس الكبير وهيلاريون وليس هذان الناسكان هما اللذان انشأا العيشة النسكية في لبنان كما يروي تقليد بعض اللبنانيين خلافًا للتاريخ الصادق ٠ وزد على ذلك ان القديس انطونيوس لم يخرج قطّ من القطر المصريّ والصواب انَّ مثَلهما حمل نصارى الشام على التشبُّه بهما

ولا غروَ انهُ بوشر منذ ذلك العهد بانشاء المحابس في لبنان بيد ان التاريخ لم يذكر من امرها شيئًا لقلّة اعتبارها ٠ وانما روى اخبار مناسك أُخرى تُدعى مندرة (μάνδρα) ومعناها حظيرة الغنم كان العبَّاد يجتمعون فيها تحت رئاسة بعض اكابرهم يدعونهُ لذلك ارشيمندريتًا اي رئيس المندرة ٠ وربما كانوا يدعون ايضًا هذه المناسك لورا (λαύρα) او قينوبيون (κοινόβιον) ومعناهما المُنتدى والمُجتمع ٠ وكان اسم المندرة شائعًا في مصر وجنوبي فلسطين اما الاسمان الآخران فاشتهرا في سوريَّة ٠ ولعل مَندَرة احدى مزارع البتّاع بجوار تعنايل اشتقَّت اسمها هذا من دير كان سابقًا بقربها [1]

لو تقصَّينا آثار الكتب التاريخيَّة لوجدنا ذكر بعض هذه الاديرة القديمة الراقية الى اواخر القرن الرابع واوائل الخامس ٠ منها عدلون بين صيداء وصور ليس بعيدًا من صَرفند ٠ فان فيها عند البحر صخرًا عاليًا حُفر فيهِ نحو ٢٠٠ كهف ٠ ولعلّ هذه المغاور كانت في بادئ الامر مدافن للموتى ولكن لدينا من الادلّة ما يحملنا على القول انَّ الرهبان اتخذوها لهم كمساكن أووا اليها ٠ من ذلك ما ترى فيها من شارات النصرانيَّة

---

[1] وكذا دُعيت بعض المدن في اوربا باسماء الاديرة المجاورة لها مثل موتيار او موستيار Moustier او Moutier في فرنسة ومُنستر Munster في المانية الخ وكلها مشتقَّة من monasterium اي دير

وفيها صهاريج محكمة الصنع ومراقي متقنة يُصعد منها الى طبقات المغاور العليا وتجمع بين القلالي · ومن اعتبر هذه المساكن الغريبة لا يشك في انّ الرهبان وحدهم امكنتهم الاقامة فيها ويؤيد ذلك ما دوَّنهُ المؤلفون في تراجم بعض الاباء انهم كانوا يعيشون في المقابر· وهذه المقابر كانت عبارة عن مغاور مختلفة الكبر اتخذها الاقدمون لموتاهم · والمرَّجح عندنا ان عدلون من هذا القبيل · فعسى ان يجد العلماء نصًّا تاريخيًّا يزيل عنَّا كل شبهة في الامر

وليس بمستبعد ايضاً ان الاغوار المنقورة في الصخر في وادٍ مطلّ على بلاد البقاع بقرب قرية فرزل شمالي زحلة كانت مأوى السياح · يستدل على ذلك بدلائل عديدة · وهذه الكهوف تشبه في ترتيبها مغاور عدلون والاهلون يدعون موضعها الحبيس ويزعمون استناداً الى تقاليد قديمة انَّ سيّاح القرون الغابرة سكنوها وفي سفح هذه المغاور جدول ماء صافٍ يترقرق سائحاً

ومن جملة الاماكن التي يُشار اليها بالشواهد المنقولة انَّها كانت في سالف الزمان كمعاهد للرهبان مغارة عند قرية هرمل على مقربة من اكبر رؤوس نهر العاصي · ولهذا التقليد اثرٌ في كتبة القرون المتوسطة كابي الفداء والقلقشندي وغيرهما وهم يدعون هذا المكان باسم مغارة الراهب · والموارنة يدعونها « ديرمار مارون » · ولا يزال الجبل المطلّ عليها مع الاملاك المجاورة لها خاصة رهبان لبنان الانطونيانيين ويسكن البعض منهم هذا المكان في عهدنا الحاضر مع ان سكان هذه الايالة كلهم من المتاولة · وهؤلاء يعرفون هذه المغاور باسم القصور وما لا ريب فيهِ انَّ الناس تحصَّنوا فيها سابقًا يُستدلُّ على ذلك بما اقاموه من الابنية في مدخلها للمدافعة عنهـا فزادوها منعةً على حصانتها الطبيعيَّة

ومغارة الراهب تفوق مغاور عدلون وفرزل بمحاسنها · وكانت في الاصل طبيعية سكنتْها كما يظهر قبائل عاديَّة في الاعصار السابقة التاريخ ولعلَّ هذه القبائل فضَّلتها على سواها لحسْن موقعها قرب نهرٍ كبيرٍ · الَّا انَّ الخلَف حسَّنوا عمل الطبيعة وأضافوا اليهِ منتدياتٍ نقروها في الصخر على احسن هندام مع قبَّة ذات حنيَّة مقوَّسة ودرجٍ داخليّ يُصعد منهُ الى الطبقات العليا و بئر عميق الغور يبلغ الى مياه النهر · وكل ذلك منحوت في الصخر الاصمّ

ومن المنازل التي احتلّتها في العهد القديم نسّاك لبنان وادي قزحيا والقاديشا . و بقايا العيشة الرهبانية فيهما ظاهرة حتى الان صبرت على الايام وتقلبات الدهر . وكان بعض الرهبان يعيشون فيهما عيشة عموميّة فيجتمعون للصلاة والشغل في كهوف واسعة منقورة في الصخر ترى واحداً منها اكبر من سواهُ في وسط الوادي . و بعضهم كانوا يفضِّلون العزلة التامّة فيعيشون منفردين في مغاور متفرّقة في جانبي الوادي منحوتة في صخورهِ تجري منها ينابيع صافية ويحدق بها النبات وكلّها غاية مايرام لعيشة العبّاد

وفي بهرة وادي قاديشا دير قنّوبين تعريب (κοινόβιον) يعزو التقليد المحلي بناءهُ الى الملك ثاودوسيوس الكبير . والامر ممكنٌ الّا انّ النصوص التاريخية لا تفيدنا في ذلك علماً . وعلى رأينا ان ثاودوسيوس منشئ هذا الدير ليس هو القيصر الشهير بهذا الاسم بل احد كبار آباء الطريقة النسكيّة . وقد عُرف بهذا الاسم في ذلك العهد رجلان عظيمان تكرمهما الكنيسة بين اولياء الله . احدهما ثاودوسيوس الانطاكي انشأ في قيليقية ديرًا كبيرًا والاخر اصلهُ من قپادوقية اشتهر في فلسطين وابتنى ديرًا واسعًا تقاطر اليهِ الرهبان من كل فجّ وأوب كان بينهم يونان وارمن وصقالبة . ولا جرم بانّ السوريين واللبنانيين تتلمذوا لهُ ايضًا . وكان ثاودوسيوس المذكور قسّمهم اقسامًا على حسب اصلهم ليسبّحوا الله في لغاتهم المختلفة وساسهم الى ان توفي في اوائل القرن السادس ولهُ من العمر ١٠٥ سنين . ومن اطلع على ترجمة هذا القديس لا يرى فيها صريحًا انهُ قدم لبنان ولعلّهُ زار هذا الجبل في رحلتهِ الى مقام سمعان العمودي(١ . ولكننا نعلم من تاريخهِ ان تلامذتهُ انشأوا اديرةً عديدة في انحاء شتى . فلا نرانا نتجاوز حدود الحق ان قلنا عن احدهم انهُ احتلّ قنّوبين فأسس فيها ديرًا نسبهُ الناس بعده الى القديس ثاودوسيوس استاذه ثمّ اشتبه الاسم على الخلَف فظنّوا ان المنشئ هو ثاودوسيوس الكبير الذي اشتهر بتقواه وتذكرهُ الكنيسة اليونانية في عداد قديسيها . وما يؤيد هذا الراي انا نرى الطائفة المارونيّة تكرّم ثاودوسيوس ابا الرهبان اكرامًا خصوصيًّا وتعدّهُ بين مشاهير النسّاك (٢ . وهذا لعمري شاهد واضح على انّ اسمهُ كان ذائعًا في لبنان

---

١) راجع اعمال البولنديين في تاريخ ١٦ كانون الثاني (ص ٦٨٠)

٢) راجع تاريخ الطائفة المارونية للدويهي (ص٢٣)

ترقي النصرانية في القرن الرابع

حان ان نعود الى تاريخ انتشار النصرانيَّة في لبنان بعد استطرادنا الى ذكر مبادئ العيشة الرهبانية فيهِ

لمَّا تبوَّأ قسطنطين الكبير منصَّة الملك اخذت قدم النصرانيَّة ترسخ في لبنان ولعلها كانت طمست آثار الوثنيَّة لولا بدعة آريوس التي بذرت في قلوب المؤمنين وخصوصاً بين الاساقفة بذر الشقاق والنفور فجعل الآريوسيون يفرغون كنانة الجهد في مطاردة الرعاة الاورثذكسيين ومعاكستهم لا يهمُّهم شيء من امر الوثنيين وانارتهم بضياء الايمان · بل كان المشركون يزيدون تباعداً عن الكنيسة لما يرون في احبارها من تفرُّق الكلمة في اكبر عقائد النصرانيَّة اعني لاهوت المسيح ومساواتهِ لابيهِ في الجوهر

ثم تملَّك جليان الجاحد فأَولى الوثنيَّة انتصاراً لم يكن في حسبان اهلها · فاستأنف المشركون فتح الهياكل المقفلة ورمَّموا ما تهدَّم من المعابد · والمرجَّح ان هيكل الزهرة في افقا جُدّد بناؤُه في ذلك العهد كما أُصلح قسمٌ من معبد المشنقة (١ وعاد الوثنيُّون فاحتفلوا باسرار ادونيس اي تموز بابهة عظيمة كمألوف عادتهم سابقًا · ونال بيروتَ نفسها اضطهادُ عبدة الاصنام فانَّ الكنت مَغنوس تقدم هذه المدينة ومعهُ فريق من الجند واليهود فاخربوا كنيستها الكبرى ولا غرو ان كنائس لبنان اصابها ما اصاب كنيسة بيروت من حريق ودمار

ولكن الله اللطيف بعباده جازى وشيكًا جليان على كفره وأقام خلفًا لهُ يُقيان وكان رجلًا تقيًّا مبغضًا للشرك فامر الكنتَ مغنوس بان يشيد كنيسة بيروت على نفقتهِ ولولا حلم الملك لقطع رأسهُ واصاب الجزاء عما جنت يداهُ من الآثام العديدة

وممَّن اشتهروا في ذلك العهد ناسك لا يزال ذكره مكرَّماً في لبنان وهو القديس موسى الحبشي الذي اختارتهُ ماوية ملكة العرب اسقفاً لقومها وسامهُ

---

١) راجع بعثة فينيقية ص ٢٨٦

القديس اثناسيوس الاسكندري فتولّى رعاية العرب المقيمين في شبه جزيرة سينا وفي جنوبي فلسطين

ولما صار زمام الملك الى يد ثاودوسيوس الكبير أُصيبت الوثنيّة في سواد قلبها فان هذا العاهل الشهير امر كبير قوّاده سنة ٣٨٤ بان يُقفل هياكل الاصنام ليس فقط في لبنان بل في الشرق باسره . وفي سنة ٣٩٢ في العشر الاول من تشرين الثاني سنّ شريعة ثانية كان مؤدّاها ان تبطل عبادة الاوثان فلم يتجاسر الوثنيّون على مقاومة السلطة . لكنّ بعضًا منهم ثبتوا على عاداتهم ومارسوا دينهم خفيةً في القرى المنفردة والجبال القاصية . وكان القياصرة مع ذلك لم يهدموا هياكل الاصنام بل اكتفوا بان يبطلوا فيها المناسك الدينية . والدليل على قولنا ان الدستور المعروف باسم ثاودوسيوس يتضمّن عدّة شرائع سنّها الملوك النصارى تقضي بمعاقبة الذين يسعون في خراب الهياكل الوثنية وكانت غايتهم بذلك ان يحافظوا على آثار الاقدمين لحسن هندستها (١ وكانوا في الغالب يخصّصون هذه الابنية لخدمة الدين الحقيقي فيجعلونها كنائس مسيحيّة (٢ . الّا ان ذوي الامر اضطرّوا في بعض المواطن الى استعمال القوة الجبريّة وتقويض المعابد الوثنية خصوصاً في بلاد فينيقية ولبنان . فمن جملة الابنية التي اجاءتهم الاحوال على نسفها زونُ الزهرة في افقا لان سدنتهُ كانوا اتخذوهُ كماخور يجترحون فيهِ الفحشاء وافظع الارجاس باسم دينهم الباطل

ومن بدء القرن الخامس للمسيح لمّا استوى القديس يوحنا فم الذهب على كرسي القسطنطينية (٣٩٨ — ٤٠٧) اراد ان يستأصل من لبنان شأفة الشرك فارسل قومًا من دُعاة الدين ليرشدوا اهل لبنان الى طريق الهدى (٣ وقد لاقى هؤلاء

---

١) راجع P. Allard ; *L'art païen sous les empereurs chrétiens*

٢) راجع كتابات سورية وحوران لوادنغتون (ع ٢٦٩٨) . ومن الهياكل التي جعلها النصارى كنائس هيكل بعلبك المعروف باسم تريليتون (Trilithon) وكنيسة مار يوحنا في دمشق المعروفة اليوم بالجامع الاموي

٣) راجع تاريخ ثاودوريطس (ك ٥ ع ٣٩) ورسائل القديس يوحنا فم الذهب (ع ١٣٣ , ١٣٦) الّا ان هذه الرسائل مع ذكرها لبنان لا توضح جليًّا أيُرادُ بهِ لبنان الحالي او جبال النصيرية ولعلّ المقصود منها هذه الاخيرة

المرسلون في تنفيذ دعوتهم مشاكل عديدة فطرد الاهلون بعضاً منهم وقتلوا آخرين . على ان هـذه المعاملة السيئة لم تكن لتثني عزائمهم فواصلوا الانذار والتبشير وبالغوا في ملاطفة السكّان حتى اجتذبوهم الى عبادة الاله الحقيقيّ . ومما اتخـذوا من الوسائل لإبطال الوثنية انهم جعلوا لاهـل لبنان الاعياد واقاموا المواسم احتفاء باسرار الدين النصراني الطاهرة فعدلوا بهم عن الحفلات الوثنية الى العبادات والمناسك الخلاصية

تنظيم الكنائس في لبنان

وفي مطاوي هذا القرن الخامس ُجعلت كنائس لبنان على نظام قانوني فقُسمت الى قسمين كنائس فينيقية الساحلية وكنائس فينيقية لبنان وفقاً للتقسيم المدني الذي جرى عليهِ اولًا ديوقلسيان (راجع المشرق ٣ : ١١٠٣) . وقد ذكرنا هنا هذا التنظيم إزالةً للالتباس لانَّ الكراسي الاسقفية اصابها بذلك بعض التغييرات وُعدَّت من ايالةٍ غير التي كانت معدودةً منها سابقاً . وما يهمّنا نحن في مقالاتنا عن آثار لبنان انما هي فينيقية الساحلية اما فينيقية لبنان فانها كانت تشمل الجبل الشرقي ومنعطف لبنـان من جهة الشرق وعليهِ فانها لا تدخل في حيز مباحثنا

وُجعلت صور رأس ولاية فينيقية الساحلية واضحى كرسيّهـا لهذا السبب متقدّمًا على بقيَّة كنائس الولاية فدُعي لذلك بالكرسي الاوَّل (προτόθρονος) في بطريركية انطاكية وُجعلت تحت حكمه كراسي اسقفيات عديدة نذكر من جملتها ما لهُ علاقة مع لبنان الحـالي وهي : ١ صيداء . ٢ پرفيريون الموافقة لمقـام النبي يونس وتدعى ايضاً برجا موقعهـا بين بيروت وصيداء (١ ٣ جبيل او بيبلوس . ٤ البترون او بُتريس . ٥ غيغرتا (٢ . ٦ ترياريس (Trierès) وهي المسمَّاة اليوم أنفة (٣ . ٧ طرابلس .

---

١) وسنعود الى ذكر آثارها

٢) امَّا موقع هذه المدينة فسنبيّنهُ ان شاءَ الله

٣) هذا الصواب وليس كما ورد في المنـار (ص ١١٤ من السنة ١٩٠٠) انها « حصن ساحلي شمالي طرابلس ربما القليعات »

٨ً عرقا (١ . ٩ً اورثوسياس (٢ . اما بيروت فمع كونها واقعةً في ولاية صور الكنسيّة كانت مستقلةً عنها . ورقّي اسقفها الى رتبة مطران ولكن لم يكن لهُ اساقفة تحت حكمهِ (٣

هذا ولا نشكّ في انَّ بعض قرى لبنان الكبرى كاهدن و بشرّاي واميون (في الكورة) كان لها رؤساء روحيون من درجة الخورفسقفوس . وكانت هذه الرتبة شائعة في ذلك العصر . ولنا شاهد في ما ذُكر عن القديس باسيليوس اسقف قيسارّية انهُ كان تحت امره خمسون خورفسقوفاً الّا ان هذا المنصب الكنسي ابتذل لكثرة شيوعهِ فامتزج بدرجة رُعاة القرى . وما اسم « الخوري » الّا اشتقاق من اسم الخورفسقفوس

وفي هذا العهد ايضاً انتظمت الطقوس الكنسية المهمّة الى ان صارت بعد زمن على هيئتها التي نألفها اليوم . وممن ساعدوا على تنسيق هذه الطقوس بعض القديسين الاجلاء كالقديس يوحنا فم الذهب والقديس باسيليوس الكبير الا انّ هذه الطقوس لم تُنسِ ما كان سبق اليهِ القدماء من الرُتب الدينية كالطقوس الرسولية والرُتب التقليدية منها الليتورجيا الشريفة المنسوبة الى القديس يعقوب وغير ذلك

اما اللغات الكنسية فكانت محصورة في اللغتين اليونانية والسريانية ولم تشع اللاتينية كلغة طقسيَّة وانما كانت لغة الدولة الرسمية فقط . وقد استعملها اهل بيروت مدة ثمَّ انحصرت في ضمن مدارسها الفقهيَّة الشهيرة . الّا انها أُهملت شيئاً فشيئاً حتى أُبطل استعمالها وكانت كنائس المدن الساحليَّة تؤثر في طقوسها اللغة اليونانيَّة اما كنائس الجبل فكانت السريانية هي الغالبة على أَلسنة كهنتها (راجع المشرق ٣ : ٢٦٧) . وزادت السريانية انتشاراً في لبنان لمَّا صارت السيطرة فيهِ للطائفة المارونية

---

١) واخربتها تُعرف الى اليوم بهذا الاسم

٢) تدعى اليوم اورتوزي بجوار نهر البارد

٣) خلافاً لما جاء في مقالة المنار السابق ذكرها (ص ١١٤) . وهذه المقالة تستدعي عدَّة اصلاحات . نقول ذلك رعاية للحق مع ما نعرفهُ من فضل كاتبها الذي اختبرنا لطفهُ يوم زرنا دير البلمند

انتصار النصرانية نهائيًا على الوثنية في لبنان

بعد وفاة القديس يوحنا فم الذهب قدم لبنان من مدينة الرها احد النساك فتوطّنهُ وجعل يسعى في هداية اهله الوثنيين · ذكر ذلك البولنديون في تاريخ ١٤ شباط · ولعلّ المراد بلبنان في ترجمة الناسك المذكور انما هو جبل عكار لان النصّ الوارد فيهِ اسم هذا العابد يشير الى مدينة حمص وهي كما لا يخفى مجاورة لجبل عكار

وكذلك تكرَّر ذكر لبنان في ترجمة حياة القديس سمعان العمودي فان راوية اخباره يقول عنهُ انهُ انجز هداية اهل لبنان فرجَّعهم الى الدين القويم بما اصطنعهُ من المعجزات الباهرة · لكنَّنا هنا ايضًا لا يمكننا القطع بان المراد بلبنان الجبل المعروف اليوم بهذا الاسم · ونحن نعلم ان هذا القديس اشتهر في ولاية حلب في الجبل المسمَّى اليوم بجبل سمعان · على ان الذي يُمعن النظر في اقوال مؤرخيهِ لا يرى ما ينفي لبناننا الحالي لان الزوار كانوا يتقاطرون الى عامود القديس من بلاد بعيدة فكان العرب يأتونهُ من اقاصي البادية ليستمعوا تعاليمه · ثم ان اوصاف لبنان في تواريخ هؤلاء الكتبة توافق جبلنا منها ذكر الغابات والوحوش الضارية ومعابد الاصنام وتعلّق الاهلين بعبادتها بحيث لا يرذلون خدمتها الّا بعد نظر العجائب التي تجري على يد القديس سمعان · فكل هذه الاوصاف تصدق عن جبل لبنان الحالي · غير ان اسم لبنان وحده ليس بكافٍ لنجزم بهذا الامر وقد قلنا سابقًا ان هذه التسمية كانت تشمل في القرنين الخامس والسادس جبالًا اخرى

وان قال قائل ان المراد بلبنان انما هو لبناننا الحالي لانهُ ورد في اثناء ذكر لبنان اسم احدى قراهُ وهي قرية اندارس (Andaris) الموافقة لقرية عين دارا في معاملة العرقوب الشمالي · اجبنا ان هذه الموافقة بين الاسمين ليست مقرَّرة ثم انهُ لُمحتمل ان ضيعةً تدعى عين دارا اشتهرت سابقًا في جبال غير لبنان الحالي مما كان يُعرف ايضًا باسم لبنان كجبل النصيريَّة وجبل الشيخ · فترى من ثمَّ ان هذه الافادات ليست بكافية لتدوين هذه الاخبار في تاريخ النصرانية في لبنان

ولما ظهرت بدعة نسطور وجدت في بعض اساقفة لبنان صدًى لتعاليمها الفاسدة · فان افرادًا منهم انحازوا الى النسطوريَّة · وفي بيروت التأم المجمع الذي حكم

على ايباس اسقف الرها احد انصار نسطور . وكان ذلك حسب منطوق اعمال المجمع « في بيروت المدينة الفائقة الجمال في دار اسقفها الحديثة بجوار الكنيسة الجديدة المقدسة »

اما بدعة اوطيخا فكان لها في لبنان عاقبة اوخم من النسطورية ففشا ستّها في بلاد الشام وألحقت باهلها مدّة زمن مديد اضرارًا لا يُسبر لها غور . وكان اوستات اسقف بيروت تشيّع جهارًا لاوطاخي . فجازاهُ ملك الروم بان اصدر براءة ورد فيها انهُ « يخوّل مدينة بيروت المزدانة بالفضائل اسم حاضرة (métropole) مع الامتيازات التي تُعطى لأُمهات المدن » . فظنّ اوستات ان رقيم القيصر كافٍ ليمدّ سلطتهُ الروحية على اساقفة جبيل والبترون وطرابلس وغيرها من الاسقفيات الواقعة في شمالي فينيقية الساحلية . الّا ان مطامعهُ رُذلت بعد زمن قليل في عهد مرقيان الملك

وقد تعطّر لبنان بفضائل بعض القديسين في اواسط القرن الخامس للمسيح نخصّ منهم بالذكر القديسة مَطرونا وُلدت في آسيا الصغرى ثم اقامت ديرًا في حمص وانتقلت اخيرًا الى بيروت فانارت جمًّا غفيرًا من النساء الوثنيات بانوار الايمان

ومنهم القديس ربولا السُّمَيساطي قدم بيروت في ايام الملك زينون ثمَّ تعبَّد لله في جبال لبنان المعتزلة . وجاء في تاريخ قديم (راجع اعمال القديسين للبولنديين ١٥ شباط ص ١٢٦) « ان ربّولا المذكور شيَّد بمساعدة زينون القيصر ويوحنا حاكم بيروت ديرًا كبيرًا في وسط الجبل . وكان يعيش مع رهبانهِ بين الجبليين وهم وقتئذٍ متسكّعون بظلمة الوثنية فعرض عليهم اسرار الديانة وردّ حججهم واجتذبهم الى الدين القويم الّا نفرًا قليلًا منهم» . فيؤخذ من هذا الكلام ان عبادة الاصنام لم تُطمس بعدُ آثارها في لبنان نحو مئة سنة بعد ثاودوسيوس الكبير

ولعلّ القارئ يسأل وما هو الدير الذي عمّرهُ ربّولا الراهب ? قال الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخ لبنان (ص ٢٣٨٩ من تاريخهِ المخطوط) : « ان الدير المومأ اليهِ هو دير القمر » . لكنّنا لا نرى على اي حجّة بنى الاب مرتينوس زعمهُ هذا . وغاية ما نعرف عن دير القمر ان ذكرها ورد في تاريخ الصليبيين ولكن هذا ليس ببرهان مقنع . لاسيما اننا نرى في لبنان قرًى غيرها دخل في تركيب اسمها اسم الدير

فيصحُّ فيها قول الكاتب المنوَّه بهِ وبعضها ليس بعيدًا عن بيروت· لان النص يشير الى دير قريب منها

وزادت بدعة اوطيخا انتشارًا في سوريّة لما ظهر ساويرس الانطاكي . وكان المذكور قضى سنين عديدة من عمره في بيروت حيث درس الفقه ثمَّ تعمَّد في طرابلس(١ وصار بطريركًا دخيلًا على انطاكية وتفانى في نشر الشيعة الاوطاخية . لكنَّ الله اقام لدينهِ الحقّ محامين يدافعون عنهُ لاسيما في عداد الرهبان . والكنيستان الشرقية والغربية تحتفلان في ٣١ تموز بعيد ٣٥٠ راهبًا قُتلوا في سبيل الايمان سنة ٥١٧ . كان المبتدعون كمنوا لهم يوماً وهم سائرون الى كنيسة القديس سمعان العمودي التي موقعها في جبل بركات شماليّ غربي حلب . وقد ذكرناهم هنا لان اللبنانيين يقيمون لهم عيدًا حافلًا ولو كان استشهادهم قد جرى خارجاً عن لبنان وعن فينيقية . وانما اصلهم كان من ولاية سوريّة الثانية التي حاضرتها افامية (قلعة المضيق) وموقعها شمالي ايالة فينيقية لبنان . اما فينيقية لبنان هذه فقد سبق ان حاضرتها كانت مدينة حمص وانها تشمل قسماً من لبنان الشرقي على ان معظم جبل لبنان داخل في فينيقية الساحلية

وكان هولاء الشهداء ينتمون الى دير مار مارون . وكان هذا الدير مبنيًّا في جوار افامية في وادي نهر العاصي (٢ . قال المسعودي في كتاب التنبيه والاشراف (ص ١٦٣) يعرّف موقعهُ انهُ : « شرقي حماة وشَيزَر ذو بنيان عظيم حولهُ اكثر من ثلاثمائة صومعة فيها الرهبان وكان فيهِ من آلات الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم فخرب هذا الدير وما حولهُ من الصوامع بتواتر الفتن . . . وهو بقرب من نهر الارنط نهر حمص وانطاكية » . ولدينا العريضة اليونانية التي ارسلها رهبان هذا الدير للبابا هرمزداس يخبرونهُ باستشهاد اخوانهم وقَّعوا عليها بما نصهُ : « نحن الحقراء الارشيمندريين ورهبان سوريّا الثانية » . امَّا رئيسهم فقد وقَّع الرقيم كاتبًا : « انا ارشيمندريت مار مارون » . فمما سبق ترى ما كان لهذا الدير من الخطورة والشأن

---

١) راجع المشرق ٣ : ١٠٠٢ وكتاب الاب نو .Opuscules maronites II, 49 *seqq*

٢) راجع كتاب الاب نو (l'abbé Nau) السابق ذكره (ج ٢ ص ٢٢)

وعدد الرهبان . اما الاسباب التي حملت الموارنة على اكرام هؤلاء الشهداء فهي ثلاثة ذكرها صاحب مروج الاخيار : « اولًا لان اكبر اديار هؤلاء الشهداء الطوباويين كان معروفًا باسم القديس مارون وارشيمندريت هذا الدير كان اسمهُ اسكندر وهو اول من امضى الرسالة التي رُفعت الى البابا هرمزداس القديس . ثانيًا لان كثيرين من هؤلاء القديسين كانوا يتشجعون على الثبات في الايمان والاستشهاد امام ذخيرة هامة القديس مارون الثمينة التي كانت بهذا الدير . وثالثًا بما ان هؤلاء الرهبان القديسين كانوا اشجع المناضلين عن الايمان الكاثوليكي الذي يغار لهُ الموارنة غيرةً لانهم كانوا خاضعين اتمّ الخضوع لكرسي هامة الرسل . والطائفة المارونية تفتخر بانها تقتفي آثارهم في ذلك »

وقبل ذلك بزمن قليل (سنة ٥١١) كان الملك انستاس طرد من القسطنطينية عددًا غفيرًا من الراهبات المستقيمات الايمان فقصدنَ لبنان واتخذنهُ لهنَّ سكنًا وعطّرنهُ بعرف فضائلهنَّ . وفي اختيارهنَّ لبنان للعزلة دليل على ان اهلهُ كانوا يرذلون الشيعة الاوطيخية

والارجح ان كنيسة دير برفيريون (اليوم برجا او النبي يونس) بُنيت في ذلك القرن السادس . وكذلك كنيسة القديس فوقا على مشارف الجبل (١ . وقد ورد ذكر هاتين الكنيستين في تاريخ الابنية للمؤرّخ بروكوب . وكان بانيهما الملك يوستنيان الذي اشتهر بغيرتهِ على بناء الكنائس . وليس بمستبعد انَّ اقدم كنائس لبنان المعروفة اليوم تشيّدت في عهده او على يد المهندسين الذين جروا على طريقة بنائهِ . مثال ذلك كنيستا اهدن وكفر شليان اللتان تشبهان كل الشبه الكنائس البوزنطيّة المنسوبة الى هذا الملك . ولعلَّ كنيسة حدتون المهدومة التي ذكرناها في الفصل السابق (ص ٨٦ و ٨٩) هي ايضًا من هذا القبيل فيكون بناؤُها سبق دخول الموارنة في لبنان . لنا في تأييد قولنا بعض الحجج منها وجود كتابتين يونانيّتين الواحدة اكتشفها رينان واكثر حروفها مطموسة والاخرى وقف عليها الفقير كاتب هذه

---

١) راجع بروكوب (ك ٥ ع ٩) . على ان بروكوب بقولهِ « مشارف الجبل » لم يذكر لبنان وانما يؤخذ ذلك من قرينة كلامهِ لانهُ ذكر الجبل بعد ذكر برفيريون والساحل الفينيقي

الاسطر (١ وفي كلتيهما ما يشير الى قدم هذه الكنيسة · ومنها الطرز الهندسي والنقوش وضروب الفسيفساء فان كل ذلك يُلمع الى عهد يوستنيان

فترى مما تقدم انَّ النصرانيَّة في القرن السادس لاسيما اواخرهُ لم تغلب فقط على المدن الساحلية بل بان شأوها على كل اخصامها في لبنان · وكانت مدينة بيروت حافلة بالكنائس (٢ واهلها معتصمين بحبال الدين · وكذلك تفيدنا ترجمة البطريرك ساويروس السريانية ان العاملة اللبنانية المجاورة لبيروت كانت مستوثقة بعروة الدين وهنالك اشتهر احد الرهبان العاموديين الذي كان يسكن في قرية لم يُذكر اسمها قريبة من البلدة · وكان هذا الراهب شديد التمسك بالدين الاورثذكسي يدافع عن الايمان الكاثوليكي مدافعة الشهام · ومما رُوي عنهُ انَّ بعض اشياع اوطيخا من الطلبة الذين اتوا من الاسكندريَّة الى بيروت ليدرسوا الفقه زاروه يوماً فلامهم عن تشبُّثهم بتعاليم الهراطقة · وفي خبر هذه الواقعة ما يُشعر بان الشيعة اليعقوبية لم تُفرد بعد لاصحابها كنيسةً في بيروت (٣

ومن الشواهد اللامعة الدالَّة على انتشار النصرانية في لبنان العيد الحافل الذي أُقيم فيهِ لمَّا عاد هرقل ظافراً ومعهُ الصليب المقدس الذي انقذه من يد الفرس · فأُقيم في لبنان حفلات بهيجة جعلها اللبنانيون سنَّةً لهم يعيدون ذكرها في كل عام في ١٤ ايلول

الَّا ان هرقل الملك كسف شيئاً من بهاء انتصارهِ بما اعارهُ من المساعدة لهرطقة المونوتليّين اي القائلين بالمشيئة الواحدة في المسيح · فكانت هذه المضافرة الملكية سبباً لفشوّ هذه البدعة في سورية وخصوصاً في وادي العاصي · لكنَّ هذا الوباء لم يَسْرِ حتى لبنان وكفاهُ بذلك شرفاً

وممَّن تصدَّوا لهذه العدوى القديس صوفرونيوس الدمشقيُّ الاصل بطريرك اورشليم · وقد زعم البعض انهُ وُلد في لبنان في قرية بسري · وهو قول تردُّه الادلة العديدة كالميناون والبولنديين (في تاريخ ١١ اذار) بل يفنده القديس صوفرونيوس

---

١) راجع مجلَّة الشرق المسيحي ١٨٩٩ ص ٥٦٥ و٥٦٩

٢) راجع في المشرق (٣ : ١٠٠٤) ما ورد في النشرات المارونيَّة للاب نو

٣) مجلَّة الشرق المسيحي ١٨٩٨ ص ٢٨٠

نفسهُ في قصيدة لهُ وردت في مجموع اعمال الآباء (مين ج ٨٧ ص ٣٤٢١) قال عن نفسهِ انهُ من مدينة دمشق التي تكللها قممُ لبنان (Λιβανοστέφανος) فقاوم هذا الاب القديس الجليل الشيعة المونوتيليتية التي جعلت الدولة البوزنطية على قاب قوسين من هلاكها في سوريَّة . لكنَّ الله كفى لبنان شرَّها وجعل مذ ذاك هـذا الجبل معتصماً لاذ باهدابهِ انصار الحقّ الى يومنا

بلاد البترون

من تتبَّع الاثار اليونانية او الرومانية في بلاد البترون لا يجد منها مـا يجدهُ في مقاطعتَي كسروان وجبيل . وسبب ذلك ان موقع البترون في سفح جبال شاهقة ابى الاقدمون ان يتخذوها كسكنى لهم اللهمَّ الَّا قليلًا منهم حتى ظهرت الامة المارونية فاستعمرت تلك الجهات وجعلتها كمركز انتشرت منهُ الى البلاد المجاورة . والدلائل التاريخية المنبئة بذلك كثيرة نشير اليها في مطاوي كلامنا ان شاءَ الله

ولقلَّة الاثار القديمة في البترون ونواحيها علَّةٌ أُخرى وهو بُعدها عن اُمهـات المدن كبيروت وصيداء . ووقوعها خارجًا عن دائرة امكنة الفينيقيين المقدّسة كجبيل . ولذلك ترى في جنوبيّ لبنان ووسطهِ من الكتابات والاخربة ما لا تجده في البترون وتوابعها

٢٢ مدينة البترون

البترون احدث عهدًا من جبيل وبيروت وكان الانكليزي كُندر (Conder) زعم انهُ وُجد اسمهـا في مراسلات تلّ العمارنة (راجع الصفحة ٧٦) الَّا انَّ علماء العاديَّات فنَّدوا هذا الزعم . وكذلك لو تصفَّحنا تواريخ الفينيقيين واليونان والرومان لما وجدنا عن البترون الَّا النزر القليل الذي لا يُشفى منهُ غليل . وذلك دليل واضح على انها لم تكن ذات شأن خطير

على اننا لا نريد بذلك ان نبخس البترون حقها فان هذه البلدة لا تخلو من البقايا والاطلال القديمة لولا انَّ الابنية الحديثة التي تعلوها اليوم لا تسمح بتقدير هذه الاخربة وتعريف تاريخها . ولنا ايضًا شاهد آخر على مقـام البترون سابقًا وهي المسكوكات

والنقود التي ضرب بها اهلها ايام استقلالهم فترى لها تاريخاً خاصا بها كبقيَّة مدن الساحل . وقد بيَّن ذلك الدكتور جول روفيه في مقالتهِ عن تاريخ مسكوكات البترون (راجع المشرق ٢ : ٤٧٦)

والشائع عن اصل هذه المدينة ان بانيها ايتو بعل ملك صور في القرن العاشر قبل المسيح كذا روى المؤرخ اليوناني ميناندر وصادق عليهِ يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير

ومن آثار الفينيقيين في هذه البلدة سورٌ متين نحتوه في الصخر الاصمّ من جهة البحر وقد بقي منهُ بقايا الى يومنا مع اعمال أُخرى تنطبق على ما نعرف من حذاقتهم في قطع الحجارة . ومنها ايضاً بعض قبور ونواويس قديمة كما ترى في غيرها من المدن الساحليَّة

ولا غروَ ان الرومان بعد فتح سوريَّة شيدوا في البترون الابنية وجعلوها من القلاع الحريزة وازهرت في ايامهم الى ان خربت في زلزال سنة ٥٥٠ م

وقد بقي من عهد الرومان نقوش وقِطع وكتابات رأى منها رينان طرفًا كما اثبت ذلك في بعثة فينيقية (ص ٢٤٩) يقول انهُ وجدها في انقاض حصنها وقد بحثنا عنها فلم نشاهدها

اما الحصن المذكور فقد شيَّده اصحابهُ في القرون المتوسطة واتخذوا لبنائهِ ما عثروا عليهِ من الابنية السابقة . وقد ذكر العرب هذا الحصن منهم ياقوت الحموي في معجم البلدان (١ : ٤٩٣) قال: « بَتْرون (١ بالتحريك والراء حصنٌ بين جُبيل وأنفة على ساحل بحر الشام » وقال الادريسيُّ (طبعة غلدميستر ص ١٧) : « ومن مدينة جبيل على البحر الى حصن بترون عشرة اميال وهو حصن حسن »

وعلى مقربة من البترون في المكان المسمَّى مراح الشيخ ملعبٌ قديم من بناء الرومانيين لهُ مقاعد على شكل درج مستدير منحوتة في الصخر وكلُّ ذلك ظاهر حتى يومنا . وحول هذا الملعب قطعٌ من الرخام وحجارة منقوشة تراها مبثوثة في الارض يتخذها الاهلون للتكليس

---

١) كذا ضبطها ياقوت والادريسي . وسُمّت في تواريخ الصليبيين « Le Boutron » اما اليونان فكانوا يسمونها بُتريس (Botrys) وكان يقيم فيها اسقف (راجع الشرق المسيحي لِلوكيان »

وان سرتَ من البترون ليس بعيداً عنهـا الى شمالي نهر الجوز ترى كنيسة قديمة تُدعى كنيسة مار يعقوب بُنِيَت بأنقاض هيكل قديم . وعلى بعض حجارتها كتابةٌ يونانية طُمس اكثرها فلم يبقَ منها الّا حروف قليلة (١

وعلى مسافة بضعة امتار من هذه الكنيسة من جهة الشمال الغربي كنيسة اخرى منتصبة فوق اكمة تعرف باسم « سان سابور » وهي لا تزال على حال مرضية تجد في بنائها ما يذكّر بطريقة الصليبيين في الهندسة . ولهـذه الكنيسة عيدٌ يقيمهُ اهل البترون في اليوم الـ ٦ من آب وهو يوم عيد التجلي وعلى رأينا ان اسمهـا مصحَّف عن كلمتَين افرنسيتين معناهمـا الطور المقدَّس (Saint-Thabor) . اما سبب اطلاق هذا الاسم على الكنيسة المذكورة فهو لانها كانت لاحقة بالدير الذي شيده الصليبيون على جبل الطور . وكان لهذا الدير اوقاف عديدة واملاك واسعة منهـا في الكورة وقرب طرابلس (٢ نعم ان هذا المحلّ لم يُذكر في قائمة تلك الاملاك بيد ان اسم الكنيسة الاعجمي وشكل هندستها ووقوع عيدهـا في يوم التجلي كل ذلك يؤيد رأينا . ومهما كان من امر هذه الكنيسة لا شك انها تستحق الذكر لانها مثال حسن عن طريقة اهل لبنان في الهندسة الكنسيّة

٢٣ سَمَر جبيل

هي من اقدم قرى بلاد لبنان واعظمها شأنًا من حيث آثارهـا . موقعها شمالي جبيل وكانت في القرون المتوسطة احد مراكز الملّة المارونية استوطنوها فتحصَّنوا فيها لردّ هجمات اعدائهم وفيها كنائس عتيقة ذكرناها سابقًا . الكبرى منها مشيدة على اسم القديس نهرا وهي حسنة البنيان يصلي فيها القوم حتى يومنا . وعلى جدارهـا الخارجي كتابة سريانية ذهب الدهر بقسم منها مُفادها ان كاهنًا قُبر هناك . اما اسم الدفين وتاريخ وفاته فقد طُمسا . وكان رينان نقل هـذه الكتابة سنة ١٨٦٠ (ص ٢٤٦) وقد أخذنا موخرًا رسمها الشمسي فلم نكد نجد منها الّا الفاظًا قليلة . ولسمر جبيل كنيسة اخرى قديمة لم يبقَ منها غير ردمها

---

١) راجع بعثة فينيقية (ص ١٤٨)

٢) راجع المجلّة الفلسطينيّة الالمانيّة (ZDPV, X, 235)

واول ما يستدعي اليهِ نظرَ الداخل في سمر جبيل قصرُها المبني فوق اكمةٍ . وجدران هـذا البناء الجليل الماثلة ترتقي الى الاجيال المتوسطة فقط لكنَّ اركانهُ السفلى واساس بروجهِ وخنادقهُ المنحوتة في الصخر تدل على قدم عهده وعظم اثرهِ وترى لمدخلهِ عتبةً ذات درجتين منقورة في الصخر . ولا يبعـد ان الفينيقيين قاموا بهذه الاعمال فانهم كانوا مولعين بنحت الصخور كأنَّ عزمهم اشدّ صلابةً منها وكانوا مع ذلك يجعلون الصخر كمقالع يتخذون منهُ حجـارة ابنيتهم كالقلاع وغيرها . وفي داخل هذا القصر وعلى مقربة منهُ آبار وصهاريج عجيبة الصنع محكمة التجهيز بعيدة الغور كلهـا في الصخر الاصم لا نظنُّ ان الرومان مع جلَدهم واعمالهم الجبريَّة تولَّوا نَقرها بانفسهم

ومما يرتقي ايضاً في هذا القصر الى عهد قديم النقوش التي يراها الزائر عند جهتهِ الشمالية في اسفل الصخر الذي أُقيم فوقهُ البناء . غير انَّ هـذه النقوش دائرة يصعب تعيين زمنها ورسم صورتها

وفي سمر جبيل آثار أُخرى من العاديات منها المدافن الواقعة في شرقيّ القصر . وقد كُتب باليونانية فوق بعض قبورها ان امرأةً عمرها ١١٠ سنوات دُفنت مع ابنها في قبر واحد وتاريخ هـذه الكتابة في القرن الثالث للمسيح وهو حسن الرسم لا إشكال في قراءتهِ . وفيهِ دليل على سنّ طاعنة قلَّ ما يبلغها الشيوخ المعمَّرون . اما البالغون سنَّ الثمانين الى التسعين فعددهم ليس بقليل في لبنان تشهد على ذلك الكتابات منها كتابة لاتينيَّة محفوظة في كنيسة بيت خشبو يُستفاد منهـا انَّ بعض الشيوخ توفي ولهُ من العمر ٨٧ سنة (راجع ايضاً بعثة فينيقية ص ٣٨٥ و ٣٨٦)

فهذه الآثار التي وصفناها تنبئ بقدم سمر جبيل وخطورتها لكنَّنا لا نعرف شيئًا من تاريخها السابق ولعلَّها احدى القلاع التي خربهـا بُمبيوس عند فتحهِ بلاد الشام (ص ٣٤) والله اعلم . ومما اثبتهُ الدويهي في تاريخ الموارنـة (ص ٢٠٢) ما حرفهُ : « وفي سنة ١٦٣٠ في الخامس والعشرين من تشرين الثاني نهار الاحـد حدثت زلزلة مريعة . وفي الساعة الثالثة من الليل حلَّت في قلعة سمر جبيل وهدمت البرج الاوسط من جوانبهِ الاربعة وخرَّبت جميع مـا كان في القبو التحتاني المركَّب على البئر »

هذا وفي بلاد البترون عدة امكنة تستحقّ الذكر لآثارها فانّ الباحث يجد فيها من النواويس والنقوش ونحيت الحجارة ما هو دليل على اصلها القديم أخصُّها كفرحتنا ومسرح وشبطين وكفر شليمان التي تكرَّر ذكرها غير مرَّة في اثناء مقالتنا عن كنائس لبنان والحقّ يقال انّ العَمَلة الاقدمين قد احسنوا في هذه القرية نَقر صخورها . من ذلك ثلاث حُجر نقروها في الصخر على احسن هندام وآثار آلات النحت فيها مع قدمها بيّنة كأنها نُقرت منذ زمن حديث

وممَّا عاينّا في مسرح نقوشٌ محفورة في الصخر اكثرها دارس مطموس بقي منها صورة ثور و بقرة مسنَّمة وموقع هذه النقوش فوق اقبية عتيقة . وقد شاهدنا ايضًا تمثال شخص يُرجَّح كونهُ امرأة وهي لابسة ثوبًا رافلًا وفي يدها اليسرى رمّانة وعنقود عنبٍ

٢٤ قلعة الحصن

اذا ملتَ عن الساحل سائرًا من البترون لتتوغَّل في لبنان من جهة دوما رأيتَ بعد قليل صخرة عالية مكشوفة للنظر كأنها السارية المنحوتة نحتًا عموديًا وفوقها قلعة قديمة الآثار تدعى قلعة الحصن موقعها بين دير الموارنة المعروف بدير مار يعقوب وقرية بشعلي (١ . ومن رقي فوق هذا المرقب تمتَّع بمنظر غاية في البهجة والرونق فان العين تبصر غربًا البحر وسواحله وترى شرقًا القرى الممتدَّة الى جهات ارز لبنان . اما جهتا الشمال والجنوب فلا حاجز يحول دون مرأى سهولها . وليس لهذا المقام مجاز آخر الَّا من جهة بشعلي وهي الجهة التي عُني القدماء بتحصينها لتكون القلعة حريزة منيعة لا يقوى على فتحها العدوّ من كل انحائها

اما القلعة فان بقاياها ليست من العظمة والبهاء على شيء بخلاف ما يظن المسافر اذا ابصرها عن بعد . فان موادّها واخربتها لا تختلف عن غيرها ولا تنبئ بما اعتادهُ الفينيقيون والرومان من الابنية الجبّاريّة . وعندنا ان هذه الاطلال صرحٌ بُني في الاجيال المتوسطة فوق جدرانٍ اقدم عهدًا بقي منها بعض آثارها

---

١) راجع مقالتنا المعنونة « سياحة في بلاد البترون » المشرق ٢ : ٨٧٩

ومما يرى داخل هذا القصر آثار بيوت كان يسكنها السكّن سابقًا · وفي اسفل القلعة نواويس عديدة ومدافن نُحتت في الصخر الاصم وجد فيها الاهلون نقودًا ومصكوكات نادرة

ومن غريب ما شاهدناه في اعلى هذه القلعة حجر كبير وسطهُ مثقوب وهو منفصل عن الصخر الذي تحتهُ وفيهِ جدول للماء لا تظهر وجهة جريهِ · وقد اعملتُ الفكر لاعرف ما الغاية من نَصب هذا الحجر فلم يثبت لي الامر

وان استطلعنا طلع التاريخ لنستدلّ على اخبار قلعة الحصن وجدناه ساكتًا لا يفيدنا عن احوالهِ فتيلًا · لكن موقع هذا البناء يناسب ايَّ مناسبة للاعمال الحربيَّة كيف لا وهو يطلّ على قسم من اخصب معاطف لبنان فلا يبعد ان القدماء اتخذوا هذا المقام للدفاع عن مواطنهم ولعلهُ كان هنا قلعةٌ قديمة ابتناها الفينيقيون فاخربها بمپيُّوس القائد الروماني عند فتح بلاد الشام كما ذُكر آنفًا

اما « بشعلي » التي هي بقرب قلعة الحصن فلا نزيد في وصفها شيئًا على ما كتبناهُ سابقًا في المشرق في مقالتنا المعنونة «سياحة في بلاد البترون» (٢ : ٨٧٠) · وفي بشعلي رأس عمود على اربع جهاتهِ كتابة يونانيَّة خشنة ذهب اكثرها فلم يبقَ منها سوى بعض حروف لا يظهر لها معنى شافٍ (١ وانما وجودها هناك دليل على ان القرية سبقت عهد العرب · وقد جاء ذكر بشعلي في آثار الصليبيين وهم يدعونها « Betzaal » وكانت داخلة في حكم امير جبيل (٢

ومما رأينا في « ترتج » عند زاوية كنيستها صفيحة من الحجارة طولها مترٌ ونصف وعرضها سبعون سنتيمترًا وهي داخلة في الحائط عليها صورة ناتئة تمثل حيوانًا تهشَّم رأسهُ ولم يبقَ سوى ذنبهِ الذيَّال فلم نتثبَّتهُ اي حيوان هو

---

١) ولعلَّ هذه الكتابة من الاثار التي لم يجدها رينان بعد ان بحث عنها في شعلي كما اخبر بذلك في كتاب بعثتهِ الى فينيقية (ص ٣٥٧)

٢) راجع المجلة الفلسطينيَّة (ZDPV) الجزء العاشر ص ٣٥٦

٢٥ دوما

لا نرى داعياً لتكرار ما كتبناهُ سابقاً عن حسن موقع هذه البلدة وعظم شأنها حاليًّا (راجع المشرق ٢ : ٨٦٩)

اما عاديَّات دوما فهي نواويس ومدافن قديمة ثم كتابتان يونانيتان الواحدة منهما محفوره في الناووس الذي قرب عين القرية وهو اليوم حوض ماء يُستقى منهُ ففي وسطهِ دائرة كان فيها نقشٌ اخفى عليهِ الزمان . والكتابة المعلَّقة عليهِ كثيرة الخشونة كانَّ النقاش الذي نحتها لم يدرك معناها ولم يُحسن نقلها بل ترك منها الفاظاً فصار معناها مُغلقاً . فاذا تداركنا هذا الخلل واصلحنا ما يجب اصلاحهُ وجدنا ان تاريخ الكتابة سنة ٣١٧ للمسيح يُستفاد منها انَّ هناك دُفن كاستور وكان كاهناً وثنيًّا لإِله الطب اسكولاب وإِلٰهة الصحَّة (Ὑγιεία) . وفي آخر الكتابة تهديد لمن ينهكون حرمة هذا المدفن فان فعلوا وجب عليهم اداء ٢٠٠٠٠٠ دينار لبيت المال

فهذه الكتابة اليونانية من احدث ما نعرف من اثار الوثنية في لبنان . اما ما جاء فيها من الوعيد ضدَّ ناقضي حرمة القبور فمثلهُ كثير في الكتابات الضريحية القديمة (١ . وليس المبلغ المذكور في الكتابة هو من المبالغ الفاحشة لان الدينار كان وقتئذٍ قليل الثمن . وهذه الكتابة مهمة لتاريخ دوما القديم لان منها يُستفاد ان هذه البلدة كانت اقامت هيكلًا معتبرًا لإِلٰهي الصحَّة وان سدنة الهيكل كانوا من الذوات كما يظهر ذلك من الناووس الذي دُفن فيهِ هذا الكاهن . وهو جميل حسن النقش . ولعمري قد اصاب الاقدمون لما جعلوا هذه القرية مقاماً لمعبد الصحة لان علوَّها نحو ١١٠٠ متر فوق سطح البحر وهواءها الطيّب ومناظرها البهجة المطلَّة على سهول كفرحلدا المخصبة توافق الصحة وتنعش القوى

اما الكتابة الثانية فهي على حجر داخل في جدار كنيسة الروم الاورثدكس (المشرق ٢ : ٨٧٠) وقد اخذتُ رسمها بعد افراغ الجهد الجهيد الَّا ان هذه الكتابة

---

١) راجع Reinach: *Manuel d'épigraphie grecque*, p. 429

مطموسة لا يُفهم منها سوى كونها ضريحًا لعدَّة اشخاص ذهبت اسماؤهم الَّا واحدًا منهم . وقد درس ايضاً تاريخُ الكتابة فلم يَعُد لها شأن كبير

ومن قرى بلاد البترون التي تشتمل على بعض الآثار قرية « بقسميَّة » . فانَّا نقدّر انها كانت مزدانة بهيكل وثني في سالف الاعصار والكنيسة الحالية مبنية بموادّ ذلك البناء فترى حجارتها كبيرة حسنة النحت . وابواب الكنيسة اكثرها من ذلك المعبد القديم لها العتبات المنقوشة وجوانبها قطعة واحدة . وان دخلت الكنيسة وجدتَ آثارًا غير السابقة كالنقوش المحطّمة المعترضة في وسط البناء . ولو بحث الاهلون او نزعوا هذه البقايا لوجدوا بلا شك كتابات قديمة ترشدنا الى تاريخ القرية بيد انهم حتى الآن لم يقدموا على ذلك ومما رأيناهُ عتبة معبد السيدة الملاصق للكنيسة فانها تُبرز للعيان بقايا كتابة لم يمكنَّا قراءتها

وبقسميَّة من القرى التي احتلَّها الروم الملكيون زمنًا طويلًا كما سنبيّن ذلك في مقالتنا الآتية عن دير مار يوحنَّا مارون . والروم لم يسكنوا فقط جهات الكورة حيث كان عددهم وافرًا بل احتلّوا ايضاً قسماً من بلاد البترون التي تُعدُّ كمهد الامة المارونية . ولنا في كل ذلك تفاصيل نعرضها ان شاء الله عند سنوح الفرصة

٢٦ كفرحي ومدرسة مار يوحنَّا مارون

كفرحي مزرعة صغيرة موقعها فوق رابية جنوبي نهر الجوز على مسافة ثلاث ساعات من البترون في شرقيها . وكان لكفرحي شأن اعظم في ما سلف من الاعصار كما يُستدلّ على ذلك من الآثار القديمة وشواهد الكتبة من الموارنة

وفوق المزرعة كنيسة مار سابا الذي سبق ذكرها . وفي ظنّنا انها شُيدت في مكان معبد وثنيّ قديم . وعند مدخل الكنيسة قطعة نصبٍ نُقش في واجهتهِ اكليل الّا انهُ خلوٌ من الكتابة واذا دخلت البيعة رأيت صفيحة عليها كتابة ذهب قسم منها وهي ترتقي الى سنة ٢٧٠ للمسيح . ومضمونٌ الكتابة ان رجلين يُدعى احدهما مونيموس (Μονιμος) والآخر سَيناس (Σαινας) اقاما هذا المذبح لاحد الآلهة لم يبقَ من اسمهِ الّا حروفه الاولى الثلاثة (ΔΙΙ. ΑΡΑ.)

واسم مونيموس نفسهِ اسم إله كان يتعبَّد لهُ خصوصاً اهل الرها يشركونهُ بمعبود آخر يدعى عزيزًا (Ἄζιζος) . الا ان عبادة ذاك الاله لم تكن محصورة في الرها ترى ذكره في الكتابات المكتشفة في حوران . وقد وجدنا اسمهُ مدوَّنًا في عدَّة آثار وقفنا عليها في حمص ثمَّ عُنينا بنشرها . وما اسم مونيموس على رأينا سوى تصحيف لاسم آرامي يوافقهُ في العربية « منعم » من الاسماء الحسنى عندهم كما يستدل على ذلك بتقديم العبد فيقولون « عبد المنعم » وهو اسم بعض المقدمين في بشرّاي في القرن الخامس عشر (١ . ومما يؤيد رأينا بل يزيل عنهُ كل شبهة ان العلّامة رينه دوسّو (R. Dussaud) وجد اسم « منعم » (מנעם) بين اعلام كتابات الصفا (٢ وكانوا يريدون بهِ الاله الكريم الوهّاب . وبمثل هذه الصفات وصفهُ الكتبة اليونان والرومان عند ذكرهم هذا الاله ورفيقهُ عزيزًا

اما مدرسة مار يوحنا مارون فلا تبعد عن كفرحي اكثر من ربع الساعة مقامها شرقي القرية . والتقليد المحلّي مُجمع على ان هذه المدرسة بُنيت في مكان الدير الذي بناهُ القديس المذكور في نهاية القرن السابع . قيل ان هذا البطريرك زيّن كنيسة ديرهِ بذخيرة ثمينة وهي هامة القديس مارون الناسك الشهير ابي الطائفة المارونية وان الدير دُعي مدَّةً من جرّاء ذلك دير رأس مارون (ܪܝܫ ܡܪܘܢ). وبقيت الذخيرة هذه في مكانها الى سنة ١١٣٠ فنقلها احد الرهبان البنديكتيين الى مدينة فوليني من اعمال ايطالية

ولا يخفى على من لهُ المام بتاريخ الطائفة المارونية كم هي نادرة التفاصيل الراهنة عن اصل هذه الامة الجليلة واحوالها في الاعصار الاولى بعد ظهورها . وغاية ما نعرفهُ من هذا القبيل قد بلغنا بالاحاديث الشفاهية التي لم تدوَّن الَّا منذ عهد قريب فلا بدَّ اذًا من شواهد كتابية قديمة لتؤيد هذه الاخبار المنقولة (٣ . على اننا لا

---

١) راجع تاريخ الطائفة المارونية للدويهي (ص ١٤١) وروايتنا المعنونة « حبيس بحيرة قدس »

٢) راجع كتابهُ Voyage archéolog. au Safa, N° 78,83,412

٣) فليراجع الكتاب الذي نشره حديثًا سيادة المطران يوسف دريان المعنون « لباب البراهين الجليَّة عن حقيقة امر الطائفة المارونيَّة

نيأس من اكتشاف مثل هذه الآثار الصادقة في زمن توفرت فيهِ الوسائل وانفتحت الخزانات الادبية وظهر للعيان ما لم يكن قبلًا في الحسبان. واملنا اوطد في اهل هذه البلاد فانهم اذا بحثوا لدى الخاصّة وفي الاديرة القديمة وفي خزائن الدار البطريركية او الكراسي الاسقفية القديمة لا نشك ان مساعيهم تتكلّل بالنجاح فيجدون في الزوايا خبايا (١

واذا عدنا الى تاريخ دير مار يوحنا مارون لا نجد لذكرهِ اثرًا قديمًا. وانما يروي الرواة ان منشئهُ عاش ودُفن فيهِ وقد عُني مرارًا اصحاب الهمّة بالحفر فيهِ لعلهم يقفون على قبرهِ. لكنَّ هذه الابحاث لم تأتِ حتى الان بثمرة مع ما وُجد هناك من المدافن

وفي سلسلة بطاركة الطائفة المارونية (المشرق ١ : ٢٥١) ان خلفاء مار يوحنا مارون سكنوا هذا الدير وفيهِ قُبر كثيرون منهم. ولهذا المقام ذكر في تاريخ الصليبيين (٢ يدعونهُ مار مارون كفرحي (S. Maron de Caphrai)

ثم نُقل الكرسي البطريركي الى دير سيدة يانوح وبقي فيهِ الى عهد البطريرك دانيال الشاماتي فأعيد الى كفرحي. ثم جرى بعدئذٍ على هذا الدير ما جرى من حروب ونكبات وبلايا كادت تذهب بآثارهِ

قال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٤ (ص ٢٠٧) : وبسبب كثرة الحكّام والاغراض كثر الظلم وكلّفوا الرعايا بدل المال مالَين وقبضوا على الرؤساء في القرى... وكان القس يوحنا الاجبعيّ مترئسًا على دير القديس مارون في قرية كفرحي فوشى بهِ اهل بقسميّة الى ابن سيفا حتى قبض عليهِ واهانهُ وسامهُ ما هو فوق طاقتهِ فترك الدير من ثمَّ وارتحل ومن ذلك الوقت خرب الدير وخربت بقسميّة التي كانت لطائفة الملكية »

وبقي ذلك الدير خرابًا صفصفًا الى ان جدّد البطرك يوسف اسطفان بناء ما كان متهدمًا فيهِ في اواخر الجيل الثامن عشر واسكن فيهِ بعض رهبان. وكان ذلك بعد

---

١) وممّا نُشر مؤخرًا في هذا الصدد كتاب الخوري نو الافرنسي (Opuscules maronites) وكذلك مرّ في المشرق (٢ : ٢٦٥، ٣٦٥، ٤٥١) بعض مقالات في هذا الصدد

٢) راجع Rey : *Colonies franques*. p. 359

رجوع البطرك المذكور من الكرمل وعند زيارتهِ الرعيَّة فلمَّا مرَّ على الدير المذكور لم يجد سوى آثار دارسة واطلالٍ طامسة فحرَّكتهُ الغيرة الدينيَّة على ارجاعهِ الى رونقهِ القديم فوجَّه اليهِ القس يوسف الحدَّاد والقس الياس من ريفون ليعتنيا بتجديده

وفي ابَّان زيارة المطران جرمانوس ثابت لابرشيتهِ جُبيل والبترون رأى افتقار رعيتهِ الى المدارس فارتأى تحويل الدير المذكور الى مدرسة يتعلَّم فيها من كل مقاطعة في لبنان ولدانٍ . فصادق البطريرك يوحنا الحلو على هذا المشروع في سنة ١٨١١ وعضدهُ القاصد الرسولي السيد لويس غندُلفي

وفي سنة ١٨١٨ اجمع البطريرك والاساقفة على ان يجعلوا مقام مطران جبيل والبترون في مدرسة مار يوحنا مارون . او الاحرى ان يقال ان ابرشية جبيل والبترون صارت ابرشية البطريرك الخاصة فيجعل لهُ فيها نائباً احد الاساقفة الذي مركزه في مدرسة مار يوحنا مارون . وممَّن زادوا هذه المدرسة رونقاً ووسَّعوا نطاق تعليمها الطيب الذكر المطران يوسف فريفر الذي ترأَّس عليها مدَّة وافرغ كل مجهوده في نجاحها فصارت في طبقة المدارس الثانوية التي يفتخر بها الوطن منذ نصف قرن . وقد عزَّز المرحوم المنسنيور بطرس ارسانيوس رئيسها السابق دروسها بعد وفاة السيد يوسف فريفر فبلغت في هذه الايام اوج عزّها فحفلت بالتلامذة وازدهت بالعلوم . ومما سرَّنا انَّ طلبتها لا يدرسون فقط اللغة العربيَّة واللغات الاجنبية بل يتقنون ايضاً اللغة السريانية فيكتبونها ويتكلَّمون بها (١ . ولولا خوفنا من ان نخرج عن الحدود التي تحرَّيناها في مقالتنا لانبسطنا في وصف هذه المدرسة ومحاسنها لا زالت راقيةً في معارج التقدُّم والفلاح

٢٧ جبَّة بشرَّاي

بلغ بنا تتبُّعنا لآثار لبنان الى مشارف هذا الجبل وها نحن ذا في معاملتي اهدن

---

١) ونغتنم هذه الفرصة لتقديم فروض الشكر لرؤساء مدرسة مار يوحنا واساتذتها الافاضل لما لقينا عندهم من الحفاوة والاكرام كلَّما حللناه في رحلتنا الى بلاد البترون . كما اننا نشكر لحضرة الخوري بولس طعمه لطفهُ لما افادنا بهِ من المعلومات عن كفرحي ومدرستها وقرى بلاد البترون . و بعض الفوائد التي دوَّناها في مقالتنا قد استفدناها من فضلهِ

وبشرّاي ۔ على انّ هذه الجهات دون السواحل الفينيقية من حيث مآثرها القديمة وانما هي معتبرة لسببٍ آخر « لكونها اصبحت مهداً للطائفة المارونية » (قال ذلك رينان) فنمت هذه الامة الكريمة في ارجائها واتسعت منذ نحو ١٢٠٠ سنة

اما اذا ضربتَ صفحًا عن نشأة الموارنة في تلك الاصقاع فلا تكاد تعثر على امر ذي بال يستدعي التفات العلماء اليها ۔ وكانت بلاد بشرّاي في سالف الزمان قليلة الاهلين تمتدُّ في معاطف جبالها غابات الارز الباسقة ۔ ومن المحتمل ان تكون ظهرت فيها بعض القرى ومن جملتها بشرّاي ۔ لكن الامر محمول على الحدْس فقط ۔ ولا احد من العلماء حتى الان وجد فيها اثرًا يرتقي الى عهد اليونان او الرومان

اما اسمها بشرّاي ويكتبهُ البعض بشرّة وبشرّي فقد اختُلف في معناه ۔ قيل (١ ان اصلهُ بيت الشرى يراد بهِ بيت عشتروت ۔ فان صحّ هذا الاشتقاق دلَّ اسمها على قرية عريقة في القدم عبد فيها اللبنانيون إلهة السماء الفينيقية كاهل جبيل

والمرجّح ان مؤرخي الصليبيين ارادوا هذه البلدة في تآليفهم لما ذكروا قريةً يدعونها Buissera و Bussera وهي من القرى التي كانت لاحقة باملاك صاحب طرابلس واليها تُنسب احدى الأُسر الفرنجيّة الشريفة كما روى « راي » في كتاب مستعمرات الفرنج (٢ ۔ اما تاريخ الامة المارونية فانهُ يجعل في بشراي وجوارها الحوادث التي جرت في اوَّل ظهور الطائفة غير انَّ هذا التاريخ لم يدوَّن قبل ابن القلاعي في اواخر القرن الخامس عشر

ومما ذكره صاحب اخبار الاعيان (ص ٢٠) انَّ مولد القديس صفرونيوس بطريرك اورشليم في القرن السابع كان في بشرَّة وقد كان سألنا احد السائلين في المشرق (٤ : ٣٠٨) هل صحيح ان هذا القديس وُلد في « بسري » كما يزعم اهل التقليد ۔ ولا نعلم اي التقليدين هو الصواب أبشرّة كما قال الشيخ طنوس الشدياق او بسري كما زعم السائل وعلى كل حال فقد بيَّنا هناك ان القديس صفرونيوس وُلد في دمشق لا في لبنان واستندنا في قولنا الى شواهد لا تُنقض

ولنا في تاريخ اهدن ما يزيد ثقتنا بقدم عهدها ۔ على اننا لا نسلّم بالتقليد الذي

---

١) راجع كتاب فلسطين لإبرس وغوتي Ebers und Guthe: *Palæstina* II.448

٢) راجع Rey: *Colonies franques* p., 363 . وراجع ايضاً ZDPV,X, 211, 204

يجعل الفردوس الارضي في اهدن (١ . ومن روى ذلك يزعم ان اهدن هي جنّة عدن وان اسمها مشابه للعبرانية עדן . وهذا قول لا سند لهُ وكذلك قد وهم الذين ظنوا ان اهدن هي المدينة التي ذكرها بعض القدماء ودعاها Παράδεισος او Τριπαράδεισος لانَّ موقع هـذه المدينة في جنوبي حمص على مسافة ست ساعات من حمص ونصف الساعة من ربلة وكانت قرب العاصي في مكان قرية جوسيَّة الجديدة كما اثبت الامر السائح العلامة موسيو دوسو (راجع المشرق ٣ : ٣٤ , ٣٥)

وقولنا هذا لا يبخس شيئًا من حقوق اهدن ونحن اول من يقرّ بحسن موقع القرية وطيب هوائها وجمال مناظرها الفتَّانة اما الادلَّة على قدمهـا فكتابات ثلاث وجدت فيها اثنتان منها باليونانية والثالثـة بالسريانيَّة . فالكتابة اليونانية الاولى قد طمسها الدهر ولم يُبقِ منها الّا سطرين في آخرها وهناك تاريخ تسطيرها وهي السنة ٥٨٤ للاسكندر توافق السنة ٢٧٢ م . والكتابة اليونانية الثانية مرقومة على قـبر مجاور لكنيسة القديس ماما . وهي مطموسة لا يسمح سوء حالها من تفسيرها وليس لهـا تاريخ ظاهر وفي رأسها صليب صغير يعلوها ولكن هذا لا يكفي لان ننسب الكتابة للنصارى لانهُ امكن المسيحيين ان يحفروا هذا الصليب بعد ذلك بقرون عديدة . وقد اخذنا رسم هاتين الكتابتين عن الحجر ولكن لم يمكنّا ان نصلح في شيء مـا اثبتهُ رينان في كتاب بعثة فينيقية . وهو ايضاً ذكر الكتابة الثالثة المكتوبة بالسريانيـة بالحرف الاسطرنجلي وهذا تعريب ما بقي منهـا : « بسم الله الذي يُحيي الموتى في سنة ١ — للاسكندر . . . رقد ومات مرقس . . . »

وفي اهدن كنائس قديمة ذكرنا في مقالة سابقة ما لها من الخواصّ الهندسيَّة فلتُراجع

وترى على مقربة من اهدن عدَّة قرى كالحدث وحصرون وغيرهما من الضياع التي لا نجد فيها شيئاً من الآثار الناطقة عن قدمها . الا انها مذكورة في اخبار الطائفـة المارونيَّة كما نقلها الينا التقليد فيكون ابناء مارون اوَّل من خوَّل هذه الاماكن ذكراً تاريخيًّا ولعلهم هم الذين انشأوها فسكنوها والله اعلم

---

١) ذكر هذا التقليد العلّامة الدويهي في تاريخهِ الطائفة المارونية (ص ١١٦)

٢٨ أرز لبنان

لا يسعنا في وصف آثار لبنان ان نضرب صفحًا عن شجر اختصّ به هذا الجبل دون غيره نريد شجر الارز الذي نُسب الى لبنان نسبةً غير منفصمة · لكننا لا نبسط الكلام فيهِ الّا لنورد ما يفيدنا عنهُ علمًا تاريخيًّا وأثريًّا وندع لارباب الطبيعة ما هو أحقُّ بوصفهم

غنيٌّ عن البيان انّ الارز المذكور في الاسفار المقدَّسة هو هو ارزُ لبنان كما تشهد تسميتهُ العبرانية والعربية التي لم تختلف منذ القدم حتى الان · وكذلك يوافق ارزنا الذي نعرفهُ ما جاء فيه من الاوصاف في الكُتُب المنزلة مثل بُسوقهِ (اشعيا ٢ : ١٣ حزقيال ٣١ : ٣ و ٨ عاموس ٢ : ٩) وامتداد اغصانهِ الفَنْواء الوارفة الظلّ (حز ١٧ : ٢٣) ورائحتهِ الراتينجيَّة التي تعطّر الارجاء (نشيد ٤ : ١١ هوشع ١٤ : ٧) وحسنهِ الذي يجعلهُ فخرًا للبنان (اشعيا ٣٥ : ٢ و ٦٠ : ١٣) ووفرته في هذا الجبل (مز ٩٢ : ١٣ و ١٠٤ : ١٦ اشعيا ١٤ : ٨) قال حزقيال (٣١ : ٣ — ١) ملخصًا كل هذه خواصّ الارز وهو يشبّه بهِ ملك اشور : « هوذا اشور ارزة بلبنان بهيجة الافنانْ غبياء الظلّ شامخة القوام وقد كانت ناصيتُها بارزةً بين اغصان ملتفَّة · المياه عظَّمتها والغمر رفعها · انهارها جرت من حول مغرسها ومجاريها ارسلتها الى جميع اشجار الصحراء فلذالك عند نشأتها ارتفع قوامها فوق جميع اشجار الصحراء وامتدَّت فروعها من كثرة المياه · في اغصانها عشَّشت جميع طيور السماء وتحت فروعها ولدت جميع وحوش الصحراء · وفي ظلها سكنت جميع الامم الكثيرة وصارت بهيجةً في عظمتها وفي طول عَذباتها لانّ اصلها على كان مياهٍ غزيرة · · · فكلُّ شجرٍ في جنَّة الله يماثلها في بهجتهِ فاني صنعتُها بهيجةً بكثرة عذَباتها فغارت منها جميع اشجار عدن في جنَّة الله » فللهِ من وصفٍ يطابق الواقع لاسيا في عهد النبيّ اذ كانت كل قمم لبنان مكلَّلة بغابات الارز · وفي قول حزقيال احسن تفنيد لاراء احد المحدثين من الفرنج واسمهُ اوجين دي لاسال (١ الذي زعم انّ الارز غُرس في لبنان على عهد السلطان صلاح الدين يوسف الايوبي

(١ راجع كتابهُ Pérégrinations ou Voyages. *Paris*, 1840. 1, 132

هذا والأرز خشب صلب صقيل اصفر فاقع ذو خطوط حمراء عَطِر الرائحة لا يفعل فيهِ الزمان ولا تقربهُ الأَرَضة والسوس ولذلك اعتبرهُ قدماء البنَّائين (راجع سفر الملوك الثاني ٧:٧ و ١ اخبار ١٧ : ٦ واش ٩:١٠ وارميا ٢٢ : ١٤) واستعمالهُ منذ عهد عهيد في الابنية كان اعظم الاسباب التي أدَّت الى ملاشاته

وقد ذكر الطبيعي بلينيوس (١ ارز سوريَّة كخشب لا يصيبه الفساد وروى انَّ سقف هيكل ديانة في افسس الذي التهمتهُ النيران بعد تشييده بنحو ٤٠٠ سنة كان من هذا الخشب . وكذلك كان قدماء الشعراء يشبهون الاعمال المخلَّدة بالارز (٢ . ومما يشهد لهذا الشجر بالبقاء انَّ لايَرْدْ (Layard) وجد بين عاديَّات اشور نَزيرهبال في نمرود اخشاباً من الارز صبرت على آفات الدهر نيفاً و٢٧٠٠ سنة فاخذها واعاد صقلها فكانت كأنها قُطعت حديثًا . وفي المتحف البريطاني قطع من هذه الاخشاب القديمة حسنة المنظر صفراء اللون بارزة العروق . وقد أُلقي شيء منها في النار ففاح عرفها الذي اطرأهُ القدماء (٣

اما استعمال الارز في البناء فكان متنوعًا يتخذهُ المهندسون لعتبات الابواب وعوارضها وسقوف البيوت (راجع سفر النشيد ١ : ١٤ و ٨ : ٩ وارميا ٢٢ : ١٤ وصفنيا ٢ : ١٤) بل ربما التجأوا الى الارز لتصفيح جدران القصور والهياكل بالواحه . وكذا فعل سليمان في هيكل اورشليم قال في سفر الملوك الثالث (٦ : ١٥ — ١٧) انهُ « بنى على جدران البيت من داخلٍ الواحَ أرز . . من ارض البيت الى جوائز السقف » وقد احبَّ القدماء ان يصفّحوا الحدران بهذه الالواح لانَّ حجارة فلسطين وسورية هي في الغالب كلسيَّة نخرة لا تروق العين كالرخام والصوَّان والحجر المانع فلتلافي هذا الخلل كانوا يصفّحون الجدران بصفائح من ذهب او فضة او خشب ثمين وكانوا يفضِّلون الارز لبقائهِ . وكان داود قبل ابنه سليمان طلب من حيرام ملك صور ان يُرسل لهُ كميَّة من اخشاب الارز ليبتني بها بلاطهُ في اورشليم. فلمَّا صار الامر الى

---

١) راجع تاريخهُ الطبيعي (ك ١٣ : ١١ و ١٦ و ٧٦ و ٧٩)

٢) راجع Perse, *Satires* 1, 41 و Horace, *Epist. ad Pisones*, 32

٣) راجع الشاعر ڤرجيل Eneid. VII, 13 والتاريخ الطبيعي لبلينيوس ك ١٣ ف ١ وتأليف لايَرْد Niniveh and Babylon, 367

ابنهِ فاراد ان يشيّد للرب هيكلًا يُعدّ من عجائب المعمور فضّل الارز على سواه لتتميم هذا المشروع الخطير

وكذلك صفّحوا داخل الهيكل الثاني في اورشليم بخشب الارز (١ وهكذا ايضاً جعلوا سقف الهيكل الذي جدده هيرودس (٢

امَّا الابنية الاولى المسيحية التي شيدتها الملكة هيلانة مثل قبة القبر المقدس وسقف كنيسة بيت لحم فقد اتخذوا لها ايضاً خشب الارز الى ان جددها الصليبيون . هذا فضلًا عن انهم كانوا يستعملون خشب الارز فينحتونها كما قال تماثيل واصناماً اشعيا (٤٠ : ١٤) وقد قال مثلهُ ايضاً كل من پوسانياس و پلينيوس (٣

ثم ان خشب الارز كان معتبرًا ومستعملًا في خارج سورية وفلسطين لان سنحاريب ملك اشور يفتخر بانهُ صعد جبال لبنان وقطع منها شجر الارز (٤ وفي الكتابات المسماريَّة ايضًا يفتخر ملوك بابل واشور بمثل هذه المأثرة لانهم كانوا في الغالب يتقاضون جزيةً من خشب الارز . وكثيرًا ما يردُ في النصّ الاشوري ذكر الارز موصوفاً بطيب العرف ومقولًا عنهُ ان ملوك نينوى وبابل كانوا يتخذونهُ جسورًا او روافد في هياكلهم وقصورهم (٥ وكانوا يكثرون جدًّا من استعمال الارز حتى ان النبي اشعيا (١٤ : ٨) في معرض كلامهِ على سقوط بابل يصوّر الارز فرحًا محبورًا بخرابها . وكذلك كانت قصور ملوك فارس في عاصمتهم من خشب الارز (٦

وقد عرف المصريون الارز وخواصهُ العجيبة وكان الفينيقيون ينقلونهُ الى سواحلهم بحرًا (٧ فاتَّخذه الفراعنة لابنيتهم الفخيمة كالقصور الملكيَّة والهياكل الدينيَّة وقد اقتدى بمثلهم الملوك السلوقيون في سورية وقد اصطنعوا منهُ ايضًا اثاث بيوتهم لعدم فساده . وذاك ما حدا الى ان يحثوا من نشارتهِ على موتاهم في تحنيطهم ويطلوا

---

١) عزرا (٣ : ٧)
٢) يوسيفوس في حرب اليهودية (٥ : ٥ و ٢)
٣) التاريخ الطبيعي (١٣ : ١١)
٤) ملوك رابع (١٩ : ٢٣) واشعيا (٣٨ : ٢١)
٥) Schrader مجموع كتابات اشورية وبابلية (ك ١ ص ٦٨ و١٠٨ و١٤٠) الخ
٦) راجع المؤرخ اللاتيني كورتيوس روفوس (٥ , ٢٢)
٧) راجع تاريخ الصناعة في القدم لپيرو (Perrot) الجزء الاول (ص ٥٦٧)

براتينجهِ خارج التوابيت كما يشاهَد ذلك في مدافن المصريين

*

فيؤخذ من كل ما سبق ان تجارة الارز اللبناني كانت متسعة النطاق . على اننا لم نذكر الّا قسماً صغيرًا من الابنية التي كانت تجهَّز بهذا الخشب . فانَّ الادوات الحربيَّة والمجانيق كانت في الغالب تُصطنع من الارز . ولا شكَّ ان السدَّ الذي اقامهُ الاسكندر بين الشاطئ والجزيرة المبنيَّة عليها مدينة صور دخل فيهِ شيءٌ كثير من خشب الارز

وقد روى المؤَرخ ديودورس (ك ١٩ ف ٥٨) ان انطيغون الملك حاول حصار المدينة المذكورة في سنة ٣١٥ ق م . فاراد ان يجهِّز لهُ اسطولًا قويًا فأتى بثمانية آلاف عامل عهد اليهم ان يقطعوا من ارز لبنان ما كان كافيًا لتجهيز ٥٠٠ سفينة حربيّة . فنُقل الخشب المقطوع على ظهر الف دابَّة الى مصانع صيداء وجبيل وطرابلس حيث أُنجز العمل . قال الراوي : « وكان الخشب المذكور من الارز المرتفع القوام الباهر العظمة » فترى من هذا المثل الوحيد كم عاثت الحروب بارز لبنان . ولكن كم عبث بهِ من الحطَّابين غير الثمانية آلاف الذين ذكرناهم . ولو اردنا لأَوردنا امثلةً عديدة تؤَيد قولنا . ويؤخذ من رواية ديودورس ان كل قمم لبنان كانت تزدهي باشجار الارز من الشمال الى الجنوب يستدلّ على ذلك من ذكر المدن الساحليّة التي نقل اليها الارز لعمارة اسطول انطيغون . واذا استغرب القارئ وجود الارز جنوبيّ لبنان فليذكر خبر حيرام ملك صور المشار اليهِ سابقاً

ومما يؤسف لهُ ان الحكومة المحليَّة لم تسنّ السنن لقطع هذه الغابات بنظام . وعلى رأينا ان الرومان اول من فكَّر في هذا الامر الخطير كما يظهر ذلك من كتابات لأَدريان الامبراطور اوردناها مرارًا مفادها ان الحكومة لا تسمح بقطع اربعة اصناف من الاشجار (١ من جملتها الارز . ومع ما دهم الارز من العيث والفساد نرى المؤرخين الرومانيين يذكرون غاباتهِ الكثيفة من جملتهم تاقيتس المؤرخ (ك٥ ف ٦) . وروى اوسابيوس القيصري (ك ١٠) انَّ سقوف البيع كانت تتخذ عادةً من خشب

---

١) قد وردت هذه الكتابة في المشرق (١ : ٧٣٩) على خلاف هذه الرواية . والصواب ما ندونه هنا

الارز في القرن الرابع

على ان السّنن الرومانية لم تحفظ للبنان فخر غاباتهِ الّا زمنًا قليلًا فانّ پروكوب المؤرخ (١ يخبر عن يوستنيان الملك انهُ بحث البحث الطويل قبل ان يجد الارز الضروري لتشييد كنيسة مريم الملكيَّة في اورشليم . وبعد التنقيب والتفتيش عثر البنَّاؤون على ما كانوا يطلبون اي سواري باسقة الطول كافية لعوارض سقف البيعة

واذا تتبَّعنا تاريخ الارز من ذاك الحين وجدنا يد التلف تسطو على غاباته حتى لم تكد تترك منها غير اثر بعد عين . فقد ذكر تاوفان المؤرخ في تاريخ سنة ٦١٤٠ للعالم ان معاوية اول خلفاء بني امية ابتنى ١٧٠٠ سفينة شراعية واتُّخذ موادّها من جبل لبنان . ولم تمضِ سنوات قليلة بعد ذلك حتى جهز ايضاً اسطولًا ثانيًا اكثر عددًا واشد هولًا من الاول وقد حذا حذوه غير واحد من الخلفاء في مسألة الانشاءات البحرية وكانوا يجعلون اخصّ دور الصناعة وهي التي تسمَّى اليوم بمحلَّات الورشات او الترسانات في مدينة طرابلس نظرًا لقربهـا من غابات الارز . ومما عاون ايضًا على تلف الارز وكان من جملة اسباب قطعه صناعة استخراج الحديد ومعالجتـه التي كانت اثناء القرون المتوسطة شائعة في كثير من نواحي لبنان كما يؤخذ من تاريخ ابن بطوطة والادريسي والقلقشندي . ثم ان الجهات التي أُقيمت فيها مسابك الحديد وكانت في مبادئ القرن التاسع عشر زاهيةً بالغابات والاحراج الملتفَّة أصبحنا ولا نرى فيها اليوم نبتةً خضراء . فبهذه الطريقة والحالة هذه نستطيع ان نعلّل سرعة فنـاء الغابات في جبل لبنان

اما الان فلم يزل شجر الارز موجودًا في اربعة اماكن من لبنـان لانك تجد منهُ اولًا في شمالي لبنان بين قريتي الحـدث ونيحا غابة يبلغ طولها نحوًا من ساعة ونصف . نعم ان اكثر اشجارها فتيَّةٌ وليس في كل اماكن الغاب بملتفة ولكن اذا اتخذ ما يلزم من الاحتياطات لصيانتها لا تلبث ان تصير بتمادي الايام حرجًا من الطف الاحراج وآنقها

وثانيًا في اعالي قرية سير ببلاد الضنيَّة في اعالي وادي النجاص فهناك كثير من

---

١) راجع كتابهُ .De Ædif., Justiniani (ك ٥ ف ٦)

شجر الارز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن مساواة البحر . وتجد الارز ايضاً بين سير ونبع السكّر ثم في الغابة الواقعة خلف وادي جهنّم (١ والقوم في تلك الناحية يسمُّونهُ تنوب (٢

ثالثاً في لبنان لفيف ثالث من شجر الارز لا يعرفهُ الّا القليلون ثابت في الجبال المشرفة على قرية الباروك وعلى مسافة ساعة ونصف من الجنوب الشرقي وهو هناك بهيئة غابة غبياء تمتدّ على مسافة ساعةٍ طولًا غير ان شجر الارز في المحل المذكور يوجد ألفافًا ينفصل بعضها عن بعض في الغالب بمسافات خالية او مشغولة باشجار أُخرى من جملتها السنديان وهو من نوعِ السنديان الذي ينبت في شمالي اوربة واهل البلاد يسمُّونهُ اللكّ ويسمون الارز الأُبهل . وارز الباروك بوجه الاجمال فتيّ ولكن قد تُصادف فيهِ بعض اشجار عتيقة غير انها اقلّ سموقًا وارتفاعاً من الارز الموجود بناحية بشراي لان ثقل الثلوج في مثل هذه النواحي العالية كثيرًا ما يكسر قمم الشجر كما ان شدَّة الريح تحنيها حتى تجعلها منبسطة كالمظلّة على هوى الريح . فضلًا عن ان الجذوع تتفرَّع عادةً الى فروع قصيرة عظيمة وكبيرة . اما متى كانت الشجر مجتمعةً لفًّا واحدًا فترى جذوعها سامقةً مستطيلة وخاليةً من الفروع غير انها تكون اقل ثخانة نظرًا لشدَّة قربها بعضها من بعض . على ان ارز الباروك بما فيهِ من الشجر الكبير والصغير والفتيّ الثابت على اصول القديم يمثل للعين غابةً حقيقية اكثر من ارز بشرّاي

ولكن حياة هذه الغابة الجميلة نراها لسوء الحظ مهدّدةً كل ساعة بالفناء والدمار لانها لما كانت ملكًا لقرية الباروك كانت بلديتها تأذن بالقطع منها لقاء بعض دريهمات تنتفع بها فمن ثمَّ نستلفت الى هذا الامر انظار الحكومة اللبنانية

اما اشهر لفيف من شجر الارز فغابة بالقرب من قصبة بشرّاي وموقعها على علوّ ١٩٢٥ مترًا فوق مساواة البحر في سفح الجبل المعروف بظهر القضيب . والتربة النابت فيها الشجر المذكور كلسيَّة ولكن الورق الذي يتساقط منهُ ادى شيئًا فشيئًا الى

---

١) وقد ذكر ارز الضنية الرحالة سيتزن (١ ص ١٧٩)

٢) راجع المجلّة الفلسطينية الانكليزية سنة ١٨٩٣ (ص ٢٣٠)

تكوين قشرة من التراب الاسود · وفي قلب هذه الغابة كنيسة صغيرة للموارنة يقيمون فيها الاحتفالات كل سنة يوم عيد التجلي

واعظم شجر الارز نابت في جوار الكنيسة المذكورة ومنهُ ارزة يبلغ محيط جذعها اربعة عشر مترًا و٥٦ سنتيمترًا ثم ارزة أخرى تقاربها في هذه الضخامة· والارزتان المذكورتان هما اقدم شجر الغاب وقدَّر بعضهم ان عمرها لا يقلّ عن ثلاثة آلاف سنة (١ · قال بذلك الجيولوجي الشهير الدكتور فراس الذي بنى حسابه على العقد المختلفة الموجودة في الشجرتين

واكبر ارتفاع تبلغهُ هذه الشجر لا يتجاوز ٢٥ مترًا وفي جملتها شجرات يتراوح ارتفاعها بين اربعة عشر واثنين وعشرين مترًا والباقي يقلّ ارتفاعهُ عن اربعة عشر مترًا

واما جملة شجر الغابة فهو نحو ٣٩٧ شجرة يدخل فيها الشجر الصغير الذي لا يتجاوز ارتفاعهُ سبعة امتار وهو مما وقَّف الشجر الكبير في سبيل نموه مانعًا عنهُ الهواء اللازم لذلك · وفي الغابة ايضاً شجرات اشتدَّ قربها الى بعضها كثيرًا حتى تلازَّت جذوعها واصبحت كأنها جذع واحد

ومن يقابل بين اخبار السيَّاح والجوَّالة الذين زاروا هذه الغابة يَرَ ان ارز بشراي قد زاد عددًا في ايامنا · لان الارز المذكور كان في القرنين السادس عشر والسابع عشر قد تناقص بل اوشك ان يتلف لولا عناية بطاركة الموارنة الذين تهدَّدوا بالحرم كل من يمدّ اليهِ يدًا عادية

واول من تكلَّم عنهُ هو بيلون (٢ الافرنسي وعدَّ منهُ ثمانية وعشرين ارزة قديمة · ثم السائح الالماني فورير فون هايمندروف (٣ سنة ١٥٦٦ وعدَّ منهُ خمساً وعشرين ارزةً · ثم العشَّاب راولف (٤ الذي زاره سنة ١٥٧٥ ولم يعدَّ منهُ غير اربع وعشرين

---

١) راجع المجلة الفلسطينية الالمانية (ZDPV) مجلد ١٠ ص ٩١ وكتاب ايبرس وغوته (مجلد ٢ ص ١٤) المعنون Palestina im Wort und Bild

٢) Belon

٣) Fürer von Haimendorf

٤) Rauwolf

ارزة . ومن بعد هذا التاريخ كثر الذين اخبروا عن الارز من جملتهم الاب ايرونيموس دنديني اليسوعي قاصد الكرسي الرسولي الى الموارنة فانهُ زارهُ سنة ١٥٩٩ وعدَّ منهُ ثلاثًا وعشرين ارزة . ومنهم دارفيو (١ الذي زارهُ ١٦٦٠ ومنهم روجه وغيرهُ ولم يجدوا اذ ذاك غير اثنتين وعشرين شجرة . ومن بعد هؤلاء زارهُ المؤرخ دي لاروك سنة ١٦٨٩ فوجد فيهِ عشرين شجرة والانكليزي موندريل سنة ١٦٩٦ ثم بوكوك وعدَّ الاول ستَّ عشرة والثاني خمس عشرة فقط . غير ان الشجرات الفتية قويت لحسن البخت في اثناء هذه المدَّة على ان تنمو تدريجًا وتعوّض عن الارزات القديمة

وفي تضاعيف القرن الثامن عشر تجدَّدت الغابة شيئًا بعد شيء وترتقي اعمار الشجرات الفتيَّة الى هذا التاريخ ومن ينظر الى ما فيها من العقد يُقدّر ان اعمارها لا تزيد على قرنين

وفي ٢١ تموز سنة ١٨٠٥ جعل سيتزن عددها ثلاثمائة ارزة بنوع التقدير اذ يظهر انهُ لم يعدَّها واحدةً فواحدةً . وفي سنة ١٨١٠ احصاها بورخارد ثلاثمائة ارزة صغيرة وخمسين متوسطة وخمس وعشرين ضخمة وجملة ذلك ٣٧٥ ارزةً . وقد ذكر هذا العدد نفسهُ تقريبًا الجيولوجي فراس الذي زار الغابة سنة ١٨٧٤ مما يدلّ على ان عدد الارزات قد بقي في زماننا على حالهِ

ومع كل ذلك لا يمتنع تكثيرها وفرارًا من تكرار ما سبق لنا ايرادهُ في هذا الشأن نحيل القارئ على المشرق (١ : ٧٢٧ و٣ : ٩٧٦) حيث أفضنا الكلام في الارز وأقمنا المقابلة بين لبنان وجبال الألب

وقد مرَّ القول انَّ الارز يوجد ألفافًا متفرّقة ما بين كبيرة وصغيرة في اماكن مختلفة من جبل لبنان . وهذا يثبت انهُ يقوى على النجاح والنموّ فيهِ . بقي ان نقول ان الارز يوجد ايضًا في تعنايل التابعة البقاع وذلك في ارض الاباء اليسوعيين الذين امتحنوا زراعتهُ عندهم فافلحوا . اما في خارج لبنان فيوجد الارز بكثرة في جبال قرمانية وجبال جزائر الغرب وكل هذا من شأنهِ ان ينشط مساعي الذين

(١ D'Arvieux

يهتمون بحفظ الاشجار الجميلة التي كانت زينة وحلية لهامة لبنان منذ الدهر القديم (١

٢٨ الكورة

الكورة من اخصب انحاء لبنان تجمع بين ارفاق السهل والجبل . ولا مراء انّ الناس سكنوها منذ القرون الغابرة . ولو بنينا الحكم على ما يوجد من التشابه بين اسم قريتها « اميون » وعلَم آخر « امّيا » ورد ذكرهُ في مكاتبات تلّ العمارنة (المشرق ٣ : ٧٨٩) لصحّ القول انها اقدم مقاطعة في داخل لبنان احتلّها السكّان . وفي الكورة آثار ترتقي الى عهد اليونان والرومان كما سترى

٢٩ دار بعشتار — بزيزا — ناوس

اذا ما قطعتَ نهر الجوز الفاصل بين مقاطعتي الكورة والبترون لقيتَ بادئاً دار بعشتار . وهي قرية فيها شيء من بقايا القرون الوسطى منها كنيسة ذات حنيَّة محكمة العمل تكتنفها اخربة قديمة من العهد نفسه . غير ان اسم دار بعشتار جدير بالاعتبار . وهو مركَّب من لفظتي بيت وعشتار . وعشتار هذه هي إلهة الفينيقيين الشهيرة . فيستدلُّ بذلك على انَّ هذه القرية كانت سابقًا هيكلًا لعشتروت يعبدها فيهِ اهل لبنان

واذا يممتَ الشمال الشرقي بلغتَ بعد قليل قرية بزيزا ولعلَّ اسمها منحوت من بيت عزيز . فالباء اختصار لفظة « بيت » شائعة كبحديدات وبحمدون وبزمّار . اما عزيز فاحد الالهة الساميين مرَّ ذكره في المشرق (٤ : ٧٢٩) . وفي بزيزا هذه هيكل صغير قديم العهد حسن البناء لم يضعضعهُ حدثان الدهر . ولما تنصَّر الاهلون جعلوا الهيكل كنيسةً وأضافوا اليها حنايا آثارُها باديةٌ حتى اليوم . وهم يدعونها كنيسة ألعواميد او سيدة العواميد لما يزين واجهتها من الاعمدة . وليس هناك كتابةٌ تفيدنا عن امر هذا البناء القديم وغايتهِ

---

١) اما طريقة تكثيرها فراجع في شأنها ZDPV, X. 93

وقس على ذلك قرية ناوس التي موقعها شمالي شرقي بزيزا على مسافة اربعة كيلومترات منها . وهي فوق ربوة قريبة من عين عقريم الحالية . وما ناوس الّا تعريب اللفظة اليونانية ναος يراد بها الهيكل . واذا استثنيت بعلبك وآثارها الجبّاريّة لا تجد في كل لبنان ما يضاهي بقايا ناوس واطلالها اتساعاً وعظمةً . اما نقوشها فهي ايضاً دون نقوش بعلبك دقّةً واحكاماً وفيها مسحةٌ من الصناعة السوريّة . وهي من عهد الرومان كابنية بعلبكّ

وفي ناوس اخربة هيكلين كبيرين يلاصق احدهما الآخر يحدق بهما سوران رصبان وفي وسط كل منهما معبد قليل الاتساع تزينهُ اعمدة مُصمتة تراها على صورة هيكل حصن سليمان في جبل النصيريّة (١ واركان الابواب التي يُدخل منها الى حرم الهيكل من الحجارة الضخمة وهي منقورة على شكل درج . وآثار هذا الدرج باقية حتى يومنا . ولا ريب انهُ كان في الزمن القديم لهذين الهيكلين منظر يأخذ بالابصار . وكان الناظر يكشف من هذه الاكمة المرتفعة نحو ٦٠٠ متر فوق سطح البحر على كل الساحل من البترون الى ما وراء طرابلس . وهو يرى سهول الكورة ومزارعها الجميلة ممتدةً امامهُ

واذا لحظتُ النقوش التي على الهيكل الشرقي وجدتها خشنةً غليظة . وليس هناك من الحجارة الضخمة سوى مساند الابواب والصفائح المثلّثة الزوايا التي تعلوها . اما بقية الحجارة فهي متوسطة الكبر كحجارة افقا وقلعة فقرا . وفوق باب المدخل صورة كرةٍ مجنّحة تزينهُ وقد ألف الفينيقيون مثل ذلك في هياكلهم (راجع وصفنا لقرية اده في الصفحة ٦٨)

اما الهيكل الآخر الذي موقعهُ جنوبيّ غربي الهيكل السابق ففيهِ بقايا حسنة من نقوش ابوابهِ . وقد وجدنا بين ردم الهيكل تمثالاً نصفياً يمثل البعل وعلى رأسهِ شعاع الّا انّ نقشهُ خشيب ونظنّ انهُ سقط من الكوّة التي تعلو مدخل المعبد . ولهذا الهيكل سورٌ حجارتهُ جبّاريّة تشبه حجارة دير القلعة يبلغ طول بعضها ستة امتار

---

١) راجع مقالتنا الافرنسية المعنونة « في بلاد النصيرية » (Au Pays de Nosairis)

ونضرب صفحاً عن المدافن الجميلة والمقاطع المتسعة والنواويس المنقوشة التي تُرى حول قرية ناوس لئلا نعود الى ذكر آثار وصفناها مرارًا · على ان هذه المدافن والمقاطع تدلُّ دليلًا بيّناً على ان تلك الانحاء كانت في الاجيال الخالية عامرةً حافلة بالسكان وان لم يُفدْنا التاريخ من امرها شيئًا · وكذلك لم يكتشف احد حتى الآن بين هذه الاخربة كتابةً تفيدنا علماً عن اخبار السلَف

٣٠ اميون

قد سبق لنا القول عن اميون وقِدمها · اما الآثار الباقية فيها فقليلة لا يُعبأ بها · من ذلك صخر منحوت نُقرت فيهِ كوًى او مشاكٍ · ومنها كهفٌ يُرى اليوم تحت السراية الجديدة كان في ما سلف من الزمان مدفنًا ثمَّ جُعل معبدًا لذكر القديسة مارينا · وبقرب الكهف اخربة كنيسة عتيقة بقي منها حنيّتها وكان معبد القديسة مارينا تابعًا للكنيسة معدودًا كاحد مصلّياتها

وقد تكرَّر ذكر اميون في تاريخ الموارنة القديم · وكانت اذ ذاك مركزًا مهمًا للملكيين كما هي اليوم · وممن ذكروا اميون الشريفُ الادريسيّ في كتابهِ نزهة المشتاق امَّا الصليبيون فلم نجد اسمها في تآليفهم وهم يصفون مع ذلك غيرها من قرى الكورة (ويدعونها La Core) ومن املاكهم في هذه المقاطعة كفرقاهل (Caphrahael) وبتوراتيش (Boutourafig) وبطرومين (Bertrandimir) وبدبهون (Bethamum) وغير ذلك من الاسماء التي شوَّهها الفرنج باللفظ ويسهل اصلاحها

٣١ المُسَيْلحة

للبترون الى طرابلس طريقان الواحدة على ساحل البحر والاخرى جبليَّة فمن سار في طريق الجبل مجارياً لوادي نهر الجوز (وهي اليوم طريق العربات) وصل بعد مدَّة قليلة الى حصن يُدعى المُسيلحة وهو حرزٌ منيع موقعهُ فوق صخرة منتصبة على الوادي عمودياً · والوادي في هذا المكان ضيق حَرِج المنعطَف

اما تاريخ هذا البناء واخباره فمجهولةٌ لم يرشدنا اليها احد من الكتبة · ولعلَّ

القدماء في الاجيال المنصرمة كانوا شيّدوا هذه القلعة فجعلوها كمرقب لحركات العدو في مضيق لم يكن لهم ندحةٌ من الاجتياز في وسطهِ ذهابًا الى طرابلس وايابًا منها الى البترون. وما لا شبهة فيهِ انّ ابنية المسيلحة الحالية لا تتجاوز القرون المتوسطة ولا يبعد انّ الصليبيين رمّموها بعد خرابها ان لم يسبقوا الى بنائها. وقد بحثنا في اوصاف البلدان لقدماء العرب وفي آثار الصليبيين فلم نجد لاسمها ذكرًا

وفي كتاب رحلة المسفار دي لا روك (١ الافرنسي (De la Roque) انّ الامير فخر الدين هو الذي بنى المسيلحة. وعلى ظنّنا انها اقدم منهُ عهدًا وانّما نُسبت اليهِ كما نُسبت غابة بيروت مع كونها قبلهُ بزمن مديد (راجع مقالتنا في المشرق عن اصل هذه الغابة ١ : ٩٣٩)

واذا خرجنا من المسيلحة وابتعدنا عن الطريق المؤدية الى طرابلس فملنا الى الشمال لقينا شِعبًا يُفضي بِن توقّاهُ الى سطح جبل فسيح يُعدّ كقسم من مديريّة القويطع وينتهي في شمالهِ الغربي برأس الشقعة (٢ بهِ دُعي الجبل جبل رأس الشقعة

٣٢ جبل رأس الشقعة

هذا الجبل قائم بنفسهِ منقطع عن بقية لبنان يستلفت اليهِ النظر من بعيد بهيئتهِ الغريبة ووعورة مرتقاهُ. وفي سطح الجبل عدّة قرى عامرة حتى يومنا هذا اكبرها حامات. وكان لهذه القرية كنيسة قديمة لعلّها كانت مزدانة بكتابات (٣. غير انّ هذه الآثار درست لمّا بُنيت الكنيسة الجديدة

وهذا الجبل حافل بالاديرة كدير سيّدة النوريّة ودير مار الياس ودير حنوش وغير ذلك من المرابط التي شُيّد اكثرها فوق ابنية قديمة وهذا ما يحدو بارباب العاديات

---

١) راجع كتاب رحلتهِ (ص ٢٠٧)

٢) هذا الاسم اصحّ من «راس الشكة» الذي استعملناه سابقًا في مقالتنا عن الزلازل في سورية (المشرق ١ : ٣٠٥)

٣) راجع بعثة فينيقية لرينان (ص ١٤٥). ونحن ننتهز هذه الفرصة لنكرّر عبارات الشكر لاهل حامات الذين تحفّوا بنا بعد ان تهنا في مشارف ذلك الجبل المقفرة ليس بعيدًا من حنّوش وبتنا عامّة ليلنا مهادُنا الارض وظلّنا السماء

الى ان يقدموا الى زيارة هذا الجبل الصَّرْد. ولو زارهُ الجيولوجيون والجغرافيون لوجدوا فيهِ ما يُجديهم علماً

فلنباشرنَّ بوصف القسم الشمالي من هذا الجبل اعني رأس الشقعة فنقول: انَّ هذا الرأس ينتصب كصخرة صمَّاء ويدخل في غمر البحر مشرفاً على كل البلاد المجاورة وعلوُّهُ يبلغ ٣٠٠ متر. واذا نظر اليهِ المسافر القادم من جهة طرابلس راى شكلهُ اشبه بدارعة هائلة قائمة فوق ثبج البحر لا تبدي حراكاً في رأسها مهمازٌ مرعب لمناواة عدوّها. وفي جوانب هذا الرأس اخاديد تشهد بما دهمهُ من الزلازل في كرور الاجيال فتضعضعت اركانهُ وتقطَّعت اوصالهُ. نخصّ منها بالذكر الزلزلة التي حدثت في عهد يستنيان الملك ومرّ لنا وصفها في المشرق (١ : ٥٠٣). وهــذا الزلزال غيَّر هيئة رأس الشقعة بل ألحق اهوالهُ بالجبل المجاور لهذا الرأس فشوَّهَ صورتهُ

وكان القدماء [١] يطلقون على هذا الرأس اسماً غريباً في معناهُ فيدعونهُ وجه الله (Θεουπρόσωπον). امَّا النصارى اليونان فابدلوا اسمهُ باسم وجه الحجر (Λιθοπρόσωπον) وهو اسم قرية مجاورة لهُ موقعها فوق سطح الجبل جنوباً. وممَّا يفيدنا التاريخ ان الإلهة تانيث معبودة الفينيقيين كانت تدعى باسم « وجه بعل » أفلا يسوغ لنا ان نستنتج من هذه الدلائل ومن المقابلة بين هذه الاسماء ان الفينيقيين كانوا اختصُّوا هذا الجبل بعبادتهم لا سيما ان صورتهُ الغريبة تستلفت الانظار. وهذا الظن يتأيد بمثل جبال اخرى في ساحل بحر الشام كان القدماء يعظِّمونها تعظيمهم للآلهة كجبل الكرمل والجبل الاقرع شمالي اللاذقية وغيرهما. وكان جبل لبنان نفسهُ مكرَّماً كالهٍ يعبدونهُ ويدعونهُ بعل لبنان. امَّا تسمية الكتبة الفرنج لهذا الجبل برأس مادون (Cap Madonne) فليس هو كما زعم رينان اثرًا لعبادة الإلهــة تانيث بل « مادون » تعريب كلمة « السيدة » فقيل لهُ رأس السيدة اشارة الى سيدة النوريَّة التي بُني هناك ديرٌ باسمها. وقد ذكر الجغرافي اسطرابون انَّ في زمانهِ كانت قلعةٌ مشيدة في اعلى رأس « وجه الله » وان في هذا الجبل ليس بعيدًا من البترون اغوارًا وكهوفًا يأوي اليها اللصوص وقطَّاع الطريق كانوا يعيثون في البلاد حتى اجتثَّ پومپيوس دابرهم واستاصل شأفتهم. ولعلَّ

---

[١] راجع الجغرافيين كاسطرابون (ك ١٦ ف ٢) وبوليبيوس وغيرهما

هذه المغاور هي الاغوار التى تُرى في يومنا مـــا وراء قرية « قبّة » قريبًا من قرية وجه الحجر وهي واسعة تُشرف على البحر ١)

واذا سرتَ من البترون على ساحـــل البحر قاصدًا حنُّوش تمرّ بازاء مزرعة تدعى سَلعاتا عندها نبعٌ جارٍ . وهذه المزرعة لم اتـفقَّد آثارها في رحلتي . واني اتأسف اليوم على فوات الفرصة لانهُ يُحتمل ان سلعاتا هى في مكان بلدة قديمة دعاها القدماء Σάλτων او Γονασίτιοι Σάλτων وقالوا عنها انها كانت كرسيًّا اسقفيًا وجعلوها مع جيغرتا وأنفة ٢) ولكن لا بد من تحقيق الامر والاستطلاع على آثار المكان . وعلى كل حال لا يخـــلو وجود نبع في هذا الساحل الرملي القفر من الدلالة على مقام قديم

ووراء سلعاتا هذه جون صغير يفضي اليهِ مسيل ماء ناشف يدعى وادي غميق . والطريق التى تمرُّ حول هذا الجون منقورة في الصخر كالطريق الرومانية التي تُرى عند نهر الكلب . وعلى جانب هذه الطريق صخرة قد كُتب على وجهها أفقيًّا باليونانية ما تعريبهُ : « هنا ينتهي مُلك ديوسترات . وقد اتفقنا على ذلك » . وهذه الكتابة ضخمة الاحرف طولها ٣٠ سنتيمترًا وهي كما ترى نصبٌ جُعل للدلالة على حدود الاملاك ومثلها كثير في منعطف لبنان الشرقي بين بحيرة اليمونة وبعلبك

وبازاء هذه الكتابة على الصخر العمودي الذي بجوارها رسم تربيع بعروتين على هذه الصورة وليس ضمن التربيع شيءٌ ولعله كان فيها سابقاً كتابة طمسها الدهر لكني لم اجد فيها اثرًا للحروف كالسيَّاح الذين سبقوني الى هذا المكان

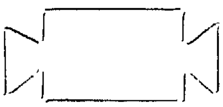

وهذه الكتابات مع نقر الصخور تدلّ على انَّ القدماء مرّوا في تلك الانحاء . ولا ريب ان الطريق كانت تجتاز في هذا المكان ولعلها هي الطريق الرومانية التى كانت تتبع ساحل بحر الشام تنعطف بانعطافاتهِ مارّةً حول رأس الشقعة . والمرَّجح ان الجيوش الرومانية كانت تسير في هذه الطريق الساحلية لان الطريق الجبلية الحاليـــة كثيرة

---

١) راجع الرحَّالة ستزن (Seetzen I ,231)

٢) راجع ريلند (Relandi Palæstina, p. 216) والمجلَّة الفلسطينية الالمانية (ZDPV XXII , 143) بيد اننا لا نبتّ حكماً في ما قدَّمنا

الوعورة صعبة المرتقى وليس فيها شيءٌ من الآثار الدالّة على اعمال الاقدمين. ولم يكن قبل طريق العربات الحديثة طريق غيرها تصل بين طرابلس واواسط لبنان. امّا الطريق القديمة على وادي غميق وحنوش وراس الشقعة فلم تعد مسلوكة. والارجح ان الزازلة التي جرت في عهد يوستنيان دمّرت هذه السبيل واخربتها

٣٣ حنوش

اذا عبرت من ثمَّ وادي غميق بلغت بعد زمن قليل حنوش. وحنوش هذه هي اليوم عبارة عن دير صغير للرهبان الموارنة البلديين يحدق بهِ بضعة بيوت لسكنى الشركاء. ولكنها سابقًا كانت قرية ذات شأن (١ كما يؤخذ من الآثار العديدة التي تراها مبثوثة في السهل المجاور لها بينها معاصر وحجارة رحيّ ورؤوس اعمدة. وهناك رسم كنيسة قديمة من الطرز البوزنطي تُعرف اليوم بكنيسة القديس يوحنا طولها ٢٣ مترًا و ٥٠ سنتيمترًا في عرض ١٥ مترًا. والرجح انها كانت مثلّثة الاسواق وحواليها قطع اعمدة من الرخام مع صلبان منقوشة وبقايا كتابات يونانية ذهب اكثرها فضاعت معانيها بيد ان هذه البقايا تشير الى خطر ذاك المقام الدينيّ وعظم قدرهِ. وكذلك ترى من جهة الشرق مدافن نُقرت في الصخور قد اتلفتها الايام

واغرب ما يوجد في حنوش من الآثار جرن متقن العمل قطرهُ متر و ٤١ س وعمقهُ ١,١٥ يبلغ وزنهُ ٢٣٠٠ كيلوغرام يستدير بهِ نقشٌ ناتئٌ ذو كتابة يونانية مطموسة يُستدلّ من الفاظها الباقية ان فلانًا ابن فلان اصطنع هذا الجرن من مالهِ الخاصّ هبةً للمشتري (τῷ Διί) وكلا العلَمين الواردين في هذه الكتابة ساميّ الصورة والاصل يُدعى احدهما انيلوس (Ἄννηλος) وهو اسم ارامي بحت والاخر ناراس (Νααρᾶς) يشبه الاسماء اليونانية المنقولة عن العربية مما ورد في كتابات حوران. وفي تعريف اصول هذه الاعلام فائدة كبرى للوقوف على سكّان هذه الامكنة وغيرها ايضًا فانها تدلّ على انّ الاهلين كانوا آراميين جنسًا وان كانت اللغة اليونانية اضحت لغتهم الرسمية

---

١) وقد وصفها حديثًا سيادة المطران بطرس شبلي في المجلة الكتابية (R. Biblique, 1901 583) وانتقد على ما كتبه رينان بهذا الصدد

فان الاعلام اصدق اثر ينبيْ باصل القوم وذكر اجدادهم . وامثال ذلك عديدة فقبائل الفرنك مثلًا بعد استيلائها على بلاد غاليّة ابدلت لهجتها الجرمانية باللغة اللاتينية . لكن كثيرًا من اعلامها بقيت على مسحتها الاصلية فكفاك بها دليلًا على تشعُّب الفرنك من العنصر الجرماني

وقد وجد البعض آخِرًا في جوار حنوش نقودًا كثيرة من الذهب عليها كلها صورة يوستينوس الملك . وفي هذا ايضاً دليل على ان هذا المكان في سالف الدهر كان احفل بالسكان منهُ في ايامنا . ولكن ماذا يا ترى كان اسم المحلّ سابقًا ؟ نجيب ان في تعريف اسمهِ القديم لَبحثًا مفيدًا لجغرافية لبنان اعني تطبيق هذا المقام مع بلدة قديمة تدعى جيغرتا

٣٤ جيغرتا

اذا اعملنا النظر في تاريخ القدماء وجدنا في اسطرابون (ك ١٦ ف ٢) ما لم يفِ بالغرض المقصود فان غاية ما يعلمنا بهِ هذا الكتاب ان جيغرتا حصنٌ حريز يحتلّهُ الايتوريّون موقعه عند البحرَ قريبًا من البترون ورأس الشقعة (θεουπρόσωπον) . على ان في هذا الوصف بعض الابهام اذ لم يفدنا عن جهة موقع جيغرتا أتكون شمالي البترون ام جنوبيّها . وهذا الالتباس يُزيلهُ المؤرخ پلينيوس (ك ٥ ف ١٨) ومن قولهِ يتضح انَّ جيغرتا شمالي البترون وجنوبيّ ترياريس (وهي انفة كما سترى) . وكذلك قد ورد اسم جيغرتا في قائمة قديمة للمدن الاسقفية التي موقعها على الساحل الفينيقي في اثر البترون وتدعى هناك قرية (Κώμη) (١ وهذا مما يبين ان جيغرتا كانت خاملة الذكر على ايّام ملوك القسطنطينية . ولا يبعد انها اخذت في الانحطاط منذ زمن يستنيان الملك بسبب الزلزال الذي اخرب الطريق القديمة واضطرّ اهل السابلة ان يمرّوا في مضيق المسيلحة . وهذا ايضًا يعلّل سكوت المؤرخين العرب عن جيغرتا

ومما يطلعنا على خطر جيغرتا في ايام دولة الرومان كتابة لاتينية اثبتها رينان في بعثة فينيقية (ص ١٤٨) يُستدلّ بها على سعة حدود تلك البُليدة . وقد وُجدت هذه

---

١) راجع Relandi Palaestina, 160. ولعلّ كنيسة مار يوحنّا في حنوش هي الكنيسة الكاتدرائية التي اتخذها اساقفة جيغرتا

الكتابة في عبرين وقيل انها نُقلت اليها من المسيلحة او من الُهري فوق شكَّا وعلى كلّ حال انما ينبئ وجودها في احد هـذين المكانين بانّ جيغرتا المذكورة لم تكن بعيدة من راس الشقعة وعن شمال البترون لانّ مثل هذه الحجارة لا تُنقــل عادة الى مكان قاص.

وهذه الملاحظات اذا اعارها المنتقدون بالًا تحققوا ان جيغرتا ليست بزُغرتا كما ظنَّ بعض العلماء كفورر (Fürrer) (١ وهو لم يسند رايهُ الى برهــان آخر غير التشابه اللفظي بين الاسمين مع ان موقع زغرتا لا يوافق وصف الاقدمين لجيغرتا لبعد زغرتا عن البحر في شمالي انفة ووقوعها في وسط سهول خصبة لا تصلح التحصين بخلاف ما جاء عن حصن جيغرتا المشرف على البحر. وعلاوةً عن ذلك لم نسمع ان احدًا وجد في زغرتا شيئًا من العاديّات. على اننـا لا ننكر كون زغرتا من القرى القديمة التي استلفتت انظار الامم الغابرة بحسن موقعها في بطائح مخصبة واودية غنَّاء يسقيها ماء نهر غير لكننا لا نرى فيها مناعة القــلاع وليست هي جديرة بان يتحصن بها لصوص الايتوريين وقطَّاع الطريق كما جاء في وصف جيغرتا

وكذلك لا يصحّ تطبيق جيغرتا مع غرزوز لبعـد غرزوز جنوبًا عن البترون. ولا مع شكَّا لوقوعها في السهل او في منعطف آكام قليلة الارتفاع. ولا مع الهري لخلوها من الآثار القديمة وان كان وصف الاقدمين يوافقها بعض الموافقة من حيث الموقع الَّا انه لا يجوز ان ينسب الى قريةٍ اصلٌ قديم قبل ان يكتشف فيها شيءٌ ينبئ بقدمها

امَّا حنوش فتصدق فيها كل الاوصاف التي وردت عن جيغرتا من حيث قدمهـا وكثرة آثارها واتصال السكة القديمة المنقورة في الصخر عند وادي غميق بمقامها فضلًا عن موقعها في لحف راس الشقعة قرب البحر بين انفـة والبترون. وترى من خلفها صخورًا عالية مقطوعة قطعًا عموديًا تصلح قممُها لتكون معقلًا لقوم من الصعاليك وعشًّا لاهل الغي والفتن يعششون بها دون ان يهابوا مباغتة العدوّ. وقد شهدنا بالعيان وعورة هذا المكان وصعوبة مسلكه اذ ادركنا الليل ونحن فوق هذه الصخور المرتفعة تحدق بنا من كل جهة المهاوي والوهاد العميقة فاثرنا ان نقضي ليلنا في العَراء من ان نلقي

---

١) راجع المجلة الفلسطينية الالمانيَّة (ZDPV, VIII, 19)

بانفسنا في المخاطر بمواصلة السير بين تلك المجاهل . هذا ونظن ان اهل الفساد من الجيغرتيين بعد الفتح الروماني واستتباب السلام نزلوا من مآويهم الحصينة فسكنوا في السهل الممتدّ بين البحر والصخور حيث توجد الاخربة القديمة

امّا اسم جيغرتا (باليونانية Γίγαρτος و Γίγαρτα و Γήγαρτα فلفظة ساميّ الاصل يوافق العبرانية גגרות والسريانية ܓܓܪܬܐ ومعنى كلاهما الضيق وشعب الجبل وهو ينطبق على موقع المكان ولغة ساكنيه القديمة اي الارامية وهي لغة الايتوريين الاصلية . وهذا المعنى على راينا انسب للمقام من اشتقاق الاسم من اليونانية γίγαρτον وهو ثفل العنب (راجع بعثة فينيقية ص ١٥٠)

٣٥ انفة

انفة ما وراء راس الشقعة في اخر السهل الذي بُنيت فيه شكّا وهي مركز لدرس العاديّات . والقرية الحاليّة موقعها بقرب راس مستطيل دقيق يشبه البرزخ . وقد خُدّ هذا الراس في عرضه بشبه خندقين نُقرا في الصخر نقرًا عجيبًا متسعاً يبلغ سطح البحر . ومن اعتبر هذين الخندقين اخذه الاندهاش من شدّة عزيمة الاقدمين في مباشرة مثل هذه الاعمال الجبّاريّة كيف نحتوا الصخور الصمّاء كانّ صلابتها تلين بين ايديهم او كانت لديهم ادوات قاطعة غير ادواتنا الشائعة اليوم . وبين هذين الخندقين والقرية ترى اعمالًا اخرى غريبة في شكلها على جانبَي الراس المومأ اليه وكلها منقورة في الصخر

ويلحق بهذين الاخدودين بقايا ابنية ضخمة متصلة بهما ذات حجارة كبيرة مستندة الى الصخر . وهي آثار جدران تشبه جوانب قلعة جبيل شبهاً عظيماً في نتوء حجارتها والتحام هذه الحجارة بعضها ببعض بحيث لا يشكّ الناظر انّ ثمّت كان حصن منيع ويؤيد ذلك التقليد اهل انفة الذين يدعون هذا المكان بالقلعة

وبين الخندقين المذكورين والقرية ترى في الصخور من الآثار المنحوتة المحكمة العمل ما يندر مثله في لبنان والحمّامات والمدافن والاحواض وكلها اطناف وافاريز جميلة حسنة النحت . وهناك ايضاً رحيّ ومعاصر عديدة مبثوثة في الحضيض . وللصخر طبقاتٌ منظّمة يُنزل منها الى البحر بمعابر على جوانبها شبه الدرابزين . وفي مداخلها ثقوب لمزالج الابواب ورزّاتها . وفي جانبَي الحائط أغوار عديدة منحوتة في الصخر عموديًا

ومنها ما هو متقن الهندام يصلح للسكنى. وكذلك المدافن فانَّ لها مسحةً من القدم وهيئتها غريبة

امَّا بُناة القلعة فنرجّح انهم الصليبيون لما بين اثارها واثار جبيل من الشبه. وقد اثبتنا سابقاً ان قلعة جبيل من ابنية الفرنج (راجع الصفحة ٦١). وفي تاريخ بروكرد ما يشير الى هذه القلعة فانهُ وصف للفرنج في انفة « قلعةً كان معظم جوانبها داخلًا في البحر ولها اثنا عشر برجًا وهي شديدة الحرازة »

لكنَّ الخندقين الفاصلين الراس عن الساحل على رأينا ليسا من اعمال الفرنج فانهما اقدم عهداً يرتقيان الى عهد الرومان ان لم نقل الفينيقيين. والفينيقيون كما لا يخفى كانوا اتخذوا في ساحل بحر الشام كل الروُوس البارزة ليجعلوها محاصن يرقبون منها البحار ويدافعون بها عن سفنهم الراسية بقربها كما جرى لهم في عكا وصيداء وبيروت وجبيل فلا نظنّ انهم استثنوا من هذا الحكم راس انفة فتكون هذه المتاريس والخنادق ممَّا حصّنوا بهِ قلعتهم وقد رغَّبهم في حفر هذه الاخاديد انهم اتخذوا منها موادّ بنائهم فكانت بمثابة مقالع لحجارة القلعة

ونرى كذلك ان بقية الآثار الموجودة في انفة ممَّا نُقر في الصخر اقدم عهدًا من الصليبيين

وكان اسم أنفة قديمًا ترياريس (Τριήρης) ذكرها المؤرخون سكيلكس وپوليبيوس واسطرابون وغيرهم من كتبة عهد الدولتين اليونانية والرومانية وقد ورد اسمها في لائحة الاسقفيَّات القديمة. امَّا اسمها ترياريس فقيل انهُ مشتق من اليونانية ومعناهُ « المثلثة الزوايا » لشكل راسها الشبيه بالمثلث المستطيل [1]. وكذلك معنى انفة بالعربية يراد بها الراس. والشريف الادريسي يدعوها « انف الحجر » ولعلهُ التبس عليه

---

[1] هكذا زعم البعض لكننا لم نجد في قولهم حجة قاطعة. وعلى كل حال اننا نرى انَّ هذه الاسماء اليونانية التي اتخذها اليونان ايَّام دولتهم للدلالة على بعض مدن ساحل فينيقية وقرى لبنان كبطولمايس (عكا) وبيبلوس (جبيل) وثاوبروسوپون (راس الشقعة) وغير ذلك لم تثبت زمنًا طويلاً وانما كانت اسماء رسمية استعملها عمَّال الدولة فلما سقطت عادت الاسماء السامية الشائعة على لسان الشعب الذي لم تؤثر فيه لغة الدولة واصطلاحاتها الرسمية. وهذه الملاحظة العمومية تصدق في ترياريس التي أُهمل اسمها اليوناني وعاد اليها اسم انفة الساميّ

اسمها واسم قرية وجه الحجر في راس الشقعة

وليس من غرضنا ان نلخّص في هــذه المقالة تاريخ انفة في القرون المتوسطة وما قال عنها كتبة الفرنج وجغرافيو العرب لكننا نكتفي باثبات مــا جاء عنها في معجم البلدان قال ياقوت (١ : ٣٩٠) : « انفة بُليدة على ساحل بحر الشام شرقي جبل صهيون بينهما ثمانية فراسخ » وفي قوله غلط ظاهر يريد غربي جبل صهيون او بالحري جنوبيّ غربي صهيون. وقد جاء في مراصد الاطلاع بدلًا من « شرقي جبل صهيون » شرقي جبيل وهو اصحّ. وقد افادنا شمس الدين الدمشقي في كتاب عجائب البرّ والبحر (ص ٢٠٧ و٢٠٨ مع الحاشيتين a b) انّ « للنصارى في انفة كنيسة عظيمة البناء وبها بيت يزعمون انهُ اول بيت وُضع باسم مريم في الشام وانّ البيت الثاني المشيد بعده لذكرها كان في انطرطوس ». وهذه افادة جليلة لتاريخ النصرانية في سورية. وكانت انفة على عهد الصليبيين من الاملاك اللاحقة بكنتيّة طرابلس وكان الفرنج افسدوا اسمها باللفظ فدعوها نفين (Nephin). امّا قلعتها فقد امر السلطان قلاوون بهدمها

٣٦ قلمون

اذا سرت من انفــة متوجهًا الى طرابلس بلغ بك المسير الى قرية بهجة المنظر تدعى قلمون موقعها في وسط حديقة كثيرة الزرع غزيرة المياه. واسم قلمون يُطلق في الشام على عدة امكنة منها جبــل قلمون المشرف على دمشق ومنها قرية قلمون (Calamon) بجوار الكرمل وحيفا (١ وجبل قلمون في شبه جزيرة سينا. وقد ذكر الادريسي قلعة تدعى قلمون بين صيدا ونهر الدامور

وقلمون هذه قد دعاها القدماء قلموس (Calamos) وممّن ذكرها المؤرخان بوليبيوس وبلينيوس وغيرهما وربما جعلوا اسمها مع اسم جارتها تريارس وان لم يكن لهـــا من الشأن ما كان لانفة. وكانت قلمون في القرون الوسطى قلعة ورد ذكرها في الادريسي وفي رحلة والكاتب الفارسي نصري خسرو الخ

---

١) راجع كتاب فلسطين لريلند (Relandi Palaestina, 230,678) وكذلك راجع اسطرابون (Strabon, notes 916)

وفي قلمون وضواحيها عدّة اثار قديمة كمقالع ومعاصر ورحي وبقايا اعمدة وغير ذلك ممّا يدل على قدمها. بيد اننا لم نجد في هذه الآثار ما يجدينا علماً عن احوالها ومن ثمّ لا نرى داعياً لاطالة الكلام فيها

٣٧ دير البلمند

في الجبل المشرف على البحر بين انفة وقلمون على يمين السائر الى طرابلس ديرٌ شهير لا يمكن ضرب الصفح عنهُ نريد بهِ دير البلمند للروم الارثذكس حيث كان يدرس المترشحون للكهنوت من البطريركيــة الانطاكية . قال المنار (في عدده الصادر في ٢٩ ك١ سنة ١٩٠١): « البلمند من اعظم اديرة الشرق فخراً واضخمها بناء واظرفها موقعاً وابعدها شهرة وزمن بنائه مجهول وقد نابه ما ناب اكثر الاديرة الارثذكسية في سوريا وفلسطين في غزوة الصليبيين »

قد صدق كاتب هــذه الاسطر بقوله انه يجهل زمن بناء دير البلمند لكنهُ ساء ظنّاً بترقيتهِ هذا البناء الى زمن سبق عهد الصليبيين وبنسبته اليهم ما هم براء منه وكان الاولى ان يشكرهم على تشييد هذا الدير اذ لولاهم لما رأى عالم الوجود. ومصداقاً لقولنا نورد هنا مختصر تاريخ دير البلمند ليقف عليه كتبة الروم

كان انشاء دير البلمند في ٣٠ ايار من سنة ١١٥٧ . وقد تولى بناءَه رهبان القديس برنردس المعروفون بالسِستَرسيين [١] وجعلوه تحت حماية البتول الطاهرة سيدة بَلمُنْت (Abbatia Belimontis) . وبلمنت لفظة لاتينية منحوتة من كلمتين معناهما الجبل الجميل . وربما ورد اسمه في كتبة الصليبيين على صورة الفرنسوية القديمة «Beauleu» وهي بمعنى « Beaulieu » اي المقام الجميل وهو اسم يطابق المسمى ولذلك قد اتخذه اهل طرابلس الى يومنا كمصيف يقضون فيه فصل القيظ . ثم افسد القوم بلمنت فجعلوها « بلمند » . ومما يدل على اصل اشتقاقها انها وردت في كتاب مختصر تاريخ

---

[١] لنا على ذلك شواهد عديدة منها مناشير للاحبار الرومانيين ذكرها روريخت (Roehricht dans ZDPV, X, 35) . امّا ما كتبه الاديب جرجي افندي يني في تاريخ سوريّا (ص ٤٩١) عن مائدة هيكل كنيسة البلمند ان عهدها يرتقي الى سنة ١١١٣ م فلم نتحققهُ بنفسنا وكنّا وددنا لو اثبت جنابهُ هذه الكتابة بنصّها. ولعل هذه المائدة نُقلت الى البلمند من مكان قريب

لبنان (من مخطوطات كليتنا) على صورة بلموند. وعليه فلا صحّة لما قاله البعض (١ ان بلمند مشتقة من اسم البرنس بويمند صاحب طرابلس شيَّدها على زعمهم كمنتزه لهُ في سنة ١٢٨٧. ثمَّ ان تاريخ بويمند السابع (١٢٧٤ — ١٢٨٧) لا ينطبق على هذه الرواية لان بويمند قضى السنين الاخيرة من حياتهِ في عاصمته لم يمكنهُ الخروج منها وكان السلطان قلاوون يضايقه فيها الى ان توفي في ١٩ تشرين الاول سنة ١٢٨٧ فما كان له اذ ذاك ندحة في تشييد القصور والمنتزهات. هذا فضلًا عن انهُ لدينا نصوص ورد فيها اسم بلمند قبل هذا التاريخ كما سيأتي

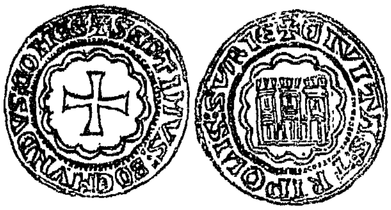

مسكوكات بويمند السابع صاحب طرابلس

وبراءات الاحبار الرومانيين في دير البلمند كثيرة (٢ نخصّ منها بالذكر براءة غريغوريوس التاسع سنة ١٢٣٨ واينوكنت الرابع سنة ١٢٥٠ واوربانوس الرابع سنة ١٢٦٢. ويظهر من هـذه المناشير ان دير البلمند كان اكبر اديرة الفرنج في كُنتية طرابلس. ولمَّا خرج الصليبيون من الشام صار هذا الدير الى يد اليعاقبة وكان عددهم كبيرًا في طرابلس لهم فيها اسقف يرعاهم

وفي تواريخ الفرنج اسماء بعض رؤساء هذا الدير ورهبانه. فمنهم الرئيس بطرس الالماني (Pierre l'Aleman) ورفيقه « سمعان الطرابلسي ». وممَّن ترأس على دير البلمند احد اساقفة بيروت اللاتينيين لعلَّه استقلَّ من كرسيه فاعتزل في هذا الدير وصار رئيساً عليه. وهذا ممَّا يُطلعنا على عظم شأن المكان

ولا نعلم من امر الدير شيئاً بعد تملُّك اليعاقبة عليهِ. وانما روى مكاتب المنار انهُ بعد الصليبيين « تشتَّت شمل رهبانهِ.. وخرب » وبقي خرابًا الى سنة ١٦٠٣ وفيها

---

١) راجع الدويهي في تاريخ سنة ١٢٨٧ وبعثة فينيقية لرينان (ص ١٢٨)

٢) راجع مجلَّة الجمعية الفلسطينية (ZDPV, X, 35)

جدهُ السيد يواكيم ابن الخوري جرجس مطران طرابلس. وللبلمند بعد هذا العهد اخبار طويلة لا حاجة الى استقصائها

واليوم لم يبقَ من هذا الدير العظيم سوى اثار لا تُذكر واذا اعتبرت ابنيتهُ الحديثة لا ترى شيئاً من تلك المباني الفخيمة التي كانت تزين هذا المحلّ وتنطق بفضل بُناتهِ الذين عارضوا الرومان والفينيقيين بآثرهم حتى ان كثيرًا مما كان ينسبهُ العلماء سابقًا لتلك الامم ثبت اليوم انهُ من عمل الصليبيين

وقد بقي في البلمند من ابنيتهِ القديمة قسمٌ من طبقتهِ السفلى منها ردهة جميلة مقبَّبة حسنة الاثاث طولها اربعون مترًا وهي اليوم مطمورة في الارض لارتفاع الحضيض بما هبط فوقه من ردم الدير القديم. اما الغاية من ابتناء هذه الحجرة فليست بظاهرة. وفي بقية انحاء الدير الحالي قناطر ونقوش من طرز القرون المتوسطة وهذه الاثار مع قلّتها تنبئ باصل الدير فتبين جليًّا ان الصليبيين هم الذين شيدوه ويتأيد بذلك ما نقلناه في صدده من شواهد التاريخ مع بيان اشتقاق اسمه الاعجمي من اللاتينية فناهيك بهذه الادلّة عن تعريف اصل هذا الدير واصحابهِ الاوَّلين

وفي الختام يسرُّنا ان نبدي لجناب الفاضل غطاس افندي قندلفت مدير المدرسة عند مرورنا عواطف الشكر لما اظهره من الانس لما استقبلنا في هذا الدير. وقد اطلعنا على خزانة كتبه التي تحتوي اليوم على مطبوعات حديثة العهد وبعض المخطوطات التي ليس تحتها كبير امر قد جمعها حضرة المدير ونظمها لئلا تأخذها يد الضياع. وكانت هذه المكتبة قديمًا حافلة بالمخطوطات ولا نشك انّ في عدادها كانت تآليف عديدة سريانية كما ترى في غيره من اديرة الروم كمكتبة دير جبل سينا ودير مار سابا حيث وجد زوَّار الفرنج مصنفات سريانية قديمة غالية الثمن. وكذلك كان دير صيدنايا غنيًّا بذخائر الاداب السريانية قبل ان يحرقها وكلاؤهُ كما ذكر ذلك الشاب الاديب حبيب افندي زيّات في خبر رحلتهِ الى هذا الدير (راجع المشرق ٢ : ٥٨٦). الّا ان اليونان الذين تملكوا زمناً طويلًا دير البلمند اتلفوا ما وجدوه من هذه الكنوز النفيسة واورثوا قلوبنا الاسف على فقدها

فهرس

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

الصفحة

تمهيد ٣

الفصل الاوّل قسم لبنان الواقع شمالي بيروت

رسم مدخل مغارة انطلياس ٤
رسم جوار انطلياس: ١ المغارة ٢ النبع ٤
٢ صربا وجونية ٥
٣ نهر الكلب ٨
رسم مدخل مغارة نهر الكلب ٩
رسم داخل مغارة نهر الكلب ١١
٤ دير القلعة ١٣
رسم هيكل البعل في دير القلعة ١٧
رسم بقايا اعمدة دير القلعة واشكالها المختلفة ١٧
صور المخروطات رمز عشتاروت ١٧
٥ آثار الرومانيين في لبنان ٢١
قناة نهر بيروت (قناطر زبيدة) ٢٥
جسر الماملتين الرّوماني ٢٧
٦ صنّين ٣٤
٧ ساحل علما ٣٦
٨ معراب ٣٧
آثار قلعة معراب ٣٧

الصفحة

٩ غينة ٣٨
رسم آثار غينة – آثار المشنقة ٣٩
١٠ المَشنقة ٣٩
١١ الديانة الفينيقية في لبنان ٤١
تمثال الزُهَرة المعبودة في لبنان ٤٣
١٢ اليمُّونة ٤٦
رسم بركة اليمونة ٤٧
١٣ افقا ٤٩
١٤ مجاري المياه في لبنان ٥٠
١٥ قلعة فقرا ٥٣
صورة قلعة فقرا ٥٤
١٦ الساحل بين جونية وجبيل (برجا وعين ماحوز ونهر ابراهيم) ٥٧
صورة برجا ٥٩
١٧ جُبَيل ٦٠
مدافن جبيل ٦٣
نواويس جُبَيل ٦٦
١٨ بلاد جُبيل ٦٧
بلاط ٦٨
ادّه ٦٨
عمشيت = عبادات ٦٩
بجديدات = جربتا ٧٠
معاد ٧١
١٩ احوال لبنان في القرن الرابع عشر قبل المسيح ٧٦
٢٠ كنائس لبنان القديمة ٨١
٢١ دخول النصرانية في لبنان ١٠٠
١ً لبنان واوّل مبشّريه ١٠٠
٢ً نزاع النصرانيّة والوثنيّة ١٠٤
٣ً في مبادئ العيشة الرهبانيّة في لبنان ١٠٩

٤ً ترقّي النصرانية في القرن الرابع ١١٢
٥ً تنظيم الكنائس في لبنان ١١٤
٦ً انتصار النصرانيّة نهائياً على الوثنية في لبنان ١١٦
٢٢ بلاد البترون — مدينة البترون ١٢١
٢٣ سَمَر جُبَيل ١٢٣
٢٤ قلعة الحصن ١٢٥
٢٥ دوما ١٢٧
٢٦ كفرحي ومدرسة مار يوحنّا مارون ١٢٨
٢٧ جبّة بشرّاي ١٣١
٢٨ ارز لبنان ١٣٤
الكورة ١٤٢
٢٩ دار بعشتار — بزيزا — ناوس ١٤٢
٣٠ اميون ١٤٤
٣١ المسَيلحة ١٤٤
٣٢ جبل رأس الشقعة ١٤٥
٣٣ حنُّوش ١٤٨
٣٤ جيفرتا ١٤٩
٣٥ انفة ١٥١
٣٦ قلمون ١٥٣
٣٧ دير البلمند ١٥٤
مسكوكات بيومند السابع صاحب طرابلس ١٥٥

تشريح الابصار
في ما يحتوي لبنان من الآثار

القسم الثاني

جغرافية لبنان وتعريف الامم التي سكنتهُ

١ اسم لبنان وسعة نطاقه في التاريخ

قد بلغ بنا تقصّينا لآثار لبنان الى تخومهِ الشماليَّة فرأينا ان نحطَّ برهةً عصا التسيار لنبحث في قسم ثانٍ عن بعض احوال هذا الجبل الشهير ممَّا يشمل تاريخهُ اجمالًا ويعمّ شؤونهُ من حيث تقاسيمهِ الجغرافيَّة مع تعريف الامم التي سكنتهُ في سالف الاعصار. وهو امرٌ يفيدنا لادراك ما بقي علينا من وصف آثارهِ في جهاتهِ الأُخرى

لا جرم ان القارئ اللبيب قد لحظ في خلال فصولنا السابقة انَّ اسم لبنان لم يُطلق في كل اطوار التاريخ على ثغور معروفة وربَّما اتسع او انحصر معناهُ على اختلاف الظروف ونزَعات الكتَّاب. فاحسْر لثام الشبهات وازالة كل المعضلات رأينا ان نبيّن حدود لبنان في الازمنة الغابرة بما امكن من التدقيق

ليس من احد يجهل اليوم موقع لبنان ونواحيهُ الاربع وكلٌّ يعرف انَّ المراد به

تلك السلسلة الجبليّة الممتدّة بين البحر المتوسّط او بحر الشام والنهرين الشهيرين النهر الكبير والليطاني

بيد ان معنى لبنان لدى القدماء لا ينطبق على مفهومنا بهِ في عهدنا . واوّل ما ينبغي استفتاؤهُ من كتب التاريخ الاسفارُ المقدّسة فان هذا الاسم ورد فيها على صورة لُبنُون (לבנון) وهكذا عرفهُ ايضاً الفينيقيّون . امّا الاشوريون فيدعونهُ لَبنانو . ومما يستفاد من الكتاب الكريم انّ لبنان جبل شاهق فخيم في شمالي نهر الليطاني يحدّ ارض الميعاد من تلك الجهة

وقد تكرّر ذكر لبنان في صُحُف العهد القديم وان كان هذا الجبل خارجاً عن ملك بني اسرائيل . واكثرما ورد اسمهُ في اوصاف الكتاب الشعريّة كما اثبتنا ذلك في مقالتنا عن ارز لبنان (المشرق ٤ : ٩٣٠ — ٩٣٨) . وذكروا بين خواصهِ الثلوج الغراء التي تكلّل هامتهُ (راجع سفر ارميا ١٨ : ١٤) فبيّنوا بهذه الاوصاف انهم ارادوا لبناننا دون سواهُ

وممّا جاء ذكرهُ ايضاً في الكتاب الكريم وادي البقاع المخصب الذي يفصل لبنان عن جبل الشيخ وهو يدعى هناك « مدخل حماة » او « الطريق الى حماة (١ » وهو اسم يطابق المسمى لانّ سهل البقاع اشبه بطريق لاحبة تنفذ بين جبلين عاليين . وفي هذا الاسم ما يُشعر بخطر مدينة حماة وعظم شأنها وهي اول مدينة كبرى كان بنو اسرائيل يلقونها عند خروجهم من تخومهم الشماليّة الشرقيّة . اما اليونان ٢) فيدعون البقاع باسم ماسياس (Massyas) او مرسياس (Marsyas) وربما دعوها ايضاً بسوريّة المجوّفة (Célésyrie) لانعطافها بين الجبلين على شبه الجوف (٣

ويؤخذ من سفر الملوك الثاني (٨ : ٨) ان لبنان كان غنيًّا بمعادن النحاس والمرجح

---

١) راجع سفر العدد ١٣ : ٢٢ و ٣٤ : ٨ ويوشع ١٣ : ٥ الخ وحزقيال ٤٧ : ٢٠ الخ وعاموس ٦ : ١٤ الخ

٢) راجع تاريخ پوليب ك ٥ ف ٤٥ , ٤٦ , ٦١ وجغرافية اسطرابون ك ١٦ ف ٢ و ١٠ الخ

٣) راجع معجم الكتاب المقدّس لفيكورو في المادّة وجغرافية فلسطين القديمة لبول (Buhl) ص ٨٢

ان موقعها كان على العطف الشرقي من لبنان الحالي بازاء سهل البقاع

على ان اصحاب الصحُف الكريمة لا يفرقون بين لبنان الغربي والشرقيّ فاطلقوا على كليهما اسم لبنان ٠ وهو امرٌ يسهل ادراكهُ لانَّ الجبلين متشابهان تشابهاً تامًّا يسيران على خطين متوازيين الى وجهة واحدة وطولهما واحدٌ على التقريب وهما يتركبان من صخور كلسيَّة متجانسة ٠ ولا غروَ انهما كانا في القرون الخالية جبلًا واحدًا ففصل بينهما طارئ جيولوجي غيَّر هيئتهما فانخسفت بينهما الارض وليس وادي البقاع الَّا نتيجة هذه القارعة ٠ ومن ثمَّ لا حرج على كتَبة الاسفار المقدَّسة اذا اعتبروا هذين الجبلين كطود واحد وان كانوا لم يدقّقوا في تعريفهما كما يفعل اليوم الجغرافيون ٠ وليس الامر كذلك في تعريف اسطرابون لوقعهما فانهُ قد وهم وهماً جسيماً في بيان وجهتهما كما سترى

واوَّل من احكم الفصل بين الجبلين السابق ذكرهما كتبةُ اليونان فانهم قد افرزوا بينهما وخصُّوا احدهما باسم لبنان ودعوا الآخر انتيليبانوس (Antiliban, Ἀντιλίβανος,) ومعناه الجبل القائم بازاء لبنان وكلا الاسمين شائع حتى ايامنا بين الكتَبة ٠ وممَّا يدلُّ على قِدَم اسم انتيليبانوس ان اصحاب الترجمة السبعينيَّة في القرن الثالث قبل المسيح نقلوا اسم لبنان العبراني الى اليونانيَّة باسم انتيليبانوس لمَّا رأوا انَّ مدلولهُ الجبل الشرقي لا لبنان الحالي وذلك في خمسة اماكن من الاسفار الالهية (١ ٠ وكذلك ورد في النصّ اليوناني من سفر يهوديت (١ : ٧)

وقد تصفَّحنا تآليف يوسيفوس اليهودي فوجدناهُ متردّدًا في تعريف لبنان كانهُ لم يطَّلع على اصطلاح اليونان وهو يكتب في لغتهم فتراهُ اذا ذكر جبلِ حرمون والجبال المجاورة لدمشق دعاها كلها باسم لبنان

وما لا ريب فيهِ ان كتبة العهد القديم اذا ما ذكروا لبنان وارادوا بهِ الجبل الموازي لهُ انَّما مرادهم فقط القسم الجنوبي من هذا الجبل المعروف اليوم باسم جبل الشيخ وذكرهُ كثيرٌ في التوراة ٠ وقد دوَّنا في بعض مقالاتنا السابقة (٢ اسماء جبل حرمون عند

---

١) تثنية الاشتراع ١ : ٧ و ٣ : ٢٥ و ١١ : ٢٤ يوشع ١ : ٤ و ٩ : ١

٢) راجع الجزء الاوَّل ٠ ص ٢٤

قبائل سوريّة وفلسطين فلا حاجة الى التكرار والى بيان صحّة هذه الاسماء لئلّا نخرج عن الموضوع

امّا اتساع لبنان وحدودهُ فانّ الكتاب المقدّس لا يذكر غير حدّهِ الجنوبيّ اعني شمال نهر الليطاني . ومن ثمّ لا بدّ من نقل نصوص قدماء اليونان لتعريف بقيّة الحدود

*

لعلّ المؤرخ پوليب (١ اوّل من سبق فبيّن بضبط وتدقيق تخوم لبنان . وهو يفصلهُ عن الجبل الشرقي فصلًا صريحًا ويذكر بين السلسلتين سهل البقاع ويجعل في هذا السهل مخرج نهر العاصي . وممّن اجادوا في تعريف اتساع لبنان ديودور الصِقليّ (٢ في القرن الاول قبل الميلاد حيث قال انّ لبنان يمتدُّ من صيداء الى جبيل وطرابلس وانّ غابات الأرز تظلّل قممهُ (٣

امّا معاصرهُ اسطرابون فانّ في كلامهِ لبسًا وابهامًا وهاك تعريب ما كتب قال: « انّ سوريّة المجوّفة واقعة بين جبلين تفصلهما على التقريب مسافة واحدة في طولهما. وكلاهما يبتدئ قريبًا من البحر امّا لبنان فانّ اوّلهُ عند طرابلس وجبل ثيوپروسوپون (راس الشقعة . راجع تسريح الابصار ١ . ص١٤٠) .واما جبل انتيليبانوس فبدؤهُ بقرب صيداء (كذا) وهما ينتهيان عند الجبال العربيّة التي تُشرف على اقليم دمشق» . وفي الفصل ذاتهِ قد اثبت اسطرابون ان منتهى لبنان عند رأس الشقعة وهو يروي انّ اعالي لبنان كصنّان وبوروما يأوي اليها قوم من اللصوص وقطّاع الطرق . وكذلك يزعم انّ هؤلاء الاوباش يملكون على البترون وجيغرتا ويسكنون الكهوف المشرفة على البحر وحصن الشقعة (٤

فترى ممّا تقدّم انّ اسطرابون يفرق بين لبنان والجبل الشّرقي ويجعل بينهما سهل البقاع وكذلك لم يشذّ عن الصواب اذا دلّ على حدود لبنان الشماليّة وهو يجعلها تقريبًا

---

١) في كتابهِ الخامس (ف ٤٥ , ٥٩ , ٦٩)

٢) ك ١٩ ف ٥٨

٣) راجع الجزء الاوّل ص١٣٧

٤) الجزء الاوّل ص١٤٦

عند طرابلس لانَّ جبل عكّار يُعدّ ايضًا من لبنان فيتّصل بهِ ويمتدّ بعض اميال الى النهر الكبير الذي يحجز لبنان عن جبال النصيريّة . غير انَّ اسطرابون وهم وهمًا جسيمًا بزعمهِ ان كلا الجبلين يبدأ بقرب البحر عند صيداء وهو خطأ لا صحّة لهُ في انتيليبانوس . وكذلك قد اخطأ بقولهِ انَّ الجبلين ينتهيان عند دمشق وهذا لا يصدق عن لبنان وقد ساء ظنّهُ في الجبلين اذ وصف سيرهما من الغرب الى الشرق اي من البحر الى داخل بلاد الشام وهما في الحقيقة يسيران من الشمال الى الجنوب فيجاريان سِيف البَحر

امَّا التفاصيل التي ذكرها اسطرابون عن لبنان ولصوصهِ فقد مرَّ ذكرها في محلّها مع بيان ما صدق منها

وفي وصف پلينيوس (١ للبنان ما هو اقرب الى الحقيقة من سواهُ . وهو يجعل اوّل لبنان عند صيدا ثمَّ يذكر امتدادهُ شمالًا الى مدينة سيمرّة القديمة اعني وراء مصبّ النهر الكبير بقليل حيث يبتدئ جبل برجيلوس وهو جبل النصيريّة . وناهيك بهذه الافادة تدقيقًا وضبطًا . وكذلك لم يندّ في وصفهِ لبنان وتمييزهِ لهُ عن الجبَل الشرقي وذكر البقاع وذكر العيون التي يتكوّن منها العاصي

ومِمَّن ذكروا لبنان من قدماء النصارى اوسابيوس القيسري في كتاب الأعلام (Onomasticon) . وتبعهُ القديس هيرونيموس وكلاهما يقول انَّ لبنان سلسلة الجبال الغربيّة المحاذية لبحر فينيقية اما السلسلة الشرقية من جهة دمشق فجبل انتيليبانوس اي الجبل الشرقيّ

فترى من ثمَّ ان القدماء في حدود القرن الرابع كانوا وقفوا على حقيقة موقع لبنان وافرزوهُ عن الجبل الذي هو قائم في وجههِ وبيّنوا وجهة امتدادهما غير ان كتبة القرون التالية عادوا فخلطوا بين الجبلين . ومِمَّا حدا بهم الى هذا اللبس التقاسيم السياسيَّة التي ادخلها ملوك الروم في ذلك العهد فاختلطت الاسماء وصارت الاعلام تدلّ على غير ما وُضعت لهُ سابقًا

فمن ذلك سوريَّة المجوَّفة التي كانت تدلُّ في اول الامر على سهل البقاع ليس

---

١) راجع تاريخهُ الطبيعيّ (ك ٥ ف ٧٨)

الّا اصبحت اقليماً واسعاً يمتدُّ شمالًا الى ما وراء انطاكية بحيث اضحت هذه المدينة قصبةً لهُ . وكذلك لم يعد اسم فينيقية يُطلق على الساحل المنحصر بين لبنان والبحر بل صار يعني بلادًا متسعة تبلغ حدودها الى دمشق وحمص وتدمر

وعلى هذا المنوال تغلّب اسم لبنان الشهير على جبل النصيريّة المجاور اذ لا يفصل بينهما الّا وادي النهر الكبير. فأبطل اسم برجيلوس الذي خصَّهُ بهِ بلينيوس الكاتب واعتُبر كانهُ لاحقٌ بلبنان

ومن غريب ما جرى وقتئذٍ من التقلّبات في تقسيم الايالات ان الاقليم المعروف بفينيقية اللبنانيَّة لم يضمّ في دائرتهِ لبنانَ الغربي وأُدخلت فيهِ تدمر مع بُعدها عن لبنان. وكفى بذلك دليلًا على ان اسم لبنان لم يؤْخذ بمعناهُ الاصلي او انهُ كان ادلَّ على جبل انتيليبانوس منهُ على لبنان لاسيما بعد ان جُعلت مدينة دمشق كعاصمة فينيقية اللبنانيَّة. ولذلك نرى في اعمال القديس صوفرونيوس الدمشقي انهُ دعا وطنهُ « المتوّج بلبنان » (λιβανοστέφανος) ولعلّ هذا اللقب حمل البعض على الظن بانهُ لبنانيّ الاصل

وعُدَّت حمص قبل دمشق مدّةً كقصبة ولاية فينيقية اللبنانية فصار الاهلون يدعون الجبال الواقعة بازائها وفي شماليها باسم لبنان وهكذا شمل هذا الاسم جبال النصيرية. وفي تاريخ سوزومين (ك٣ ف١٥) نرى اسم لبنان مختصًا بالجبال المحاذية لمدينة افامية واغرب من ذلك ان تاوفانوس المؤرخ في اثناء كلامهِ عن المردة اطلق اسم لبنان على كل جبال الشام الواقعة بين مصبّ نهر العاصي وبلاد فلسطين (١ . وقد جرى بقيَّة المؤرخين البوزنطيّين على هذا الاصطلاح نخصُّ منهم بالذكر المؤرخ قدرينوس

*

ولمّا ظهرت دولة العرب حفظ ملوكُهم التقاسيمَ الجغرافيَّة الجارية قبل عهدهم ولذلك نرى الكتبة السريان كابن العبري (٢ وجغرافيّي العرب يتأثرون اعقاب الروم في وصفهم جبل لبنان فربما اصابوا او اخطأوا كاسلافهم . فالمقدسي مثلًا يقول في كتاب معرفة الاقاليم (ص٦٠) ان لبنان جبل ساحلي مشرف على صيداء وطرابلس . امَّا ابن

---

١) راجع تاريخهُ في اعمال الاباء اليونان لمين (ج ١٠٨ ص ٧٣١)

٢) راجع تاريخهُ المدني بالسريانية (ص ٢٨٣)

الفقيه الهمذاني (ص ١١٢) فانهُ يزعم « انَّ لبنان بدمشق وانهُ متصل ببلاد الروم » يريد قيليقية · وبوصفهِ هذا اطلق اسم لبنان على جبل الشيخ وعلى كل الجبال الواقعة شمالي سوريَّة حتى اللكّام وقسم من جبل طورس وهو تعريف واسع لم يخطر على بال كتبة الروم

وقال ابن جبير في رحلتهِ (ص ٢٥٦) : « وراء المعرَّة جبل لبنان وهو سامي الارتفاع ممتدّ الطول يتصل من البحر الى البحر وفي صفحتهِ حصون للملاحدة الاسماعيليَّة وجبل لبنان حدٌّ بين المسلمين والافرنج لانَّ وراءهُ انطاكية واللاذقيَّة وسواهما من بلادهم » فترى من قولهِ هذا انهُ ادخل في لبنان بلاد الاسماعيليَّة الواقعة في جبل النصيرية بين اللاذقية وحماة وهناك كانت حصونهم كمصياد والرصافة وخوابي وكهف والعُلَّيقة

وياقوت في تعريف لبنان أقوال غريبة قال (٢ : ١١٠ و ٤ : ٣٤٧) : « لبنان جبل مطلٌّ على حمص يجيء من العرج الذين بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام . . . ويمتدّ الى ملطية وسميساط وقاليقالا الى بحر الخزر » فيجعل كل هذه الجبال جبلًا واحدًا تختلف اساميهِ باختلاف الامكنة · واختصاصهُ باسم لبنان يبتدئ في حلب وينتهي في حماة وحمص

وقد ذكر شمس الدين الدمشقي في كتابهِ عجائب البرّ والبحر غير مرَّة اسم لبنان وكلامهُ في الغالب مصيب الَّا انهُ يجعل حدودهُ الشماليَّة الى اللاذقية ويعتبر لبنان كقسم من سلسلة عظمى اوَّلها في جنوبي بلاد العرب

اما ابن بطوطة (١ : ١٨٥) فيلوح من ظاهر كلامهِ انهُ يُطلق اسم لبنان على الجبل الممتدّ بين اللاذقية وطرابلس حيث وجد النصيريَّة فوصفهم · وكان النصيرية وقتئذٍ يسكنون ليس فقط الجبل المعروف باسمهم وجبل عكّار بل ايضًا البلاد المجاورة لطرابلس والبترون حتى نواحي العاقورة وكسروان وذلك الى القرن الرابع عشر للمسيح كما سنبيّن الامر في مقالة آتية · ولهذا السبب قد امكن ابن بطوطة ان يدعو باسم لبنان كلَّ بلادهم (١

---

١) راجع مقالتنا عن سكنى النصيرية في لبنان في مجلة الشرق المسيحيّ

وأضبطُ العرب وصفًا للبنان الكاتب الشهير ابو الفداء صاحب حماة ولا غرو اذ كانت سكناهُ في بلاد تجاور لبنان فميّز في تقويم البلدان (ص٦٨و٢٢٩) لبنان عن جبل دمشق وقد دعا طرف هذا الجبل الجنوبي باسم جبل الثلوج ويدعو باسم سنير طرفهُ الشمالي وهو أنتيليبانوس . وسنير احد الاسامي الواردة في التوراة يراد بهِ حرمون وأُطلق حسب رأينا على كل القسم الشمالي من هذا الجبل . وذلك امرٌ يستنتج من كتبة العرب وهم شهود صدق على التقليد القديم

وقد جعل ابو الفداء لبنان بازاء جبل الثلج يمتدّ الى شرقي طرابلس فاذا تجاوزها عُرف بجبل عكار . وهو قول صواب جرى عليه ايضًا القلقشندي من بعدهِ . اما الجبل الواقع في شمال جبل عكار فان ابا الفداء يدعوهُ جبل اللكّام (ص ٦٨) وهكذا ايضًا قد جعل الاصطخري وابن حوقل حدود لبنان الشماليَّة بالقرب من مدينة حماة

هذه بعض نصوص نقلناها عن جغرافيّي العرب تبيّن ان هؤلاء الكتبَة اصابوا في كثير من اقوالهم عن لبنان وان وهموا في بعض الامور اخذوها عن كتبَة الروم دون ان يتحققوها بانفسهم لاسيما في ما يختصّ بتعريف حدود لبنان الشمالية . فسبحان من تنزّه عن كل خطإٍ وغيب

٢

ما تستفيد سوريَّة من لبنان

بعد تعريفنا لِلُبنان وتطبيق اسمه مع اقوال المؤرخين لا نرى بدًّا من استلفات النظر الى فوائد هذا الجبل من حيث طورهِ الطبيعي

على أنّنا قد اشرنا الى هذا الامر في مقالاتنا السابقة (راجع الجزء الاوّل ص٥١) واثبتنا انَّ لبنان بالنسبة الى سورية كالنيل بنسبتهِ الى مصر اذ انهُ كحوضٍ عظيم تتفجّر منهُ المياه التي تسقي النواحي المجاورة امّا على هيئة الامطار وامّا بطريقة المجاري المائيَّة او بتكاثف الابخرة وسقوطها على صورة الندى . ولولا هذا الجبل لاضحت سورية اشبه ببادية جرداء او رملة صلعاء تابعة لمفاوز جزيرة العرب التي هي متَّصلة بها من جهتها الجنوبيَّة الشرقيَّة

ومما سبق لنا ايضًا في وصف لبنان انّنا قابلنا بين هذا الجبل المنيف وجبل الالب (المشرق ١ : ٧٢١) فبيّنّا ما خصَّ بهِ الله الطود السوريّ من المناظر الجميلة والمرافق

العديدة فترى فيه الرُّبى المكلَّلة بالغابات والغياض الزاهية بضروب الاشجار والنبات والاودية العليلة النسيم ذات الظل الظليلّ مع جداول مترقرقة وسيول جاحفة وشلّالات مزبدة وبحيرات كالمرايا الصقيلة الى غير ذلك من المحاسن الطبيعيّة التي زيّن بها الخالق تلك المشارف الزهيّة التي اطنب الانبياء في اوصافها وعدّدوا في الاسفار الكريمة معانيها والطافها

على انّ لبنان يُورث سوريّة غير هذه المنافع ممَّا يستلفت نظر ذوي العبرة. ولو تحرَّينا تعدادها لكتبنا فصلًا رائقًا جديرًا بان يُنظَم في سلك فلسفة الجغرافيّة من شأنهِ ان يوسّع نطاق اهل الرويَّة ويبيّن لهم عجائب الكون

وهذه الفوائد الجمّة التي تستفيدها سوريّة من لبنان على اربعة اصناف منها هدروغرافيّة وجيولوجيّة ومنها نباتيّة ومنها جويّة ومنها ما يرجع الى الامزجة والاجسام.

*

١ لا حاجة الى ان نسترسل في الكلام عمّا يجدي لبنانُ القطرَ السوريّ من المنافع الهدروغرافيّة اذ انَّنا وصفنا سابقًا ما يختصّ بمجاري المياه في لبنان (راجع الجزء الاوّل ص ٥١) وغاية ما نقولهُ هنا اننا لم نُغالِ في وصفنا المذكور وكفانا لتأييد مقالنا ان اكبر انهار سوريَّة وهو العاصي ينبجس من لبنان فيجري الى شمالي سوريّة ويخصب نواحيهُ . وذلك ما حمل القدماء على انشاء مدن عظيمة في تلك الجهات كحمص وحماة وانطاكية ولولا هذا النهر لاصبح وادي العاصي قفرًا مقفرًا لا يأوي اليهِ سوى قوم من عرب البادية . وهو بهِ جنَّةٌ غنَّاء يتقلّب فيها الوفٌ وربوات من البشر في خصب دائم وعيش رفيه

وما قلناهُ عن وادي العاصي يصحُّ ايضاً في سهل البقاع وفي ساحل البحر من طرابلس الى صور فان هذه البطائح معروفة اليوم بوفرة خيراتها وريع مآتيها ونضارة حدائقها وإنْ ذلك الّامن فضل لبنان الذي يفيض عليها مياه ينابيعهِ النميرة مع دسم تربتهِ التي تنحدر من السيول وترسب في قاع الارض فتُخصبها وتسمّنها

ونزيد على ذلك ان التربة التي جرفتها المياه من مشارف لبنان هي التي صارت اليوم بطحاء فسيحة الارجاء زاهية الزروع تمتدُّ من طرابلس الى مصبّ النهر الكبير ولولا انَّ مجاري المياه تسحو هذا الطين اللزج من معاطف الجبل لكان هذا السهل

جوناً تغمرهُ مياه البحر كما ترى في جهات اخرى · لانهُ من النواميس الثابتة تمام المؤَازاة والمقابلة بين السلسلة اللبنانيَّة والشواطئ البحريَّة اي انَّ لبنان كلَّما امتدَّ نحو البحر اصبح رأساً داخلاً في المياه واذا اندحر استبطنتهُ المياه فصارت في بطنهِ خليجاً · امَّا هذه نواحي طرابلس فانَّ انهار لبنان وجبل عكَّار كابي علي والنهر البارد ونهر عكار وعلى الاخصّ النهر الكبير انحدرت اليها وملأَت بالتربة التي سفتْها الجونَ الذي كان هناك وهو يُعرَف حتى اليوم بجون عكَّار دلالةً على اصلهِ لكنَّهُ في الوقت الحاضر نَجْت منفسح ذو نعومةٍ وخصب

*

٢ وليس لبنان اقلّ فائدة من حيث الملك النباتيّ · فان ارباب الطبيعة يقضون العجب من سورية لما فيها من اصناف النبات وضروب الاشجار · فانَّها تجمع بين نبات الاصقاع الشماليَّة ونبات الاقاليم المفرطة الحرارة في اواسط افريقية · والنباتيُّ اذا تفرَّع لبنان وجد في اعاليهِ اعشاب الصرود التي لا تُرى الَّا في شمالي اوربَّة وقمم الالب · اما حشائش البلاد الحارَّة فهي نامية في سفح لبنان عند وطإ بحيرة الحولة وهناك من نبات البرديّ الذي لا يُرى اليوم الَّا في اواسط افريقية عند البلاد المجاورة لينابيع النيل · والى لبنان يعود الفضل من هذا القبيل لما يوجد من الاختلاف بين برد رأسهِ المحلّق في العنان المعتمّ بالثلوج وحرارة حضيضهِ البارز لانوار الشمس واشعَّتها الحامية فيسوغ للنباتي في سوريَّة ان يجمع في بضع ساعات من اشكال الاعشاب ما لا يجدهُ في غيرها الَّا بعد مشقَّة النفس والعناء الطويل

وهذا التباين العظيم بين نبات بلاد مختلفة لا يروق فقط عين الناظر اذ يرى الاشجار الجبليَّة كالسنديان والارز والاشجار الصحراويَّة كالنخل والبردي لكنهُ ايضاً يجدي الزارعَ نفعاً حيث يمكنهُ ان يستغني عن كثير من محصولات البلاد الاجنبيَّة · كيف لا وهو يجد في وطنهِ تربةً ملائمة لاصناف المزروعات والاشجار المثمرة وضروب الاخشاب وفي كل ذلك ايرادات طيّبة توفّر اسباب الغنى وتفتح ابواب الرزق لطالبيهِ · فياليت شعري كيف يسوغ لنا ان نتشكَّى من فقر بلادنا وقحطها وفيها كل ما يلزم ليغني شعوباً جمَّة · ولو شاء اصحاب الثروة لرأوا انَّ هذه البلاد يدرُّ منها اللبن والعسل كما في ايَّام بني اسرائيل لا ينقصها لذلك الَّا رجال جدّ وإقدامٍ ممَّن لا يستنكفون

من العمل ولا تثني عزائمهم المصاعب. فلا يمرّ على بلادنا ثلاثون سنة حتى يصير لبنان اغنى من بلاد نروج بغاباتهِ وتمسي السهول الساحليّة اشبه ببطائح الهند وخطّ الاستواء

*

٣ وان انتقلنا الان من ذكر النبات الى وصف الهواء إذن لوجدنا انَّ حظّ اهل سوريَّة لأَسعد من سواهم لوقوع لبنان في وسط بلادهم . وذلك ممَّا لحظهُ الكاتب الشهير ڤولناي (Volnay) في اواخر القرن الثامن عشر قال : « ان بلاد الشام تجمع تحت سماء واحدة احوالًا جوية مختلفة وتدَّخر في اقطارٍ ضيّقة الارجاء مرافق لا تُرى في غيرها من البلاد الَّا متفرّقةً على مسافاتٍ قاصية . ففي غيرها من الاصقاع ترى فصول السنة تفصلها الشهور وامَّا سورية فيصدق القول فيها ان فصول سنتها لا تقسم بينها الَّا بضع ساعات فقط فان اثقلك توقّد الحرّ في صيداء او طرابلس ايَّام القيظ فما الك الَّا ان تمشي نحو ستّ ساعات فتجد في الجبال المجاورة هواءً لطيفاً كهواء شهر اذار (١) »

فهذا الاختلاف في درجات حرارة الجوّ الذي تغبطنا بسببهِ البلاد المجاورة للشام كبلاد الجزيرة ومصر انَّما اصابهُ القطر الشامي بواسطة لبنان ليس بامتداد عرضهِ الذي يبلغ نحو تسع درجات . ولا لاجل طولهِ البالغ ١١٠٠ كيلومتر بل لاجل ارتفاعهِ فوق سطح البحر . ولولا علوّ جبالهِ لما كان فرقٌ يُذكر بين شمالي سوريَّة وجنوبها . فانَّنا نرى ان حالة الجوّ في غزَّة لا تختلف كثيرًا عن حالتهِ في الاسكندرونة وان الحرّ في دمشق كما هو في حلب . لكنَّ الفرق العظيم انَّما هو بين السواحل ومشارف لبنان بحيث نجد في الجرد لطف هواء الاصقاع الشماليَّة

وممَّا يساعد ايضًا على تكييف الجوّ وتلطيف لهَوات الحرّ هيئاتُ تركيب لبنان المختلفة واوديتهُ ووجهة تقاطيعهِ فان الارواح بهبوبها في بطون الارض وشجونها تغيّر احوال الهواء كما تؤثر في السُّحب والامطار التي تحملها الرياح . وترى بخلاف ذلك بعض مُنعطفات لبنان لحسن موقعها مصونةً من رياح الجنوب والشمال تنحدر الى البحر انحدارًا ليّنًا وهي امكنةٌ تهنأُ فيها العيشة للطف نسيمها وتشبه جنوبيَّ فرنسة برطوبة هوائها

---

١) راجع رحلتهُ الى مصر وسوريَّة (ج ١ ص ٢٨١)

ولا عجب ان اضحى لبنان بعد زمن قليل كمستشفى الاعلّاء يتقاطرون اليهِ لعلاج ادوائهم كما يهرع اليهِ المصيفون لينجوا فيه من وقدات القيظ ويستبدلوا روائح المدن المستكرهة بالريح الطيّبة . امّا الشتاء فيجد ذوو العاهات امكنةً في لحف لبنان يدفعون فيها بردهُ القارس ويقضون فصلهُ في مأمن من اذاهُ اذ يحميها لبنان من نفح الرياح وشدّة العواصف وهي تقوم لاهل بلادنا مقام مدينتي « نيس » و « كانّ » وسواحل فرنسة الجنوبيَّة التي يزدحم فيها شتاء الاوربيُّون والاميركيُّون فرارًا من صبارَّة القرّ . فياليت شعري أَليس خور جونية وما يُحدق بهِ من المزارع مقاماً شتويًّا يضاهي خَوْر نابولي . ألا ترى كيف ان ريفهُ العجيب بارز لاشعَّة الشمس ولصفاء هواء البحر المُنعش وهو مع ذلك في حمىً من السموم والريح الشماليَّة . فلو شاء اصحاب الامر لجعلوا جونية محطًّا لذوي الامزجة النحيفة ومنزلًا للناقهين . وهذه البلدة تفضل من وجوهٍ عديدة وادي النيل وضفَّتيهِ حيث المناظر قليلة والهواء يتقلَّب تقلُّباً كبيرًا فيلي النهارَ المتوهّج الحرّ زمهريرُ الليل وصردُهُ . امّا في مواطئ لبنان فترى للآفاق محاسن متجدّدة من جبال شاهقة وبحار زاخرة وهواء رطبٍ قليل الاختلاف . وهي لعمري منافع كبرى لا تخفى طويلًا على ذوي الخبرة

ولعلَّ منتقدًا يعترض علينا بقولهِ انَّ منعطف لبنان الغربي كثير الرطوبة لتكاثف الابخرة المتصاعدة من البحر في جوانبهِ . والرطوبة كما هو معلوم لا توافق مزاج كثيرين من الناس الذين يؤثرون على المقامات الرطبة الهواء المنازلَ اليابسة

أجل ولكن لا يخلو لبنان من منافع المراكز اليابسة ايضاً وذلك في منعطفهِ الشرقيَ فاذا تسنَّمتَ اعالي هذا الجبل لا تلبث ان تبلغ بعد ساعاتٍ قلائل الى نواحٍ جافَّة الهواء لا يشوب سماءها غيمٌ ولا يقرب منها ندى البحر لتوسُّط لبنان بينها وبينهُ فانَّ لبنان يقسم بلاد الشام من حيث الهواء قسمين مختلفين احدهما ساحليّ نديّ الجوّ ليّن النسيم معتدل الهواء دون حرّ محتدم ولا برد شديد . والآخر شرقيّ برّيّ تختلف فيهِ الانواء وتتوالى الفصول المتباينة وهو يجدي بعض الامزجة قوّةً وصلابةً . وعلى كل حال مهما افتى الناس في تفضيل الهواء اليابس او الرطب فان العناية الصمدانيَّة لم تحرم لبناننا من خواصّ الهوائين فيختار كلٌّ منهم ما يشاء

*

٤ ولهذا الاختلاف في احوال الهواء نفعٌ آخر وهو تأثيرهُ في بنية الجسم

وغنيٌّ عن البيان انَّ طريقة العيش في زماننا وكثرة الالتباك بالاشغال ومداولة الامور والتهافت الى رَشْف إناء الملذَّات كلُّ ذلك ممَّا يضعف بنية الناس ويفقر الدم ويحطُّ بالنسل . وهذه المضرَّات في الاقطار الحارَّة الكثيرة الرطوبة كما ترى في مدننا الساحليَّة اوفرُ منها في سواها من البلاد لازدحام الناس في البيوت الضيّقة وتراكم الاقذار في الاسواق وقلَّة تغيير الهواء . فاذا بقي اهل المدن على ذلك زمنًا قليلًا فسد لا محالة دمهم ونضب ماء حياتهم لولا انَّ اهل لبنان يهاجرون الى السواحل فيأتون بدمٍ جديد يسري في عروق الجمهور فينعش اجسامهم ويشدّد قواهم . وكما انَّ هؤلاء القادمين من مشارف لبنان يؤتون اهل الحضر دماً جديدًا كذلك الاهلون اذا ما قضوا شهورًا من سنتهم في فصل الصيف فوق ربى لبنان تجدَّدت عزائمهم او تقوَّت اعصابهم فيعودون الى ديارهم وثيقي الاركان مضبوري الخَلْق تتدفَّق منهم مناهل الحياة

هذه بعض ملاحظات ابديناها لنفيد مواطنينا عن فوائد لبنان من حيث مقامهِ الطبيعيّ . فلا ريب انهُ لو فُقد لتلفت ايضاً معهُ اكثر ارفاق بلادنا وقفرت المواطن واصبحت التربة عقيمةً خاويةً لا تأتي بغلّاتها فكانت اشبه بفيافٍ جرداء لا يُرى فيها سوى بعض تلال من الرمل خلوة من النبات لا ماء يجري فيها ولا انهار ترويها يسكنها قوم من صعاليك البادية يتنقَّلون فيها لطلب كلأ الربيع ثمَّ يرحلون عنها . وبوجيز القول ان بلاد الشام لولا لبنان كانت كالبوادي التي تجاورها من جزيرة العرب ونواحي تدمر واقفار ما بين النهرين في جنوبيّ حرَّان ونصيبين

٣

انهار لبنان : منافعها واسماؤها

١ منافع انهار لبنان جغرافيًّا واقتصاديًّا

ذكرنا غير مرَّة غنى لبنان بينابيع المياه وما يترتَّب على ذلك من الفوائد الهدروغرافيَّة فنقول الآن انَّ من اعتبر هذا الجبل ورأى هيئتهُ وموقعهُ فهم ان قربهُ من البحر لا يسمح للانهار الجارية منهُ ان تتّسع احواضها اتساعاً كبيرًا .

والاحرى ان يقال ان اغلب انهار لبنان سيولٌ لا تتجاوز مسافة سيرها بضعة كيلومترات وهي تنحدر من مشارف الجبل وتندفع دفعةً واحدة الى البحر. وليس بين هذه الانهار نهر واحد يمكن زورقاً ان يجري فيهِ لكثرة انحراف هذه الانهار وما يتخلّلها من الصخور في مسيرها . ونحن لا نذكر في هذا الباب من انهار لبنان الّا ما ينضب ماؤهُ في فصل القيظ مباشرةً من الشمال الى الجنوب (١ . وكذلك ضربنا صفحاً عن بعض التفاصيل الجغرافيَّة التي تصلح لاحداث المدارس ليس في ذكرها كبير امرٍ

١ً النهر البارد شمالي طرابلس على مسافة بضعة كيلومترات منها . وهو الفاصل بين لبنان وجبل عكار = ٢ً نهر ابي علي وهو المعروف بنهر قاديشا (٢ = ٣ً نهر ابراهيم = ٤ً نهر الكلب = ٥ً نهر بيروت = ٦ً نهر الدامور

وليس لهذه الانهار كلها من الجدوى سوى انها تسقي بعض السهول الساحليَّة فتخصب تربتها في مجاريها المختلفة الطول . وربما كان هذا الخصب الناجم عن مياهها بليغاً . ولو اراد اهل بلادنا لانتفعوا من هذه المياه لغاية أُخرى وذلك بان يجعلوها كمحرّك لادوات كهربائيَّة يتخذونها لمعاملهم ولذلك سمّى البعض قوّة المياه في تحريكها بالفحم الابيض يريدون انها تقوم مقام البخار ومواقد الفحم الحجريّ . ولمَّا كان مهبط هذه المياه شديدًا وكميتها وافرة لا غروَ أن ينجم عنها قوّةً تناسب احصنةً بخاريَّة عديدة كافية لتحريك ادوات ضخمة . وقد بلغنا آخرًا انَّ شركة لبنانيَّة نالت امتيازًا لتوليد الكهرباء بمياه نهر بيروت لتنير القرى الساحليَّة حقَّق الله الاماني

على اننا نرى في مجاري هذه الانهار خللًا فان مصبّها يتَّسع اتساعاً كبيرًا وذلك لما تأتي بهِ المياه من الطين المجروف ولما يدفعهُ البحر الى الساحل من الرمل فتتكوّم هذه الموادّ في وجه النهر بحيث لا تقوى مياههُ على خرقها فتتدفَّق جوانبهُ وتسيل المياه ذات اليمين وذات الشمال على مسافة واسعة . وربما استنقعت هذه المياه فحدث عنها حُمّيات ملاريّة خبيثة . وهذا الانحراف في مجاري الانهار قد لحظهُ العلماء في البحار التي يضعف فيها المد والجزر . لكنَّ هذا الخلل يسهل استدراكهُ بان يُحفَر النهر مسيل عند مصبّهِ . وكذلك تُنصَب اشجار الاوكالبتوس على ضفافهِ لتزول بها وخامة الهواء

---

١) ان نهر العاصي يستمدّ اكثر مياههِ من لبنان لكنَّ مسيلهُ خارج عنهُ

٢) لا نذكر نهر الجوز قرب البترون لانَّ ماءهُ ينقطع في فصل الصيف

وفي مقالاتنا السابقة بيَّنَّا ان النهرين البارد وابا علي بما سَحَواهُ من التربة من اعالي لبنان طمَّا جون عكَّار وكوَّنا سهل طرابلس المعروف بجودة مزروعاتهِ . ولعلَّ نهر بيروت اتى بما هو اغرب فعلًا منهما

فكلٌّ يعرف ان مدينة بيروت مبنيَّة على شبه جزيرة يتَّصل بها البحر شمالًا وغربًا وجنوبًا غربيًّا . وقد ارتأى بعض العلماء ان هذه الحاضرة انما كانت في سالف الزمان جزيرة تحدق بها المياه من كل جهاتها (١ فصارت مياه نهر بيروت والجداول المجاورة لهُ كوادي غدير ووادي شويفات تأتيها بالطين والتربة حتى ملأت البوغاص الذي كان في جهة بيروت الجنوبيَّة الشرقيَّة بينما كانت الرياح الغربيَّة تحمل اليها رمالها فاصبحت بيروت متَّصلة بالبرّ وجرى لها ما جرى لمدينة صور لمَّا ابتنى لها اسكندر ذو القرنين سدًّا عظيماً وصل بينها وبين البرّ فتراكمت الرمال على هذا السدّ فصارت شبه جزيرة بعد ان كانت المياه تكتنفها من كل اطرافها . ولا عجب فان انتشار الرمل على سواحل سوريَّة امرٌ ظاهرٌ فترى الرمل يتقدَّم دون انقطاع . وممَّا شهد الثقةُ على صحَّتهِ ان معدَّل امتداد الرمل في كل سنة بين مدينتي غزَّة ويافا يبلغ مترًا على التقريب

هذا وان اهل بيروت كانوا يتَّخذون قديمًا ألواء الرمل سكنًا لهم ويزرعون فيها المزارع لان التربة التي يغطيها هذا الرمل طيّبة دسمة . والدليل على سكنى الاهلين فيها ما يجدهُ الحافرون من الخزف وقطع الزجاج القديم والمعادن والنواويس . والرملُ قد نشر عليها كلّها رداءهُ وهو لا يزال يجري الى الامام . ومن يلحظ حركتهُ المتواصلة يتأكد بانهُ في مدَّة ربع قرن قد اخفى عن العيان املاكاً متَّسعة لبعض الوجهاء فالتهمها . ومنذ عهد قريب قد وجد البعض آثار بلدةٍ توارت تحت كثبان الرمل . وممَّا أثبتهُ الشاعر نونُّس (٢ عن الطريق التي يسير فيها السائر عند خروجهِ من بيروت ميمّماً صيداء انَّها « رمليَّةٌ تظلّلها الاشجار ودوالي الكروم » على ان الشاعر لم يذكر التلال الرمليَّة التي تتخلَّلها في يومنا هذا فتجري في وسطها وذلك دليلٌ على انَّ الرمل لم يَسْطُ عليها بعد . ومن الثابت المقرَّر ان العوامل الطبيعيَّة لا تزال تذرّي هذه الرمال فتجرف مياه

---

١) راجع كتاب ريتر (ص ٤٣٠)

٢) راجع كتاب شعره (Dionysiaques, ch. 41, v. 40 - 45)

البحر وتنسفها الرياح حتى نكاد نرى حركتها رأي العين فما قولك بعملها على كرور الادهار لاسيَّما اذا اضفتَ الى هذه العوامل ظواهر أُخر خارقة العادة كالزلازل والاهتزازات الارضيَّة التي ربَّما رفعت بحضيض الارض ومسيل الاودية ۔ وفي سواحل فينيقية من آثار هذه الزلازل ما هو مشهور (راجع مقالتَيْنا عن الزلازل في المشرق ١ [١٨٩٨] : ٣٠٣ و ٢ [١٨٩٩] : ٩٧٠)

وممَّا يشهد على ما اصاب بيروت ونواحيها من الطوارئ الجيولوجيَّة انَّ هذه المدينة كانت في سالف الزمان مزدانةً بعدَّة جزائر لا نرى اليوم منها اثرًا . فان الشاعر اليوناني نونُس المذكور (١ اشار اليها في جملة وصفه لبيروت فدعا هذه المدينة « الجميلة الجزائر εὔνησος » وهي لعمري شهادة حسنة اتى بها شاهدُ عينْ سكن بيروت ردحاً من الدهر لم يفتهُ شيء من احوالها . وقد جاء في خارطة لاتينيَّة يرتقي عهدها الى القرن الثاني عشر رسم جزيرتين متوسّطتين في الكبر قريبتين من بيروت (٢ . وكذلك ورد في تواريخ الصليبيين ان الرهبان المعروفين باسم پريمنتراي (Prémontrés) كانوا يسكنون ديرًا موقعهُ في جزيرة على مقربة من بيروت (٣ . وفي هذه الشواهد ما يدلُّ على انَّ هذه الجزر غير الصخور الثلاثة او الاربعة التي نراها اليوم عند راس بيروت او عند مصبّ نهرها

ولكن متى توارت هذه الجزائر ؟ ليس لنا في ذلك نصّ صريح ومن المرجَّح انَّها انخسفت في الزلزال الذي ذكرهُ المقريزي في تاريخ المماليك (٤ في تاريخ سنة ٦٦٠ ه (١٢٦١ م) حيث قال ان سبع جزائر بين عكَّة وطرابلس غاصت في لجج البحر . وقولهُ هذا يطابق الآثار التاريخيَّة التي لم تعُد تذكر فيما نعلم الجزائرَ المجاورة لبيروت بعد القرن الثالث عشر

والنهران الاخيران اللذان يجريان في جنوب لبنان هما الاوَّلي وهو نهر صيداء ثم الليطاني الذي يحدُّ لبنان في جنوبيّهِ وهو نهر صور . ولكلا النهرين علاقة مع المدينة

---

١) راجع الكتاب السابق ذكره (Chant 41, v. 15)

٢) راجع المجلَّة الفلسطينيَّة الالمانية (ZDPV, XVIII)

٣) راجع المجلَّة ذاتها (ج ١٠ ص ٢١٠ و ج ٢١ ص ١١٦)

٤) راجع طبعة كاترمار Quatremère : *Sultans Mamlouks, I,* 1^{re} *partie*, p. 145

التي يجاورها وقد اغناها بمنافعهِ الجمّة الاقتصاديّة . ونهر الاوّلي يجري في منعطف لبنان الغربي ولا يتجاوز طولهُ ٤٥ كيلومترًا اما الليطانيّ فينفذ في وسط هذه السلسلة ويتخلّلها . ومنبعهُ في البقاع بين الجبلين الغربيّ والشرقيّ وطول مجراهُ ١٥٠ كيلومترًا . وخطرهُ عظيم من حيث الزراعة والاقتصاد لانهُ ليس فقط يفتح طريقًا في خلال الجبل كما يفعل الاوّلي ولكن ايضًا لانّ هذه الطريق توصل ساحل مدينة صور بسهول فيحاء وبطائح غنّاء كالبقاع وغوطة دمشق ووادي العاصي . ولا غروَ ان تجار صور من الفينيقيين قدّروا هذه المنافع قدرها ونهجوا هذه الطريق رغبةً في الارباح البالغة

امّا وادي الاوّلي فهو دون وادي الليطاني شأنًا وخطرًا الّا انهُ اغنى منهُ واخصب وفي مسيرهِ على ضفّتيهِ مسالك وطرق تُفضي الى البقاع والى عدّة قرى كان الاهلون يقضون فيها فصل الصيف ويتاجرون بغلّاتها كما يفعل اهل صيداء في ايّامنا في القرى الواقعة قرب الباروك وجنوبيّ جزّين

ولولا الاوّلي والليطانيّ لما وُجدت صور وصيداء فان بُناتهما اختاروا مصبّ هذين النهرين لما كانوا ينتظرونهُ منهما من العوائد التجاريّة وهو الامر الذي جعل لهاتين الحاضرتين شأنًا تجاريًّا لم تبلغهُ بيروت وجبيل لخلوّهما من نهرين يجديانهما من المنافع ما احرزتهُ صيداء وصور بنهريهما

٣

اسماء انهر لبنان قديمًا وحديثًا

قلنا انّ اوّل أنهُر لبنان شماليًّا نهر البارد . والمظنون انهُ هو النهر الذي دُعي قديمًا بروتّس (Bruttus او Brutus) وان اشتقاقهُ من اصل ساميّ

ولكنّنا نجهل الاسم الذي عُرف بهِ عند القدماء النهر الثاني اي ابو عليّ . كما اننا لم نجد في كتب العرب سبب هذه الكنية او الرجل الشهير الذي اعارهُ اسم ابي عليّ

امّا نهر ابراهيم فقد مرّ ذكرهُ في مقالة سابقة (راجع الجزء الاوّل ص ٥٨) حيث اثبتنا ما يختصّ باسمهِ القديم ادونيس (اي تموز) وباسمهِ الحديث

وكذلك لا حاجة الى تكرار ذكر نهر الكلب وتعريف اسمائهِ وقد سبق لنا في ذلك فصل مطوَّل (تسريح الابصار ج ١ ص ٦)

وان تخطَّينا الى نهر بيروت وجدنا ان اسمهُ مشبوهٌ بهِ وان كان الرأي الشائع انهُ هو نهر ماغوراس الذي ذكره پلينيوس في تاريخهِ الطبيعي (ك ٥ ف ١٧) فجعلهُ في جوار بيروت . وفي قولهِ هذا نظر اشرنا اليهِ في اول مقالاتنا عن آثار لبنان (تسريح الابصار ج ١ ص ٤)

وممَّا حمل العلماء على القول بانَّ ماغوراس هذا هو نهر بيروت ان پلينيوس جعله على مقربة من بيروت وليس لهذه المدينة نهر آخر الَّا النهر المنسوب اليها فضلًا عن اننا نعرف الاسماء القديمة التي أُطلقت على الانهر الواقعة جنوبيَّ بيروت وشماليَّها ما عدا اسم نهرها

على انَّ بعض العلماء شكُّوا في ذلك وظنُّوا ان مقصود پلينيوس بنهر ماغوراس انما هو نهر الدامور لانهُ في وصفهِ لمدن الساحل مباشرةً من الجنوب الى الشمال ذكر ماغوراس قبل بيروت كأنهُ جعله جنوبي هذه المدينة وهو كما لا يخفى في شماليها . ولأَن پلينيوس ضرب صفحاً عن ذكر الدامور ظنُّوا انهُ دعا هذا النهر باسم ماغوراس

هذا الرأي لا يخلو من شبه الصحَّة بيد اننا نفضِّل القول بان پلينيوس لم يُراعِ النظام الطبيعي فقدَّم ذكر النهر على ذكر المدينة بدلًا من ان يؤخرهُ . ومثل هذا التقديم والتأخير كثير في كتب القدماء . او يُقال انَّ هذا الامر جرى على يد النسَّاخ سهوًا منهم . ومن ثمَّ فانَّ الرأي الاصحّ عندنا ان ماغوراس هو نهر بيروت ليس نهر الدامور . فعسى العلماء ان يجدوا كتابةً تؤيد رأينا وتزيل كلَّ شبهة عن نصّ پلينيوس وهو الكاتب الوحيد الذي ذكر اسم ماغوراس

هذا وان نهر الدامور قد تكرَّر في كتب القدماء وهم يدعونهُ تاميراس وقد عرفهُ المؤرخ پوليبيوس باسم داموراس (Δαμοῦρας) والمشابهة بين الاسم القديم والحديث ظاهرة . وكذلك لا شبهة في تعريف اسم « الاوَّلي » القديم . فان الكتبة قد دعوهُ بُستَرينوس (Bostrenus)

بقي آخِر انهار لبنان جنوبيًّا وهو الليطاني فانَّ في تعريف اسمِهِ القديم مشكلًا عظيماً ولعلَّ القدماء لم يتعرَّضوا لذكرهِ وقد شاع اليوم عند الكتبَة المحدثين ان

الليطاني هو نهر لاونتيس (Leontès) او نهر الاسد (Λέοντος πόταμος) الذي ورد اسمهُ في بعض تآليف اليونان فحُرِّف بالليطاني . وكنَّا نحن ايضاً جنحنا الى هذا القول (راجع الجزء الاوَّل ص ٩) لما فيهِ من شبه الحقيقة . لكنَّ في هذا الرأي عقباتٍ كما سترى

فلنباشر اولًا بذكر الاشياء المقرَّرة التي لا يُختلف في صحَّتها

من المعلوم ان اسم هذا النهر حاليًّا الليطاني ويُدعى عند مصبّهِ بالقاسميَّة . وعلى الاصحّ انهُ عُرف بذلك لمزار هناك يدعى النبي قاسم . وزعم البعض ان القاسميَّة مشتقَّة من القَسْم كانَّ النهر قاسمٌ بين صور وصيداء او بين بلاد الشقيف وبلاد بشارة وهو رأي باطل لا سند لهُ والدليل على بطلانهِ انهُ لا يُطلق عليهِ هذا الاسم تحت قلعة الشقيف لمَّا يلتوي عن سيرهِ الجنوبي فيجري الى البحر بل عندما يتجاوز جسر القعقعيَّة. فلو كانت نسبتهُ الى قَسْم البلدين اصدق الاسم عن كل مجراهُ الجنوبي لا عن مصبهِ فقط . ثمَّ ان هذا الاسم معروف منذ بضعة اجيال ذكرهُ خليل الظاهري في كتابهِ زبدة كشف الممالك والمقريزي في تاريخ المماليك (١

امَّا اسم الليطانيّ فانهُ قد ورد في اوصاف البلدان لكتبة العرب على صورة « ليطة » فكذا دعاهُ شمس الدين الدمشقي (ص ١٠٧) وابو الفداء في حاشية على تقويم البلدان وصاحب التعريف في المصطلح الشريف (ص ١٨٢) وقبلهم الشريف الادريسي في كتاب نزهة المشتاق (٢ . ويروى ايضاً في بعض النسخ « لنطة » بدلًا من ليطة وليس لليطاني ذكر في جغرافيي العرب غير هؤلاء . ولا عجب فان العرب قلَّما كتبوا في أنهر لبنان فلا تكاد تجد من اسمائها في تآليفهم سوى ثلاثة او اربعة

وان بحثنا عن الليطاني في مصنَّفات سابقة لعهد مؤلفي العرب اي قبل القرن الثاني عشر وجدنا كتبة اليونان والرومان اقل صراحةً من العرب ولعلَّهم ضربوا عنهُ صفحاً . وانما نستثني منهم اسطرابون الذي اشار الى الليطاني اشارةً صريحة حيث قال: «ويجري قرب صور نهر » بيد انهُ لم يُفدنا عن اسمهِ شيئاً . وان استطلعتَ بقيَّة المؤلفين

---

١) Quatremère : *Sultans Mamlouks*, II, I partie, p. 174

٢) راجع طبعة غلدميستر ص ١٢

كسكيلاكس وپمپونيوس ميلا وپلينيوس وبطلميوس لا ترى لهم كلمةً عن هذا النهر كما انهم لا يذكرون البتَّة نهر الزهراني الذي يجري جنوبي صيداء

قلنا ان كتبَة اليونان لم يذكروا الليطاني ٠ أجل لكنَّ بعضاً منهم ذكروا نهر لاونتوس (Λέοντος πόταμος) فلِمَ لا يكون هذا النهر هو الليطاني فيكون جرى على الاسم اليوناني بعض تحريف لمَّا نُقل الى العربيَّة ٠ نجيب اننا لم نكن لنتردَّد في تصويب هذا القول لولا ان بطلميوس (ك ٥ ف ١٤) جعل هذا النهر بين بيروت وصيداء وهذا لا يوافق الليطاني كما لا يخفى ٠ وكذلك نرى تشويشاً عظيماً في ما كتبهُ هؤلاء المؤلفون في « لاونتوس» التي نُسب اليها هذا النهر فهم يقولون انهُ كان في ساحل فينيقية مدينة تدعى لاونتوپوليس ومنهم من يجعلها بين بيروت وصيداء جنوبي نهر الدامور٠ وهو رأي اسطرابون الجغرافي٠ امَّا پلينيوس فيزعم ان موقع لاونتوپوليس بين بيروت ونهر الكلب٠ وفي جغرافيَّة سكيلاكس ان هذه المدينة جنوبي صيداء ٠ وهذه كلها آراء متضاربة واقوال متباينة لا يستفاد منها شيء صريح في امر اسم الليطاني عند اليونان امَّا لاونتوپوليس فسيأتي ذكر موقعها قريباً

ومن غريب الامور ان الاسفار الالهيَّة لم تنوّه باسم الليطاني مع انهُ كان على الرأي الارجح احد حدود الاراضي المقدَّسة (١ ٠ فترى ممَّا سبق ان تعريف موقع هذا النهر واسمهُ وتاريخهُ القديم لمن المعضلات التي استغلق بابها على الباحثين في مجاري المياه اللبنانية

ولكن دعنا ننظر لفكّ هذا المشكل في الكتابات التي سبقت عهد بني اسرائيل فلعلّنا اذا رقينا في سلّم الادهار وقفنا على حقيقة الامر كما ان مياه الانهار تزيد صفاء اذا قربت من مخرجها

واعلم انهُ قد ورد في الكتابات المصريَّة الهيروغليفيَّة اسم قديم يدعى « رطنو » و « رنتو» و « رتينو» موقعهُ شمالي فلسطين وحيث اليوم سهل البقاع الذي فيهِ يجري الليطاني ٠ ثم انَّ الراء في اللغة المصريّة من الحروف الذُّلق التي كثيرًا ما تُبدل

---

١) راجع المجلَّة الكتابيَّة سنة ١٨٩٣ (ص ٢٣)

باللام فتكوَن « رطنو » و « لطنو » عبارة عن اسم بلدٍ واحد ١) . ومن ثمَّ فليس بمستبعد أن يكون اسم الليطاني اشارة لهذا القطر ومعناهُ « النهر الجاري في بلد لطنو » فقيل اختصارًا « ليطاني » كما تقول نهر بيروت ونهر عكّار دلالةً على البلد الذي يجري فيهِ هذان النهران

وعلى رأينا ان هذا الشرح اقرب الى الحقيقة في تعريف اصل اسم الليطاني القديم امّا اسمهُ اليوناني فلا سبيل الى توفيقهِ على ما كتبهُ اليونان بخصوص نهر لاونتوس . والله اعلم

٤

سُكْنى لبنان في قديم الزمان

ان لبنان من احفل ولايات الدولة العليَّة بالسكان فان معدّل أهليهِ يبلغ ٦١ نفساً في كل كيلومتر مربّع . وهو لعمري عددٌ بليغ لا تتجاوزهُ الّا ولاية دار السلطنة وجزيرة ساموس . فان معدّل قاطني الولاية الاولى هو ١٦٢ شخصاً في كل كيلومتر مربّع امّا ساموس فاهلها ١١٣ نفساً في الكيلومتر . الّا انهُ لا يجوز المقابلة بينهما وبين لبنان لانَّ ولاية دار السعادة تشمل الاستانة العليَّة وهي كما لا يخفى من حواضر المدن واكثرها سكناً فيزداد بعدد اهلها معدَّل اهل الولاية التي هي داخلة فيها . وكذلك ساموس فانها جزيرة كثيرة الخيرات حسنة التربة ليس فيها جبال عالية فلا عجب اذا تقاطر اليها الناس ليستوطنوها . امّا ابنان فعبارة عن سلسلة جبال عالية كثيرة الصخور قليلة الخصب ومع ذلك ترى مصانعهُ وقراه متقاربة كثيرة الاهلين بحيث يصحُّ القول انهُ لا يوجد في قطر آخر جبل يربو عدد سكّانهِ على سكّان لبنان

على انَّ الامر لم يكن كذلك في سالف القرون فانَّ لبنان طالما كان قفرًا مقفرًا لا يأوي اليهِ الّا كواسر الوحوش ولبيان ذلك ها نحن نبحث في هذا الشأن لنرى كيف احتلَّ لبنانَ سكّانهُ اوّلًا قبل عهد النصرانيَّة ثم ثانياً في زمن الرومان واخيرًا منذ

---

١) راجع في مجلة اللاهوت الكاثوليكي (Zeitschrift f. kathol. Theologie, 1902, p. 402) بحثًا حسنًا في ما نحن بصدده للدكتور شَندا تزيل كليّتنا سابقًا

دخول الموارنة فيهِ وهي اطوار ثلاثة توافق احوال هذا الجبل الثلاث من حيث السكن فنمت الاهلون الى ان بلغ عددهم الى ما نراه اليوم

*

اعلم انهُ ممَّا لا يختلف فيهِ اثنان ان جبل لبنان كان في الاعصار الغابرة قليل السكن ولا غروَ فانَّ وَضع هذا الجبل وهيئتهُ واحوالهُ الطبيعيَّة والجغرافيَّة ممَّا يمنع عن توارد السكَّان اليهِ · فانَّ مشارفهُ العليا صرودٌ لا يمكن سكناها لبردها ليس فقط في فصل الشتاء لكن ايضًا في بقيَّة السنة · وهي المنطقة التي تعلو ١٨٠٠ متر فوق سطح البحر · فان القسم الذي يعلو هذا الخط يُعرف بالجرود لانَّ ارضهُ جرداء كثيرة الصخور لا ينبت فيها الزرع الَّا ضاوياً وبعد عناء ومشقَّة · ونزيد على ذلك انَّ لبنان كلَّهُ لم يقم قطّ بمعاش اهلهِ لا سيا في عهدنا مع تزاحم السكان فيهِ · وليس هذا ناجماً عن تغافل اللبنانيّين وتكاسلهم لانَّ كل الكتبة لسان واحد على همَّة قطَّان هذا الجبل وملازمتهم العمل ومواظبتهم على الفلاحة · وفي جانب آخر ليس للبنان مناجم معدنيَّة يمكنهم الارتزاق برافقها تعويضاً عمَّا ينقصهم من الغلَّات · وكذلك ترى اسباب التجارة قليلة في لبنان لا يُعبأ بها لانَّ الطرق التجارية لا تخترقهُ فتغنيه قوافل المتاجرين · بل الاحرى ان يُقال انَّ جبالهُ كسدٍّ قائم في وجه الامم الواقعة على عِطفَيهِ فترى بينهما فرقاً كبيرًا من حيث الهواء والنبات وكلاهما يختلف في وجه لبنان · واذا استقريت التاريخ وجدت سياسة شعوبهما متباينة يعيش كلُّ شعب على حدةٍ معتزلًا عن الآخر مع كونهم ينتمون كلُّهم الى عنصر واحد

وممَّا يشهد على صعوبة السكنى في لبنان انك لا تجد في خلال جبالهِ سوى مسالك حرجة وشعاب ضيِّقة لا تُقطع الَّا بالجهد الجهيد · امَّا السُّبُل التجاريَّة اللاحبة التي كانت القوافل تسلكها فانَّها كانت تمرّ شماليّ لبنان وجنوبيَّهُ فتعطف في وادي النهر الكبير او تجاري سيرَ نهر الليطانيّ والطريق الاولى هي التي اغنت طرابلس في الزمن القديم امَّا الثانية فكانت مجلبةً لثروة صور العظمى · وبعكس ذلك لم تُصب بيروت مقاماً كبيرًا في التجارة اذ كان يفصل بينها وبين دمشق والبلاد الداخليَّة سلسلتان من الجبال المرتفعة الى ان فُتحت طريق الشام بعد السنة ١٨٦٠ ثمَّ أُنشئت

السكّة الحديدية.فانتصر الانسان بكدّ جبينهِ على ما اقامتهُ الطبيعة في وجههِ من العراقيل والعوائق

هذا واذا تصفَّحنا أقدم ما سطَّرهُ المؤرّخون عن لبنان وجدناهم يصفون هذا الجبل بغاباتٍ كثيفة تزينهُ . ويوافق هذا الوصف ما ورد في الاسفار المقدَّسة واقدم الآثار الاشوريَّة . وقد دامت هذه الحالة قرونًا متواترة كما يشهد على ذلك مؤرخو اليونان والرومان الذين اثبتنا نصوصهم مرارًا في مطاوي كلامنا عن الارز (ج١ص١٣٤) وفي مقابلتنا بين لبنان وجبال الالب (المشرق ١[١٨٩٨] : ٧٢١) . ومن عجيب الامور انَّ هؤلاء الكتبة لا يذكرون البتَّة شيئاً من قرى لبنان وانَّما يعدّون فقط المدن الفينيقيَّة الواقعة على ساحل البحر . نعم انَّ بعض المستشرقين استشفّوا من وراء اسم « امّيا » الوارد في مراسلات تلّ العمارنة (المشرق ٣ : ٧٨٩) قرية « اميون » الَّا انَّ الامر ليس بمقرّر فضلًا عن ان اميون واقعة في سهل منبسط طيّب التربة قليل الارتفاع وليست هي في وسط لبنان

واوَّل ما ورد من اسماء الدساكر اللبنانيَّة في اساطير المؤرخين انما جاءَ في جغرافية اسطرابون اعني قبل تاريخ الميلاد بزمن قليل بعد ان فتح پُمپيوس بلاد الشام ألَا وهي اسماء ثلاثة حصون او قل بالاحرى ثلاثة عشوش للُّصوص تدعى جيغرتا وسنَّان وبرومة (المشرق ٢ : ٥٠٧) ومواقع اخرى مثلها اكثرها قريب من البحر . وممَّا يستدلّ من مجرَّد ذكر هذه الحصون انَّ سكنى الجبل كانت محفوفةً بالاخطار لا يتوطَّنهُ الَّا قليل من السكَّان. وسنعود الى ذكر هؤلاء اللصوص عند كلامنا عن الايطوريين وهم قومٌ من عرب حوران امتزجوا بالعنصر اللبناني

امَّا الكتابات القديمة فهي عزيزة جدًّا في لبنان وكلُّ ما وُجد منها لا يتجاوز قِدَمهُ اوائل التاريخ المسيحيّ وقد اكتُشف معظمُها قريباً من الساحل ليس بعيدًا من جُبيل وبيروت وهذا دليل واضح على قلَّة سكَّان لبنان قبل المسيح . ولنا ايضًا على قولنا برهان آخر في ما نراه من الاخربة القديمة في لبنان فانك قلَّما تجد بينها من الآثار السابقة لعهد النصرانيَّة وكذلك النقوش المحفورة على الصخور فهي كلها من عهد الرومان اللهمّ الَّا نقوش وادي بريسا قرب الهرمل وسيأتي ذكرها

ومع كلّ هذه الشواهد انَّنا نرجّح كون لبنان لم يخلُ من بعض المراكز الآهلة

كان موقعها في وسط الجبل اتّخذها الاقدمون في بعض الوديان والبطائح الحسنة التربة الكثيرة المياه السهلة الزراعة (١ . وكذلك كنت ترى في خلال الغابات منازل للحطّابين كانوا يعدّون فيها الخشب لاسيّما الارز الذي كان القدماء يقبلون عليهِ لتجهيز مبانيهم ومنهُ كان الفينيقيّون يعمّرون سفنهم واساطيلهم (٢ . ولعلّ بعض القرى التي تُعدّ من اقدم دساكر لبنان كاهدن وبشرّاي ابتدأت على هذه الصورة فكانت اوّل امرها كمصانع لتحطيب الارز وغيرهِ من الاشجار الجبليَّة العظمى . وقد اوردنا في ما مرّ كتابات يونانيَّة وُجدت في اهدن ترتقي الى التاريخ المسيحي ومنها يستدلّ على انّ تلك القرية سبقت عهد النصرانيّة . امّا بشرّاي فان اشتقاق اسمها على رأي البعض من اسم الالهة عشتار وبهِ دليل كافٍ على قدم عهدها

ومن القرى التي نرجّح قدمها الهرمل الواقعة على منعطف لبنان الشرقيّ . ولا غروَ فانّ موقعها في بطحاء مخصبة غزيرة المياه ممّا يستدعي الى استعمارها وبقربها وُجدت صفيحتان فيهما كتابات اشوريَّة قديمة نشير اليها قريباً

ومن الامكنة التي نزلها الناس في غابر الاعصار بعض المقامات التي اتّخذها الاهلون كمناسك دينيَّة منها اليمُّونة وفقرا ودير القلعة ومشنقة . فان هذه المحلّات وان لم يرد ذكرها قبل ايّام الرومان فانّ اصلها فينيقيّ محضٌ لا محالة

وعلى هذه الصورة اضحى لبنان شيئاً فشيئاً معدًّا للسكن . فانّ الاهلين ضربوا اطنابهم اوّلاً قريباً من المدن الساحليَّة وفوق رُبًى لا يتجاوز علوّها من ٤٠٠ متر الى الف متر حيث الهواء لطيف والرزق مضمون . ثمّ اخذ لبنان يُجرَّد من احراجهِ الكثيفة الدغلة لمتاجرة الاهلين بخشبها فصار الناس يفلحون الاراضي التي نُزعت عنها الادغال ويشيّدون المباني للسكن وكان ذوو الثروة من اهل الساحل يتوقّلون في فصل القيظ مشارف لبنان ترويحاً للنفس وطلباً للراحة بعد ما تجشّموه من الاسفار الشاقّة

*

فاخذ من ثمَّ القطين يتوغّلون في لبنان فازداد عددهم ونموا خصوصاً بعد الفتح الروماني . وقد اسلفنا فوصفنا ما نجم عن دخول الرومان في سوريَّة من المنافع الجمَّة

---

١) وممّا زُرع فيها الجَفْنة فان هوشع النبيّ ذكر في كتابهِ (١٤ : ٨) خمر لبنان واطراهُ

٢) راجع ما سبق لنا في الجزء الاوَّل في هذا الخصوص

(راجع الجزء الاوّل ص ٢٠) فان تملّكهم رفع بهـا الى اعلى مقامات العمران والتقدُّم . فهم الذين قصُّوا اجنحة الفتن ومـدُّوا أَروقة السلام فوق كل الاهلين على اختلاف اجناسهم . ومن اعمالهم المشكورة انهم استأصلوا شأفة اللصوص الذين كانوا تحصَّنوا في لبنـان فدكّوا معاقلهم واعادوا الأَمن الى السكّان (ج ١ ص ١٤٦) . فراجت اسواق التجارة واضحت المدن الساحليّة محطًّا للقوافل ومركزًا للمعاملات لاسيَّما جبيل وبيروت وصور فانتشرت منها هذه الحركة الى ضواحي لبنان المجاورة لها . وممَّا زاد في خصب الجبل ما ابتناه الرومان من القنيّ لجلب مياه لبنان من عيونهـا فكان ذلك من ادعى الوسائل لنشر الحضارة وتلطيف الهواء في مـدن الساحل . ومنها ايضاً السكك الرومانيَّة التي كانت تستدير سائرةً حول لبنان . واحدى هذه السكك كانت تخترق الجبل في عرضهِ سائرةً الى جنوب العـاقورة ومنها الى بعلبك (المشرق ٢ [١٨٩٩] : ٣١٤) . ولما كان لبنان لم يزل بعدُ مزداناً بغاباتهِ سعى الرومان باستثمارها ووضعوا لذلك قوانين مملوَّةً حكمة اشرنا اليها سابقاً

ولا عجب اذا رأَينا لبنان في ايَّام الدولة الرومانيَّة تغيَّرت احوالهُ وترقَّت شؤونهُ والى ذلك العهد تنتمي عدَّة كتابات منها يُستدلُّ على وجود قرى وضياع او بالاحرى مزارع ودساكر . ومن غريب امر هذه الكتابات انَّها لا تحتوي علماً لمكان واقع في قلب لبنان . ومجمل ما تتضمَّنهُ اعلامٌ شخصيَّة فقط

وفي ذلك العهد استبدل الرومان المعابد الفينيقيَّة الصغرى بهياكل فخيمة يتولَّاها عدد غفير من السَّدَنة وارباب الدين فكان يتقاطر اليها الزوَّار زرافاتٍ ومنهم من كانوا يختارون تلك الامكنة لسكناهم فأُنشئت عدّة قرى حول هـذه المقامات الدينيَّة . وكان لهذه الهيا كل ارزاقها وغاباتها المقدَّسة واوقافها وكرومها . ومعلومٌ انهُ لا نُدحة للقيام بكل هذه الاملاك من عملة وفلّاحين يستثمرونها (١ . فلا غروَ ان ضيعاً كثيرة ظهرت على هذه الطريقة الى حيز الوجود نخصّ منها بالذكر قرية دير القلعة التي كان يحجُّ الى هيكلها اهل بيروت ويقضي فيها مستعمرو الرومان فصل الصيف

والى هذا الزمان ننسب ما اكتُشف في امكنة عديدة من الآثار الزراعيَّة وادوات

---

١) راجع قاموس العاديّات اليونانيَّة والرومانيَّة لساغليو (Saglio) ك ١ ص ١٥٠١

الفلاحة كالمعاصر والاجران والرحي الضخمة (المشرق ٥ [١٩٠٢] : ١٠٧) والنواويس ومدافن لا يستقصى عددها منقورة في الصخور وكان الرومان كلفين بغرس الكروم فبعثوا همّة الاهلين على فلاحتها فما عتّمت صنوف الخمر اللبنانيّة ان اشتهرت في العالم الروماني فعُرفت بالخمور البيروتيّة (راجع پلينيوس ك ١٤ ع ٧ , ٩ وك ١٥ ع ١٧ , ١٨) . ومن ادلّة الزراعة انّك ترى بين اليمُّونة وبعلبكّ كتابات عديدة تحدُّ الامـلاك وتفرز بينها . وفي امكنة اخرى كتابات غيرها منها لاتينيّة ومنها يونانيّة يُستفاد منها تعدُّد السكّان وتوفُّر المنازل . وهذه الكتابات قد اثبتناها في مقالاتنا في مطاوي كلامنـا عن كل محلّ بمفردهِ فلتُراجع . ولدينا غيرها ايضًا سنثبتهـا ان شاءَ الله عند بحثنا عن القرى الواقعة في المنعطف الشرقيّ من لبنان حيث نشأت قرى عامرة بعضها في جوار بعلبكّ وبعضها في ضواحي زحلة كفرزل ونيحا وجديتـا . وممّا يجدر بنا ذكرهُ انّ كلّ هذه الكتابات والعاديّات لا تتجاوز القسم المتوسّط من لبنان اعني الى نحو ١٠٠٠ متر من سطح البحر وفي ذلك دليل على ان القسم الاعلى لم يُتَّخذ بعد للسكنى وانما كانت الغابات تكلّلهُ كما في القُرون السالفة

*

وفي اثناء ذلك ظهرت النصرانيّة ففتح ظهورها باباً جديدًا للتمدُّن والحضارة في لبنان . فانّ المستعمرات الرهبانيّة التي ذكرناهـا سابقاً (ج ١ . ص ١٠٩) اتّخذت لبنان منزلًا لاعمالها النسكيّة وقد اختارت لذلك اقفر مـا وجدتهُ من الاودية فصار النسّاك يُجيلون فيها يد الحراثة . حتى اضحت هذه المناسك بعد قليل مراكز لضياع عديدة كما جرى في اوربّة حيث ترى مدناً كثيرة كانت في اوّل امرها ديورة للرهبان أوى اليها القوم فصارت مع تمادي الأيّام بلادًا واسعة

ولكن لا يسعنا السكوت عن امر يذهلنا ايّ انذهال وهو قلّة الآثار النصرانيّة في لبنان قبـل القرن السابع فانك لا تكاد تجد اثرًا واحدًا منها يمكن نسبتهُ الى النصارى بلا رَيب مع كثرة العاديّات الوثنيّة الموجودة في انحاء الجبل . وكذلك ترى من الكتابات اليونانيّة واللاتينيّة قسماً صالحاً وهي كلّها لعبـدة الاصنام اللهمَّ الّا خمس او ستّ منها باليونانيّـة . فياليت شعري ما السبب في ذلك . أليس هذا دليلًا على ما لاقتهُ النصرانيّة في سبيلها من العراقيل لمّا حاولت ان تنشر تعاليم الخلاص

بين اهل لبنان . ولنا في تعليل ذلك سبب آخر وهو ان الفوز الاخير الذي نالهُ الدين النصراني في لبنان انّما كان على يد قوم من الآراميين ليس من اليونان ولذلك لا تجد من الكتابات اليونانيَّة النصرانيَّة الّا النزر القليل

فان تخطَّينا الآن الى ذكر تاريخ لبنان في القرن السابع وجدنا هذا الجبل قد دخل في طورٍ جديد بظهور المَردة والموارنة الذين لعبوا دورًا مهمًّا في طوارئهِ المختلفة . وكان قبلهم لم يُفلَح منهُ الّا ساحلهُ ووسوطهُ بعد تجرّدها من غاباتها امّا لبنان الاعلى والجرد منهُ فانهُ لم يزل قفرًا خالياً من السكَّان حتى أوى اليهِ الموارنة فاضحى معمورًا حافلًا بالقطين كبقيَّة نواحي لبنان . وسنبيّن ان شاء الله قريباً كيف تركَّبت الأمَّة المارونيَّة الّا اننا نقدّم على هذا البحث فصلًا آخر في شعوب لبنان القديمة وسكَّانهِ الاوَّلين

٥ الامم البائدة في لبنان

انَّ بين الامم التي سكنت في سالف الازمنة مشارف لبنان واوديتهُ شعوباً دثر رسمهم وباد اسمهم . ومنهم من خلَّفوا لهم ذكرًا كبني كنعان والفينيقيين والآراميين فاحتلّوا ربوعهُ وتوالوا في سكناه فصارت سلالتهم كنواة هذه الشجرة الكثيرة الفروع والعنصر الاصلي لسكَّان لبنان الحاليين . وليس في خاطرنا ان ندوّن هنا اساطير هذه الامم فانَّ ذلك يقتضي كتاباً ضخماً يخرج بنا عمَّا تحرَّيناهُ من الخطَّة في الكتابة وانَّما نبحث فقط عن بعض هؤلاء الشعوب الذين يهمّنا ذكرهم ممَّن قحموا على لبنان فاستوطنوهُ كلَّهُ او قسماً منهُ ردحاً من الزمان ثم درسوا امّا بالمهاجرة الى غيرهِ من الاقطار-وامَّا بفتوح الفتّاحين او باختلاط بعض بقاياهم بالعناصر الواردة الى لبنان

وهذا النظر العمومي مع قصره كافٍ ليحيط قرّاؤنا علماً باخلاط القبائل والامم الشتى التي يتركَّب منها اهل لبنان وفي بحثنا هذا نتبَّع آثار شعبٍ فشعبٍ على حسب توالي الازمنة وكرور الاجيال

١ الحثيُّون

لم يكن ذكر الحثيين مستفيضاً بين العلماء قبل اواسط القرن الماضي . وغاية ما كنَّا

نعلم من امرهم ما ورد من اخبارهم في الاسفار المقدَّسة . فانَّ ابراهيم الخليل عقد معهم عهداً ذكرهُ سفر التكوين (ف ٢٣ ع ١٠ — ٢٠ وف ٢٥ ع ١٠) . وكذلك قد اتَّخذ عيسو بن اسحاق امرأتين من بني حثّ (تك ٣٦ : ٢) ومن نسلهم كان اوريّا الحثّي زوج بتشابع احد قوَّاد جيوش داود . هذا الى اشارات أُخرى عديدة يلمّح اليها الكتاب الكريم ويؤخذ منها ما كان عليهِ الحثّيون من عظيم الشأن وكبير الامر . على ان بعض الكتبة لم يأنفوا من انكار هذه الامور او الارتياب في صحَّتها وذلك لانهم لم يجدوا في غير الاسفار المقدَّسة ما يؤيد صدقها . وكانوا يزعمون انهُ ليس بين المؤرخين كاتب واحد ذكر الحثيين

وقد شاء الله ان تشهد الاكتشافات الحديثة لصحَّة ما ورد في كتبهِ المنزلة وهاك بيان الامر : كان بلغ علماء العاديَّات منذ اوائل القرن التاسع عشر انَّ في مدينة حماة صفائح من الحجارة الضخمة عليها كتابات تشبه بعض الشبه الكتابات الهيروغليفيَّة المصريَّة وهي تختلف عنها . ولم يتسنَّ لاحد من الآثاريين ان يفحصها فحصاً مدقَّقاً الى عام ١٨٧٢ . فلمَّا تفرَّغوا لدرسها في تلك السنة اخذ الدهش منهم كل مأخذ اذ تحقَّقوا انَّ الكتابات المذكورة للحثّيين وانْ هي الَّا الآثار الاولى التي تنبئ عن دولتهم العظمى التي امَّحى ذكرها (١ . فجعل العلماء ينعمون النظر في آثار تلك الامَّة ويبحثون عن دفائن أُخرى توقفهم على اسرارهم فما كذَّبوا ان اكتشفوا بعد زمن قليل عدَّة آثار ازالت كل الشبهة فوجدوا العاديَّات الحثّيَّة متعدّدة في حلب الشهباء وفي سهل عمق شرقي انطاكية وقريباً من الاسكندرونة وفي مرعش وجرابلس على ضفَّة الفرات وفي جهات أُخرى من بلاد الاناضول . وكانت هذه العاديَّات امَّا كتابات منفردة وامَّا كتابات مع بقايا ابنية فخيمة او تماثيل او نقوش منقورة في الصخور او خواتيم وغير ذلك ممَّا أَطلع اصحاب النَّقد على تمدُّن واسع قائم بذاتهِ . فمذ ذاك الحين دخل الحثّيون في نطاق التاريخ ولم يعد احد يشكّ في وجودهم

ثم واصل العلماء ابحاثهم فاطلقوا رائد النظر في الكتابات المصريَّة القديمة والكتابات

---

١) راجع كتاب العلَّامة رَيْت W. Wright : *The Empire of the Hittites*
ثم الكتاب The City and the Land

الاشوريّة لعلّهم يجدون فيها ما يزيدهم علماً بهذا الشعب المجهول. فما كذب ظنّهم بل اطّلعوا على افادات عديدة تبيّنوا منها امورًا لا تحصى بخصوص الحثّيين ودولتهم . ولحضرة الاب دي كارا اليسوعيّ فيهم مقالات مهمّة نشرها تباعاً في مجلّة الآباء اليسوعيين الايطاليّة "التمدّن الكاثوليكيّ" احرزت لهُ ذكرًا مستفيضاً بين المستشرقين. ومع كل ما كُتب عنهم في هذه السنين الاخيرة لا يزال العلماء يجهلون اشياء كثيرة من اخبارهم واسرار تاريخهم وسيبقى الامر كذلك ريثما لم يسعد الحظّ احدًا من ارباب العلم على قراءة الكتابة الحثيّة التي لا تزال مجهولة. ولا نظنّ احدًا يقوى على قراءتها حتى يجد كتابةً بلغتين حثيّة وغيرها تكون كمفتاح لها كما جرى لشمبوليون عند ما فكَّ اسرار اللغة المصريّة بواسطة حجر رشيد (راجع المشرق ٣ [١٩٠٠] : ٨٩٢)

ولكن من كان يا ترى هؤلاء الحثيّون ما اصلهم ما فصلهم ؟ نجيب انَّ الحثيين ليسوا من اهل الشام وانّما قدموا الى سوريّة من جهات الشمال . امّا عنصرهم فالرأي الشائع حتى الآن انهم ليسوا من بني سام (١ . وممّا ثبت من امرهم انّهم كانوا تولّوا منذ القرن السادس عشر قبل المسيح البلاد الواقعة في شمالي سوريّة بين نهرَيْ عفرين والفرات . ثم تقدّموا حتى سطوا في القرن الرابع عشر على وادي نهر العاصي وسهل البقاع حتى جنوب فلسطين في جوار مدينة حبرون حيث اجتمع بهم ابراهيم الخليل وبنوهُ من بعده

وكانت في ذلك العهد حاضرة ملكهم في سوريّة مدينة قدَس التي يظنّ العلماء انَّ موقعها كان في المحلّ المعروف اليوم باسم تلّ نبي مَنْد عند بحيرة قطينة قريباً من حمص (٢ولا نريد هنا ان نبسط الكلام في الحثيين وانما غايتنا ان نذكر ما كان لهم من العلائق مع لبنان

---

١) راجع ما كتبهُ في هذا الشان العلّامة مسپيرو في تاريخهِ القديم (٢ : ٣٥٢) ثم دي لنتشير (De Lantsheere) في كتابهِ عن اصل الحثّيين ولغتهم ثم جنسن في كتابهِ من الحثّيين والارمن وهو يزعم ان الحثيين قبيلة ارمنيّة

٢) راجع مقالتنا المعنونة Notes épigraphiques et topographiques sur l'Emésène, p. 46

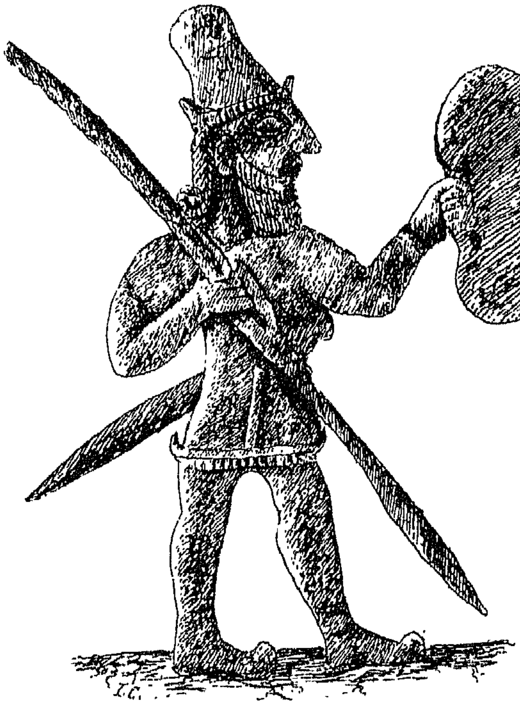

صورة احد غُزاة الحثّيين (عن اثر قديم)

وان سألتَ هل احتلَّ الحثّيون هـذا الجبل ؟ أجبنا انهُ ليس لدينا اثرٌ صريح ينبئ بهذا الامر ولا غروَ لانَّهُ كما قلنا سابقًا لا نعلم الّا النزر القليل من تاريخهم واتساع دولتهم . ونرجّح كونهم ضبطوا على الاقلّ جهات لبنان الشماليَّة ولعمري كيف يقبل العقل انَّ امَّة قويَّة رجالها مغاوير حروب اتَّخذت لها عاصمةً مدينة قدَس لم تمدّ ظلَّ سطوتها على شمالي لبنان وليس بينهما الَّا قاب قوسين اعني سهلًا ضيّقًا فقط . ولو افترضنا انَّ لبنان في زمانهم كان عبارة عن غابات كثيفة هل اهمل الحثّيون امرهُ وفي وسعهم ان يستثمروا خشب ارزهِ الفاخر ويستخدموه لمبانيهم الكبرى وعمائرهم (١

---

١) راجع مقالتنا في ارز لبنان (ج ١ . ص ١٢٤)

وعلاوةً على ما تقدَّم لا يمكنَّا ان نسلّم بان الحثّيين تغاضوا عن احتلال وادي النهر الكبير الذي يفصل لبنان عن جبل النصيريّة وهم يعلمون انَّ هذا الوادي طريق الامم الفاتحة . وذلك يظهر من تاريخ الفراعنة انفسهم اذ انَّ رعمسيس الثاني لمَّا اتى لمقاتلة الحثيين سارَ الى محاربتهم مارًّا بهذه الطريق

فلا بُدَّ اذن من القول ان الحثيين بعد ان استولوا على البقاع ملكوا ايضًا عطف لبنان الشرقي والمسالك التي تفضي الى لبنان الغربي . ومما يؤيد هذا الرأي ان سهول البقاع المتوسطة كانت في تلك الازمنة القاصية عبارة عن مستنقعات مائيّة لا يمكن استيطانها فلزم اذًا الحثيين انْ يسكنوا الجهات المرتفعة فوق تلك البطاح

على اننا نرى دلائل أُخرى باقية الى عهدنا تحملنا على ترجيح هذا الامر وهي اسامي عدَّة امكنة في سوريّة تُدعى « حتَّا » او « كفرحاتا » فارتأى العلماء انَّ هذه الاسماء اشارة الى احتلال الحثّيين في بلاد الشام لانَّ « حتَّا » او « ختَّا » هو اسم الحثّيين نفسهُ . فان صدق هذا القول ولعلَّ فيهِ شيئًا من الصحّة أَفليس لنا ان نقول عن القرى الموجودة في لبنان باسم « حتَّا » او « كفرحاتا » انَّها آثار باقية من زمن الحثّيين . بيد انَّ هذا القول ليس بقاطع لانهُ يُمكن اشتقاق « حتَّا » من لفظة سريانيّة « ܚܕܬܐ » التي معناها « الحديثة » او « الجديدة » ويؤيد ذلك انَّ قرى لبنانيّة عديدة تدعى ايضًا «حدَث» و «مُحَيدثة» ونعدّ « حتَّا » اقرب الى السريانيّة من سواها . ولسيادة المطران بطرس شبلي كلام حسن في هذا الشان اثبتهُ في المجلّة الكتابيّة (Revue Biblique, 1901, p. 587)

ومن الاسماء اللبنانيّة الكثيرة الورود اسم « شغور » او « شاغور » كعين شاغور في حمَّانا وغيرها . وكذلك « جسر الشغر » او « جسر الشغور » في ولاية حلب . وقد ثبت الآن انَّ شاغور كلمة حثّية الاصل وهي فيها « ساغورة » (١

هذه آثار جمعناها هنا للاستدلال على اقدم الشعوب البائدة في لبنان وهي كما ترى خفيفة الَّا انَّ املنا وطيد ان الاكتشافات المستقبلة سوف تطلعنا على ما هو اقوى منها حجّةً وادلُّ بيانًا والله على كل شيء عليم

(١ راجع مقالة لحضرة الكاتب ا. شندا في مجلَّة Mittheil. d. Vorderasiat. Gesell., 1902, p. 19

٢ اليونان

انتقض حبل الحثّيين في الشام (ولبنان معها) بتغلّب الفراعنة على سورية · ثم تبعهم ملوك اشور الكلدانيّون وخلف الفرسُ الاشوريين · وكلُّ هذه الدول بعد كسرتها تركت من آثارها شيئاً في بلادنا ولا بُدَّ ان يكون تخلّف من تلك الامم بعض بقايا امتزجت باهل فينيقية امتزاج الماء بالراح حتى لم يَعُد يمكن افراز هذه العناصر الغريبة عن الاهلين الاصليين · وكان لبنان في عهد كل هذه الدول قليل السكّان للاسباب التي ذكرناها في مقالاتنا السابقة وان كان عدد المهاجرين اليهِ لم يزل يزداد يوماً فيوماً بتزاحم السكّان وحراثة الآكام الواقعة عند منعطف الجبل

ولمّا كانت اواخر القرن الرابع (ق م) ظهر ذالك البطل الصنديد والملك العظيم اسكندر ذو القرنين المقدوني فكان اوّل ما تطالّ اليهِ عنقهُ البلاد السورية وكان يملك عليها وقتئذٍ داريوس ملك الفرس فزحف اليها بجنودهِ بعد ان غلب اعداءهُ في سهول قيليقية قريباً من مدينة ايسّوس فما مرّ عليهِ بضعة اشهر حتى فتح سواحل فينيقية وخضعت لهُ دمشق ولم يقم في وجههِ الّا صور فحاصرها مدّة الى ان اخذها عنوةً في تمّوز من سنة ٣٣٢

وكان في اثناء محاربة الاسكندر لصور قد اغتال بعض اجلاف اللبنانيين قوماً من اصحاب الملك فقتلوهم · فسار الاسكندر بقسم من عسكرهِ الى لبنان فلم يلقَ في وجههِ عدوّاً ثم وصل الى البقاع والجبل الشرقيّ فعاد بعد عشرة ايّام غانماً ظافراً

وما لبث ذو القرنين بعد فتح صور حتى اخضع بلاد فلسطين ومصر ثمّ سار الى اقاصي المشرق ففتح ما فتح ومات بعد عشر سنوات في بابل سنة ٣٢٣ ق م

فصارت سوريّة من بعده الى احد قوّادهِ سلوقوس نيقاطور فتملّكها وألحق لبنان بها فدخل هذا الجبل تحت حكم السلوقيين الى ايّام الرومان

وهنا مبحثٌ مهمّ لم نكن لنتعرّض لهُ لولا انّ بعض المحدثين استندوا الى حجج واهية ليؤيدوا زعمهم الباطل

ودونك القضيّة المطلوب بيانها هل يا تُرى لمّا استوى اليونان على جبل لبنان غلب العنصر اليونانيّ العنصرَ الفينيقيّ او الآراميّ بحيث يصحّ القول انّ اليونان من الامم التي استوطنت لبنان

نجيب على هذا القول بالاجمال انّنا بيّنّا غير مرة انّ العنصر المتغلّب على سوريّة في عهد اليونان كان العنصر الآراميّ لا اليونانيّ (راجع المشرق ٣ : ٢٦٨) . فان صدق ذلك عن سوريّة عموماً فهو اصدق واحقّ عن لبنان خصوصاً فلأنّ آراميّة سكّانهِ في ايّام الدولة اليونانيّة اوضح من النهار

وكأنّي بالمعترض يستوقفني هنا ليردّ على هذا القول بدليلين على زعمهِ مقنعين اوّلها اسماء اعلام الامكنة وثانيهما الكتابات اليونانيّة في لبنان

نجيب على الاعتراض الاوّل انّنا اذا استثنينا بعض امكنة من سواحل فينيقية او من مستعمرات اليونان (راجع المشرق ٣ : ٢٧٠) لا نكاد نجد اسم قرية في لبنان مشتقّ من اليونانيّة بل اكثر الاسماء ان لم نقل كلّها آراميّ محض مع بعض اسماء عربيّة احدث عهداً . وترى المعابد الكبرى نفسها كدير القلعة والمشنقة التي فُقدت اسماؤها الآراميّة لا نعرف لها اسماً يونانيّاً . وما لا مراء به انّ المدن الساحليّة التي صحّف اليونان اسماءها الآراميّة عادت بعد حين الى اسمائها الاصليّة

امّا الاعتراض الثاني المستند الى الكتابات اليونانيّة التي وُجدت في لبنان فانهُ يظهر لاوّل وهلة اقوى حجةً وادلّ بياناً ولكن اذا سبرناهُ بعيار الانتقاد وجدناهُ واهناً كالاعتراض السابق ولا يثبت البتّة زعم المحتجّ

لا ننكر وجود الكتابات اليونانيّة في لبنان وقد اسعدنا الحظّ على اكتشاف كثير منها ابرزناها الى عالم الوجود في المجلّات الاوربيّة . لكن مجرّد وجود الكتابات اليونانيّة في محلٍ ما لا يدلّ على كون اهل هذا المكان من اليونان . نرى اليوم في لبنان عدّة كتابات تركيّة او افرنسيّة على بعض المباني المستحدثة فهل يستنتج احدٌ من هذه الخطوط انّ اهل لبنان من العنصر التركي او الفرنسيّ ؟ وكذلك في لبنان عاديّات وكتابات لاتينيّة كثيرة من عهد الرومان فمن يا تُرى زعم لاجل ذلك انّ اهل لبنان كانوا رومانيين . وغاية ما يُستدلّ من الامر ان الرومان ملكوا لبنان او انّ بعض أسرات منهم احتلّت بعض انحاء الجبل لترويح النفس كما يفعل اليوم كثير من الاوربيين. فكذلك الكتابات اليونانيّة انّما تدلّ على انّ اللغة الرسميّة كانت في ذلك العهد لغة اليونان وانّ بعض وجهاء اللبنانيين جنحوا الى آداب اليونان ولغتهم كما يتفرنج اليوم ابناء الوطن فلا يتكلّمون بغير اللغة الفرنسويّة ولا يكتبون الّا بها

فدليل الكتابات وحده لا يجدي اذًا نفعًا لبيان عنصر امّةٍ ما اللّهمّ الّا بان يضاف الى ادلّة أُخرى تاريخيّة وضعيّة تزيل الشبهات. وقد لحظ ذلك احد علماء عصرنا وهو نُلدكه الشهير (١ قال: « انهُ لا يجوز الاستناد على مجرّد وجود كتابات في احدى اللغات او عدم وجودها للقول بان اهل ذلك البلد كانوا من ذلك العنصر او لا ». مثال ذلك مدينة بيروت التي لم يُلقَ فيها حتى الآن كتابة فينيقيّة أفيسوغ ان نقول انّها لم تكن فينيقيّة ؟ كلّا. وكذلك لبنان ساءَ من زعم ان اهلهُ كانوا يونان او رومان لوجود كتابات قديمة فيهِ من عهد هاتين الدولتين

وعلاوةً على ما تقدّم انّنا نرى الكتابات اليونانيّة المكتشفة في لبنان مشحونةً بالاغلاط مشوّهة بالتصحيفات غير تامّة المعاني وكلُّ ذلك دليل على انّ النُّسّاخ والحفّارين كانوا يرسمون الالفاظ رسمًا ماديًّا وهم لا يدركون معانيها (ج ١ ص ١٢٧)

وان قال قائلٌ انّ اعلام الاشخاص المرسومة على هذه الآثار يونانيّةٌ اجبنا مع اكبر العلماء باحوال الروم وهو العلّامة الشهير مُمْسِن (Mommsen) في تاريخهِ (٢: « انّ اغلب هذه الاسماء ليست يونانيّة او ان كانت يونانية ترى معها الاسم الفينيقيّ او الساميّ الذي كان يُعرَف بهِ الشخص » . وفي هذا القول بيّنة واضحة على انّ اليونانيّة لم تكن سوى مسحةٍ ظاهرة وزيّ خارجيّ تزيّا بهِ اهل لبنان حبًّا بالجاه وتشبُّهًا بمتأدبي ذلك العصر

ولعلّ المعترض يزيد على ما سبق اعتراضًا ثالثًا بقولهِ : « ان قيام معبودات اليونان مقام آلهة فينيقية والشام دليل على تغلُّب اليونان » . اجبنا ان هذا البرهانَ والحقّ على طرفي نقيض . فانهُ لا يوجد بلدٌ حافَظَ اهلهُ على معبوداتهِ القديمة مثل لبنان والشام فانّ الدين الآراميّ والفينيقيّ صبر على كل التقلُّبات السياسيّة الى ان غلبتهما النصرانيّة . وكلُّ ما يمكنّا ان نسلّم بهِ من هذا القبيل ان بعض اسماء الآلهة الفينيقية برزت على صورة يونانيـة في لفظها . وكذلك اطاق الكتبَة اليونان واصحاب الامر على هذه

---

١) راجع المجلّة الاسيوية الالمانيّة ZDMG, 1885, p. 333

٢) راجع Roem. Geschichte, V, 453

الالهة اسماء غريبة فدعوا هذا « جوبتير » وذاك « ابولون » اما الاهلون فحافظوا على اسماء آلهتهم بكل حرص حتّى انَّ المؤرخ مُمسِن السالف ذكرهُ بيَّن في تاريخهِ (ج ٢ ص ٤٥٢) ان اهل سوريَّة لم يختلطوا باليونان الَّا اختلاطاً سطحيًّا واثبت ذلك بانَّهم حافظوا على اديانهم الخصوصيَّة في حلب وافامية وحمص وتدمر . وكذا قُل عن دير القلعة حيث شاعت عبادة بعل مرقد . وهذا البعل كان مشهورًا وقد ورد اسمهُ في الكتابات اللاتينيَّة على لفظ « جوبتير » لا لكونهِ الهاً رومانيًّا بل مراعاةً للدولة واستجلابًا لخاطر اليونان والرومان واستدرارًا لعطاياهم اذ كانوا يحجّون اليهِ . ولعلَّ سدَنة بعل مرقد سمَّوهُ ايضاً بهذا الاسم دلالةً على امانتهم للسلطة الرومانية واعتصامهم بحبلها . ولذلك

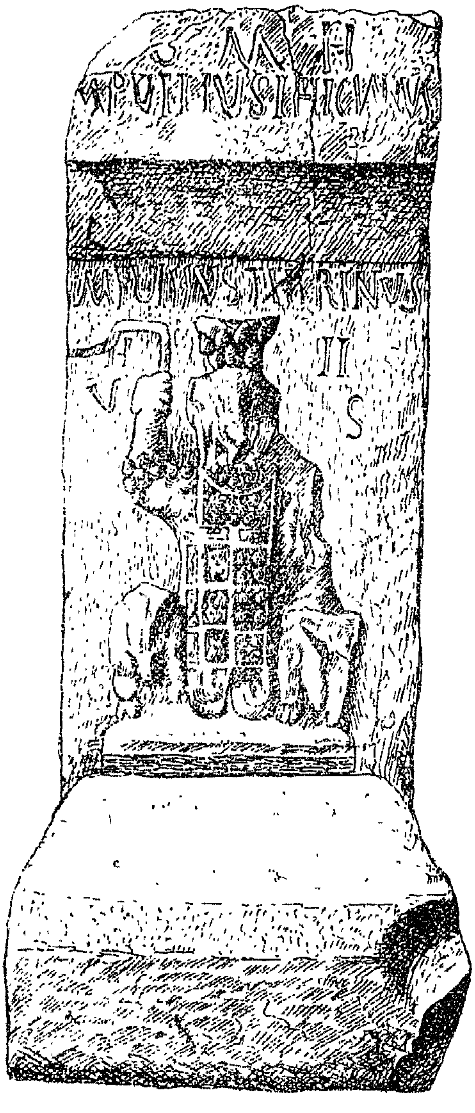

تمثال المشتري (بعل) البعلبكيّ في دير القلعة

ترى بعل بعلبك وبعل دير القلعة ملقَّبين في الكتابات بالقاب جوبتير رومية العظمى المعروف « بجوبتير كابيتولان » فيُدعيان مثلهُ بالاله الصالح الاعظم Jupiter (optimus maximus) وكذلك ترى إلهةً ساميَّة ملقَّبة بسم إلهة الرومان « جونون الملكة (١ » (Juno regina)

وقد رسمنا هنا صورة تمثال جوبتير بعلبكّ الذي اكتشفهُ حضرة الاب رنزڤال في دير القلعة لترى كم يختلف الإله الفينيقيّ عن الإله الرومانيّ في الصورة والهيئة (انظر الصورة في الصفحة السابقة)

واذا عدلت الى هيكل افقا وجدت كذلك عبادة عشتاروت الفينيقيَّة مستترة برداء الإلهة الزُّهَرة اليونانيَّة وان كانت كل واحدة مختلفةً عن الاخرى . وذلك يظهر من شعارها الذي لا يشبه في شيء شعار إلهة اليونان

ومـا قلناهُ عن العنصر الآرامي في لبنان يصحّ ايضاً عن لغتهم الدارجة فانَّها كانت الاراميَّة . وهو رأي المؤَرخ الشهير مُمسِن اذ قال (ص ٤٥٢) : « اني اظنّ انَّ اللغة الآراميّة كانت اللغة السائدة دون غيرها في لبنان على عهد قياصرة رومية » . وان نسب احد هذا الكاتب الى الغلوّ والمبالغة ورأى انهُ بخس حقوق اليونانيـة في الشام تصدَّى لهُ احد ائمّة العلماء المبرزين وهو نلدك الالمانيّ الذي ليس فقط يوافق وطنيَّهُ مُمسِن بل وجد انهُ مقصِّر في حقوق الآراميَّة وقد اتى مصداقاً لقولهِ بحجج تثبت شيوع الآرامية بحيث لا يبقى بعدها ريب (٢

ثم ولو سلَّمنا بان اللغة اليونانيَّة طمست في لبنان آثار اللغة الآراميَّة فلا ينتج من ذلك انَّ اصل اللبنانيين يونانيّ . وليست اللهجة وحدها كافية لتعريف الاصل . وانَّما ذلك دليل يُقتضي تأييدهُ بدلائل أُخرى تجلي الحقيقة وتوضحها . فانَّ التاريخ ينبئ بوجود امم عديدة تكلَّمت بلغة غير لغتها الاصليَّة . فانَّ اللاتينية مثلًا درجت بين شعوب شتَّى لم يكن بينها ادنى علاقة . وقس عليها العربيَّة وغيرها

وخلاصة القول انَّ العنصر اليونانيّ كان دائماً في لبنان عنصرًا زهيدًا لا يُعبأ بهِ . ونستسمح القارئ عذرًا على انَّنا اطلنا القول في هذه القضيَّة التي لا يختلف فيها اثنان بين علماء العاديَّات

---

١) Beitraege z. alten Gesch., II, 196

٢) راجع ZDMG, 1885, 332-351

٣ الايطوريُّون

سبق لنا القول (ج ١ ص ١٤٤) انّ الرومان لمّا فتحوا الشام وجدوا لبنان في حوزة قوم من الغزاة كانوا عشّشوا في جبالهِ الساحليّة الممتدّة من طرابلس الى جبيل . وهم الايطورّيون

وليس هؤلاء القوم من لبنان وانّما اصلهم من اللجأ ومن جبال حوران وكانوا ذوي بأس وطمع فتحاملوا على الجبل الشرقي واتّخذوا خيراتهِ كطعمةٍ ثمّ تشوّفوا الى لبنان فاستولوا عليهِ قبل زمن الدولة الرومانيّة بقليل

والايطورّيون احدى القبائل العربيّة او الارامية (١ التي كانت مذ ذاك العهد مدّت ظلّ سطوتها على البلاد الواقعة في جنوبيّ دمشق وشرقيّها . وكان شيخ القبيلة اوانئذٍ يدعى بطلميوس ابن منّايوس من اعظم اهل سوريّة ثروةً وقدرًا . وكان يحكم على بلد الايطوريين الاصليّ (٢ ويتولّى الجبل الشرقيّ وجهات البقاع الشماليّة مع مدينتي بعلبكّ وكَلسيس (Chalcis) وكان لهُ عسكرٌ من الفرسان يبلغ عددهُ ٨٠٠٠ فارس

ولمّا زحف پمپيُّوس على لبنان وجد طرابلس وما يجاورها من لبنان الشمالي (٣ في قبضة احد الايطوريين من قرابة بطلميوس بن منّايوس يُدعى ديونيسيوس . فاضطُرَّ الرومان لتوطيد دعائم سلطانهم ان يحاربوا هؤلاء الدخلاء حربًا عوانًا كانت نتيجتها وبالًا على اهل ايطوريّة فاسر پمپيُّوس قائدُهم ديونيسيوس وأمر بقطع رأسهِ ثم توغّل في لبنان فاخرب حصون جيغرتا وسنّان و بوروما (٤ وكان غزاة الايطوريين يقحمون من هذه المقامات المنيعة على المدن الساحليّة فيوسعون اهلها نهبًا وقتلًا . وقد حاولنا في مقالاتنا السابقة ان نبيّن مواقع هذه الحصون فلتُراجع

---

١) كل الاعلام الايطوريّة الاصل الواردة في الكتابات القديمة امّا عربيّة وامّا آراميّة . راجع مجموع الكتابات اللاتينيّة (CIL, III, n° 4371 etc.) راجع ايضًا تفاصيل اخبار الايطوريين في معجم الكتاب المقدّس (Vigouroux : *Dict. de la Bible*, art. *Iturée*)

٢) ايطوريّة الاصليّة توافق بلاد اللجأ وجيدور الحاليّة . وقد ورد ذكر ايطوريّة في انجيل لوقا (٣ : ١)

٣) اعني ما يشمل اليوم قائمقاميّات الكورة والبترون وقسم من بلاد جبيل

٤) ان صحّ قولنا عن وقوع سنّان و بوروما في كسروان فيكون ملك الايطوريين بلغ هذه المعاملة ايضًا

وقد حارب بمبيّوس مدينة كلسيس الايطوريّة فدمّرها . وكلسيس على الرأي الراجح هي مدينة عين جرّ التي تُرى اخربتُها في سهل البقاع . امّا قول البعض أنّها هي زحلة فلا نصيب لهُ من الصحّة كما سنبيّنهُ في كلامنا عن هذه البلدة

وخلاصة القول انّ الآثار تنبئنا بامتداد سلطة الايطوريين في قسم كبير من لبنان الشماليّ . ولما انتصر الرُّومان عليهم وفتحوا معاقلهم تقلّص ظلُّهم وباد ذكرهم من التاريخ ولا رَيب انّ بقاياهم امتزجت باهل لبنان

وممَّا يدلّ على وجود الايطوريين في لبنان ما وجدنا في الكتابات اليونانيّة من الأَعلام العربيّة لاسيَّما في رأس الشقعة وانحاء جبيل

وليس الايطوريّون القبيلة العربيّة الوحيدة التي دخلت في عداد اهل لبنان . بل نجد قبائل غيرها توطّنت ذلك الجبل لاسيما التنوخيين (١ . وهذا الامر مهمّ لمعرفة عناصر اهل لبنان نكتفي اليوم بالاشارة اليهِ فقط

٤ الرومانيُّون

استفدنا من الفصل السابق ان الجيوش الرومانيَّة قهرت الايطوريين في لبنان وكسرت شوكتهم . ولسائلٍ ان يسأَلنا وهل احتلّ الرومان في لبنان فاستعمروه ؟ اليس وجود الكتابات اللاتينيَّة المتعدّدة في هذا الجبل دليلًا على سكناهم فيهِ ؟ نقول انَّ جوابنا عن توطُّن الرومان في لبنان كجوابنا عن اليونان وقد اثبتنا ان الكتابات اليونانيَّة وحدها لا تدلُّ على انَّ اليونان استخاروا لبنان لسكناهم . فهكذا قُل عن الرومان فان الكتابات اللاتينيَّة تشير الى تملّكهم على الجبل وتدلُّ على انّ اللغة اللاتينيَّة اضحت اللغة الرسميَّة في بلاد الشام في القرن الاوَّل السابق لعهد المسيح والقرنين التابعين لهُ

هذا ولا ننكر انّ بعض الرومان وخصوصًا اصحاب مستعمرتي بيروت وبعلبكّ الرومانيين كانوا يملكون في لبنان اقطاعات كثيرة من جملتها املاك الايطوريين لكنّ الرومان في الغالب لم يتولَّوا بانفسهم زراعة هذه الاملاك وانَّما كانوا يعهدون امرها الى

---

١) جاء في كتاب البلدان لليعقوبيّ انَّ لبنان المجاور لصيداء كان يسكنهُ قوم من قريش ومن اهل اليمن (راجع المجلَّة الالمانيَّة الفلسطينية ZDPV, IV, 87)

شركاء وطنيين يقومون بشؤونها ويستثمرونها باسمهم ٠ وان وُجد منهم احد في لبنان فالصواب ان يقال انَّهم كانوا نفرًا قليلًا ٠ ومن ثمَّة لا يجوز ان ننظم الرومانيين بين الشعوب اللبنانيَّة القديمة

٥ المَرَدَة

في بُهرة القرن السابع اعني سنة ٦٧٧ م يذكر مؤرخو اليونان لاوَّل مرَّةً قوماً يجعلون سكناهم في جبال الشام من جبل اللكَّام شمالًا الى حدود فلسطين جنوبًا وهم يدعونهم مردانيّين ويعرفهم المحدثون باسم المَرَدَة ٠ ومن غريب امر هذا الشعب انهُ لم يبدُ في بادئ ذي بدء ضعيفًا ضئيلًا بل نراه جاثمًا فوق مشارف لبنان ضابطاً مضايقهُ شاغلًا كلَّ نقطهِ الحصينة على مدى طولهِ من الشمال الى الجنوب وليس من يقوم في وجههِ بل كثيرًا ما ينقضُّ من مراكزه الحريزة فيغزو المعاملات القريبة منهُ دون ان يردّ احد هجماتهِ ٠ ولم يزل امر هؤلاء المَرَدَة في اشتداد حتى صار كلُّ الملهوفين والمطرودين من اهل الوطن واصحاب الفاقة يلتجئون اليهم ويلوذون بحمايتهم ويزيدونهم عددًا وقوَّةً ٠ ولا غروَ انهم لو ثبتوا مدَّة على ذلك لأتوا بالاعمال الخطيرة لولا انَّ ملوك الروم الذين كان المَرَدَة يخضعون لهم امروهم بالخروج من لبنان بعد ظهورهم فيهِ ببضع سنين فاندثر امرهم على فورٍ كما ظهروا بغتةً دون ان يبقوا في لبنان اثرًا من مرورهم (١

فمن ذا تُرى هذا الشعب ؟ كيف ظهر فجأةً دون ان يذكر احد وجودَهُ في بلاد الشام ولبنان سابقًا ؟ أنَّى خرج ؟ هذه اسئلة اقترحها قبلنا العلماء وحاولوا حلّ عقدتها ٠ وممَّا يدلّ على ان الامر ملتبس عويص ان العلماء ذهبوا في ذلك مذاهب شتَّى ندوّنها هنا دون ان نبدي فيها رأياً تاركين لقرَّائنا ان يصوّبوا الرأي الذي يرونهُ اصحّ واثبت

ولا بُدّ قبل بسط هذه الآراء المتباينة ان نروي اقوال الكتبة الاوَّلين الذين ذكروا المَرَدَة مباشرةً لانَّ اقوالهم من شأنها ان تعرّف هذه الطائفة وتبيّن خواصّها

---

١) زعم رينان في كتاب بعثة فينيقية انَّ قلعة سمَر جبيل من آثار المَرَدة في لبنان وهو قول بلا دليل عوَّدنا على مثلهِ هذا الكاتب الذي يتَّخذ مخيّلتهُ حجَّةً لمزاعمهِ ٠ وقد بيَّنا غير مرَّة انهُ كثيرًا ما يرمي الكلام على عواهنهِ ولا يسندهُ الى الادلَّة

يؤخذ من اقدم ما ورد عن المرَدَة ان لبنان لم يكن مركزهم الاوَّل. قال المؤرخ تاوفانوس عنهم (١ : « انَّ المرَدَة دخلوا لبنان » . (εἰσῆλθον εἰς τὸν Λίβανον) وفي هذا القول ما لا شبهة فيهِ عن مجيئهم الى لبنان من محلّ آخر. ثم اردف تاوفانوس قائلًا : « والتجأ اليهم الوطنيُّون » وفي هذا دليل على انَّ المردة لم يكونوا من اهل لبنان بل غرباء عنهُ . امَّا عددهم فكان وافرًا يبلغ « اثني عشر الف رجلٍ » شاك السلاح دون النساء والاطفال . وممَّا يدلُّ على بطشهم انهم في مدَّة اقلّ من نصف قرن ملأوا القلوب رعباً بغزواتهم المتواصلة

والمؤرخون اذا اشاروا الى المرَدَة دعوهم بلفظة عسكريَّة وهي τάγμα يراد بها فرقة من الجند او الطابور . واسمهم هذا دليل على انَّهم لم يكونوا شعبًا كبقيَّة الشعوب بل كانوا على هيئة عسكريَّة ونظام حربيّ يفلحون الارض وقت السلم وهم على أُهبة لمباشرة الحرب في ايَّة ساعةٍ كانت . ولنا مثَل على هذا التنظيم في امَّة الكرواتيين التي كانت في القرن الثامن عشر تحافظ على حدود النمسا في جنوبيها. وكان للرومان ايضاً فئات عسكرية من هذا الصنف كانوا يقيمونها عند ثغور مملكتهم فيدعونهم لاجل ذلك بالفئات الحدوديَّة (limitanei) اعني انهم يذبّون عن الحدود ويدفعون عنها الاعداء. وكان اولادهم يرثون تلك الاملاك من بعدهم ويجرون مجراهم في الدفاع عن ثغور الدولة. وكان الرومان يختارون لمثل هذا المشروع قدماء الجند المحنَّكين في آداب الحروب ثمَّ وكَلوا ذلك بعدئذٍ الى بعض اهل البلاد المجاورة لحدود المملكة (٢

وان سألت عن الدولة التي كان المرَدَة يخدمونها اجبناك انَّهم كانوا تحت حكم ملوك الروم فهم الذين تقدَّموا اليهم بالمدافعة عن الثغور الشاميَّة وهم الذين صرفوهم عنها وانزلوهم في نواحي آسيَة الصغرى كما سيأتي

فهذه الافادات عن المرَدَة لا ريب يقرُّ بصحَّتها كلُّ المحدثين لانها وردت في

---

١) راجع تاريخهُ في مجموع الآباء اليونان المجلَّد ١٠٨ (PG. T. 108, p. 722, 733, 737,) والترجمة اللاتينيَّة هنا لا تؤدي المعنى تامًا فقد ترجم « aggressi sunt » اي « هجموا » بدلًا من « ingressi sunt » اي « دخلوا »

٢) راجع معجم العاديَّات اليونانيَّة والرومانيَّة Saglio et Darenberg : *Dict. des antiquités grecques et latines*, I, 1374

تواريخ مشاهير الكتبة الذين عرّفوا هؤلاء القوم ووصفوا احوالهم

ولكن هنا مسألة أُخرى لا يتّفق فيها ارباب العلم نريد اصل المردة وجنسيّتهم . فقد ارتأى بعض الائمّة ومنهم العلّامة السمعاني والحاقلاني ومرهج بن غرون والدويهي ومن تبعهم من علماء الموارنة وبعض الكتبة الاوربيين كبارونيوس ولوكيان وغيرهما انّ المردة هم الموارنة . واقوى حججهم لبيان ذلك انّ المردة كانوا قومًا من النصارى يسكنون لبنان ولا نعرف في القرن السابع شعبًا يدين بالنصرانيّة ويسكن لبنان غير الموارنة . وان اعترض معترضٌ على اصحاب هذا الرأي بقولهِ انّ المردة كانوا فرقةً جنديّة موفدة من ملوك القسطنطينيّة الى بلاد الشام انكروا الامر قائلين لو كان المردة طائفةً من الجند لخرجوا من لبنان بعد انعقاد الصلح والامر ليس كذلك فانّ المؤرخين يذكرون انّهم داوموا غزواتهم بعد الصلح الذي عقدهُ يستنيان الثاني وانهم لم يكفّوا عن عاداتهم حتى ابرم هذا الملك معاهدةً ثانيةً وارسل الى المردة عصبةً تصرفهم من لبنان بالوعد والوعيد الى بلاد الارمن حيث كان الملك وقتئذٍ (١ . فهذا الاحتجاج لا يخلو من القوّة وهو يبيّن ما في هذا البحث من المعضلات

امّا اصحاب الرأي الآخر فينكرون توحيد المردة والموارنة ويسندون رأيهم الى كون المردة ليسوا وطنيين كالموارنة بل غرباء عن لبنان اتوهُ من الخارج كما سبق القول ثم استولوا عليهِ فحصّنوهُ في وجه العدوّ مدّةً الى ان برحوهُ بعد زمن قليل

وممّا يدعم بهِ هؤلاء رأيهم في اختلاف المردة عن الموارنة ان المردة كانوا خاضعين لملوك الروم . قال ابن العبري في تاريخهِ السرياني (ص ١١٥) : « ان المردة جنودٌ للملك قسطنطين اللحياني ارسلهم الى الشام للمدافعة عنها » . وكل هذا لا يوافق الموارنة الذين خلعوا عنهم ربقة ملوك الروم كما يظهر من تواريخهم ومن تصرّفهم مع ملوك بوزنطية والملكيين انصارها

ويزيد اصحاب هذا المذهب الثاني انّ كلام تاوفانوس وقدرينوس (Cedrenus) وغيرهما ممّا ينفي عن المردة اصلهم اللبنانيّ . والمردة على قولهم كانوا قبل دخولهم في لبنان يقطنون بلاد الارمن وولايات آسية الصغرى واليها رجعوا بعد غزواتهم في لبنان . وقد

---

١) راجع ردود المثلث الرحمات المطران يوسف الدبس على الاب الصمودي قاليه (ص ٤) ورسالته الينا في المشرق (٥ [١٩٠٢] : ٩١٤)

كتب احد علماء الفرنج اسمهُ انكتيل دوبارون (Anquetil-Duperron) مقالتين مطوَّلتين في مجلّة الكتابات والفنون ليثبت ان المَردَة من الشعوب التي كانت قبل المسيح وانهم هاجروا الى بلاد عديدة في ممرّ الاجيال ومنهم مرَدة لبنان ومن ثمَّ ليسوا بالموارنة (١

وان سألت الذاهبين الى هذا القول : وما هي على رأيهم جنسيَّة المردة . اجابك بعضهم انَّهم اصلًا قبيلة ايرانيَّة دخل فيها اخلاطٌ من عناصر سوريَّة وارمنيَّة (٢

والاب مرتين في كتابهِ المخطوط « تاريخ لبنان » يقول انَّ المردة من العرب وهو يشتقّ اسمهم من « التمرُّد ». وهذا رأي ضعيف لان المردة لم يأتوا من جزيرة العرب ولا من جهة الشرق وانما دخلوا لبنان قادمين من الشمال . وهذا مما يرجّح رأي القائلين بان المردة اتوا لبنان من جهة آسية الصغرى . ثم لم يُفِدنا احد من المؤرخين عن دخول العرب الى لبنان في القرن السابع. وان قال القائل انَّ هؤلاء كانوا من نصارى غسَّان من الذين استعان بهم ملوك الروم اجبنا ان الغسَّانيين لم يخدموا اوانئذٍ ملوك القسطنطينيَّة خدمةً تذكر بل لم يلبثوا ان انحازوا الى العرب مواطنيهم وكلُّ ذلك يخالف ما جاء عن المردة في كتب المؤرخين . وعلاوةً على ذلك انَّ الغسَّانيين كانوا من اليعاقبة وفي عهد المَردة كان ملوك الروم يطاردون هذه الشيعة ولم يكن المردة من قبيلة عربيَّة أُخرى لانَّ العرب كانوا في ذلك العهد من ألدّ اعداء الروم فليس المردة اذن عربًا

هذا ومن المقرَّر الثابت انَّ ظهور الموارنة كأُمَّة مستقلَّة قد اتَّفق مع عهد حروب المردَة في لبنان . وان لم يسلّم القرَّاء بان الموارنة هم المَردة فانَّهُ لا سبيل الى النكران بانهُ وجدت بين الفئتين علاقات وديَّة . وممَّا يتَّضح ايضًا من تاريخ ذلك العصر انَّ الموارنة عند خروج المردة من لبنان لم يتبعوهم في مهاجرتهم الى آسية الصغرى بل ثبت معظمهم في جبلهم

امَّا المردة فجعلوا بعد عودتهم سكناهم في وطنهم القديم بلاد الارمن . وترى منهم من قطن في جوار اضالية . ورحل قسم منهم الى جزيرة قبرس واحتلّ غيرهم بلاد اليونان

---

١) راجع Anquetil - Duperron : *Mémoires sur les migrations des Mardes* Mém. Acad. Inscr., T. XLV, 87 et L. 1 *et seqq.*

٢) راجع تاريخ دولة الروم Rambaud : *L'Empire Grec au X^{e} Siècle,* p. 213

ومورة ونواحيها . ولم يزالوا في كلّ هذه البلاد على نظامهم العسكري وكان لهم ضبّاط يدعونهم كاتيپانو (κατεπάνω) . هذه خلاصة ما ورد في امر المرَدة ومن استزاد امكنهُ ان يراجع ما كتبهُ عنهم قدرينوس (ك ١ ص ٧٦٥ و ٧٧١ طبعة بون) وزوناراس في مجموع اعمال الآباء اليونانيين (ج ١٣٤ ص ١٢٩٧) وتاريخ قبرس (ج ١ . ص ١٠٦) للعلّامة ماس لاتري (Mas-Latrie) والسمعاني في المكتبة الشرقيَّة ومجلّة اصداء الشرق (١٩٠١ ص ١٥٦) وساخاس (Sachas : Μεσαιωνίκη βιβλιοθήκη, II, 45 seqq.)

٦ الجراجمة

قد رأى القرّاء ما في مسألة المرَدة من المعضلات التي لم يحلّها حتى الان فطاحل العلماء (راجع الصفحة ٤١ والمشرق ٥ : ٩١٤) على انَّ هذا المطلب يقودنا الى بحثٍ آخر لهُ معهُ بعض العلاقة نعني بذلك امَّة الجراجمة

يفيدنا التاريخ ان في القرن التاسع قبل الميلاد كانت في شمالي غربي سورية مملكةٌ صغرى تدعى جرجومة عاصمتها مرعش . والمرجَّح انَّ هذه الدولة أُنشئت من بقايا دولة الحثيين البائدة (راجع ص ٢٩ من هذا الجزء) خلفتها في ولاية قسم من بلادها في زمنٍ لا يمكن تعريفهُ بالتدقيق . بيد اننا نعلم ان اهل هذه المملكة لم يكونوا من عنصر آرامي لان دولة الآراميين لم تمتدّ الى تلك الجهات على الاقل في الجيل المذكور . واسم الجراجمة واردٌ في الكتابات الاشوريَّة التي تفيض في احوال هذا الشعب والتقلّبات التي طرأت عليهِ . ولا نجد بعد الآثار البابليَّة ذكرًا للجراجمة الى عهد المردة في لبنان اعني القرن السابع للمسيح

قال البلاذري في كتاب فتوح البلدان (ص ١٥٩ — ١٦٣) في مطاوي كلامهِ عن فتح العرب لبلاد الشام : « انَّ الجراجمة من مدينةٍ على جبل اللُكَّام عند معدن الزاج فيما بين بيَّاس وبوقا (١ يقال لها الجرجومة » فيظهر من هذا القول انَّ الجراجمة لم يلبثوا ساكنين في المكان الذي اشارت اليهِ كتابات الاشوريين قبل خمسة عشر قرناً الَّا انهم كانوا منحصرين في قسم من اللكَّام (أَلْما داغ) بين مدينة بيّاس الساحليّة ونهر قراسُو . وكانت مدينتهم الكبرى التي منها اتَّخذوا اسمهم لا تزال تدعى جرجومة

---

١) لم نجد في كتب البلدان لجغرافيّي العرب ما يعرّفنا بموقع بوقا الَّا كونها من عمل انطاكية

ثم يذكر البلاذريّ تاريخ الجراجمة على مألوف عادتهِ في ذكر غيرهم من الشعوب القديمة فترى في كلامهِ بعض الابهام لانهُ يروي في حقّهم الروايات المختلفة التي جمعها دون ان يكدّ ذهنهُ في ثبات صحّتها او التوفيق بينها . الّا انّ الذي يتروّى في كلامهِ ويقابل بين هذه الروايات الشتّى يأخذهُ الانذهال لما يجد بين اخبار الجراجمة والمَردة من التشابه . فان ما ذكرهُ المؤرخون اليونان عن قدوم المَردة من شمالي سوريّة الى جنوبها وعن احتلالهم جبل لبنان وسكونهم في جوار حمص وبعلبك ودمشق قد رواهُ البلاذري عن الجراجمة على عهد الخليفة الامويّ عبد الملك وهو على وشك السير الى بلاد العراق . ثم اردف البلاذريّ قولهُ بقولهِ : « وَضوَتْ اليها (اي الروم) جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط وعبيد أُبّاق من عبيد المسلمين » . وهو كلامٌ ينطبق على قول المؤرخ تاوفان في المَردة كانّ المؤرَخيْن اليونانيّ والعربيّ سندا قولهما الى رواية واحدة لا تكاد تختلف حتى في اللفظ

ثم ينتهي امر الجراجمة في تاريخ البلاذري كما ينتهي امر المردة في تاريخ تاوفان